

www.ibtesama.com

ألف مدار

الغيل المُجزَّر



** معرفتى **

www.ibtesama.com

متلقيات مجلة الابتسامة

** معرفتی **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الابتسامة

الغول الأزرق

الفيل الأزرق

أحمد مراد

تصميم الغلاف: أحمد مراد

تصوير فوتوغرافية: خالد ذهني

الطبعة الأولى ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٨ شارع سبيوه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر

تلفون: ٢٤٠ ٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٦١٧٠

ISBN 978-977-09-3154-7

أحمد مراد

الليل أقرب

دلل الشروق

** معرفتی **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الابتسامة

أغسطس -

درجة الحرارة: 43°C

منبه المحمول انتزعني من غياب النوم، رافقاً على جانبي الأيسر
الفظ أنفاسي، فلبي منسحق في ضلوعي، صفراء معدتي تسلخ حلقي
والعرق يكسوني كملاكم في جولته الثانية عشرة..

مددت ذراعي قسراً إلى المنضدة فلم تتحرك ثمنياً، نفختها ليتدفق الدم فيها قبل أن التقط المحمول لأخرس إلحااح جرسه المستفز، تحاملت لأجلس مقاوماً مسکرات الاستيقاظ وصداع شرعي من بقايا الكحول في أوردي، جمرة مستعرة في مؤخرة رأسي تصبّ الحمم بين عيني، في مرآة الدولاب المواجه لمحتني، مأساة إغريقية لن تدوّن! فرّدت ظهري فطقطقت فقراتي المما قبل أن ألف سجارة الاستباح وأنا أتأمل الماكينة الـ «Harley Davidson» (لون كريمي) طراز «Fat Boy» ١٣٢ فرس؛ الرّابضة بجانبي تحتضن المخدّات بين ساقيها، ليلة أمس رَوْع زئير موتورها جيراني وترك لي رُكوبها شدّاً عَضليّاً، تأملت مُحنّياتها القياسية، منكبها ناصعي البياض المُرصعين بالنّمش، خصلاتها الغجرية العابقة بالكحول، وعدادي السُّرعة المدللين اللذين تركت عليهما بصماتي ..

مَا يَا.. حَالَةُ الْجَوِ مَعَكَ دَائِمًا..

صَيْفًا كَارِيبيًّا.. عَلَى الْقَمَرِ.. ☺

استحلبت نيكوتيني ثم أنزلت قدمي أتحسن شيشيَا ترتحت فيه حتى المطبخ على صوت طقطقة كاحلي المعتادة في كل خطوة، التقطت من الثلاجة زجاجة «Meister» ترتجف، لا يفل صداع كحول إلا الكحول! تجرّعتها دفعه واحدة ثم أضفت الزجاجة بحرص إلى هرم الزجاجات الفارغة الذي أصدرت قراراً بتشييده منذ شهرين ليحمل إسمي تخليداً، بضع زجاجات إضافية وأبلغ القيمة! حملت مكعبات الثلج من الفريزر إلى الحمام، فتحت المياه بعدما وضعت السدادة ثم أفرغت يديّ، امتلاً الحوض فدست رأسي في المياه المثلجة قبضاً لأوعيتي المحتقنة، محاولة دبلوماسية لإقناع الدم بالكف عن طرق رأسي، دقّيقة وخبت العجمة، ثم انطفأت، زفرت أنفاسي في سبعة وثلاثين عاماً معكوسه أمامي في المرأة! زماناً يغير فيلاً، لكنه يظل فيلاً بخرطوم! أما أنا فلا! كل سنة تمر ألقى في المرأة غريباً أبذل جهداً في استيعاب قسماته، مقارنة بصور الثانوية العامة؛ أنا لم أعد أمتّ لي بصلة! هذا بالإضافة لعوامل التعرية؛ ذقن تغزوها الشعيرات البيضاء باستحياء، أسنان تطمسها السجائر والقهوة بالتناوب، وعينان تزحف عليهما العروق الحمراء زحف اللبلاب على الجدران..

موت خفيـف..

استسلمت للدش بارد قبل أن أغرس قلم الأنسولين الرّحيم في فخذي، ثلاثة وحدة يعوضون تقاعس بنكرياس مخزٍ ويحرقون

مقدّماً ما «سأر مرmine» من الشارع حتى الليل، سحقت سميكة في قطعة جبن وأنا أرمي ظرف خطاب الإنذار المُلقي فوق المنضدة، أخرجت الورقة منه وتمثّلت بعيني فوق كلماته اللزجات..

إنذار رقم ٢: «انقطاع عن العمل بدون إذن»..

«السيد / يحيى... مم... وحيث إنك قد تعدّيت المدة القانونية ١٥ يوماً» منقطعاً عن العمل بدون إبداء إذن تقبله الإداره... مم... فإن الإدارة مضطرة لاتخاذ... مم.. وتطبق أحكام المادة ٩٨ من القانون ٤٧ لسنة... مم.. بالفصل النهائي...».

لعن الله الشؤون القانونية وأحرق ملفاتها وشرد موظفيها!

بترت فراءتي وكوّرت الجواب لأليبيه في صندوق القمامه ليسقط كالعادة بجانبه، ثم دلفت غرفتي وفتحت الدولاب لأنقطع ما أرتديه حين لمحت ستراً قديمة توارى مني في رُكن، نفستها وجربتها فُضولاً فبدوت داخلها نحيلة كمطرقة الجرس للجرس، خلعتها ووضعتها في كيس وأكملت ارتداء ملابسي مُجاهداً للمعثور وسط العَدم والتّيه على جورين من نفس اللون قبل أن أتجه لمايا النائمة على بطنها قبيلة طعنات اللذة، أزاحت خصلاتها من فوق أذنها ووسّست لها:

- مايا.. عندي مشوار لازم أروحه..

لم تتحرك ولم تفتح جفنيها، فقط أجبت بشفاه مبحوحة ملئها الدلال:

- بتهزّر.. استنى أما أصحا..

- ما ينفعش.. أبقى كلامي..

تشاءبت..

..ok -

- اقفلني مَجِسِّنُ الحمام بعد ما تستحمي واقفلني الباب بالمفتاح.
مايا! سامعاني؟

..ok.. ok -

أهم ثلاثة اكتشافات عرفتهم البشرية:

الكهرباء..

الكحول..

ومايا ^{٢٨} .. سنة من الخبرة..

طبعت على ظهرها قُبْلَة قبل أن أخرج إلى الحديقة المَنْسِيَّة المُحيطة بيتي، مشيت فوق العشب الجائع قبل أن أمر بسيارتي الراقدة أمام المدخل مثل خرتبت متزوع القرن، الغطاء كان مَرْفُوعاً عن الرَّفِفِ الأيسر، أرخيته حتى كَسَا العَجلة الفارغة التي عانقت الأرض ثم عَبرت الشارع واحتسبت جريدة هي الأولى التي أبتعتها منذ خمس سنوات، أشرت لراكسي غُصت في كُبْته وارتديت نظاري الشَّمسيَّة قبل أن أخرج عَذْتِي المُتواضعة؛ بقرة وتبغا وماكينة لف، لا أطيق السجائر الجاهزة سريعة الاشتعال المليئة بالفتران المَهْروسة وبصاق العاملين! حَشوت عشر سجائر «شرعية» سِيكِفونني نصف النهار وأنا أتابع عَيْنِي السائق تلعنني في المرأة بشفتين مُشمَّزَتَين

يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِنْ حَشَاشَ مَارِقٍ، هَذَا الرَّجُلُ لَا يَعْرُفُ أَنِّي لَمْ أَزِدْ
أَعْوَنِي، الْثَّلَاثَةِ أَيَّامٌ كَامِلَةٌ حَتَّى الْآنَ!

أَطْلُولَ مُدْلَهْ قَضَيْتُهَا بَعِيدًا عَنْ حَشِيشَهِ الْمَغْرِبِيِّ!

حَشَوشَ السَّجَاجِيرِ فِي عَلَبِتِي وَأَنْزَلَتِ الزُّجَاجَ لِأَنْفَتِي نِيكُوتِينِي فِي
الشَّوَّارِعِ، أَتَابَعَ الْمُمْزَلِقِينَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ أَنْصَافَ نَيَّامٍ يُحَاكِرُ الْعُمَاسِ
أَعْيُنِهِمْ، قَبْلَ أَنْ أَنْخَشِرَ فِي زِحَامِ جَمَاعِيِّي أَتَسْأَلُ إِذَا مَا تَمَّ غَزوَنَا:

مَلِ مَسِيْجَدِ الْغُزاَةِ مَكَانًا خَالِيًّا لِلْدَّبَابَاتِهِمْ؟

فَتَحَتَّ الْجَرِيَّةَ وَلَمْ تَخْذُلْنِي، الْمَلَلُ كَانَ رَئِيْسَ الْتَّحْرِيرِ! أَرَحْفَتْ
حَشِيشَةَ الْحَوَادِثِ قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَ:

- هُوَ الْمَتْحَفُ الْإِسْلَامِيُّ اتَّسْرِقُ؟

سَأَلْتُ السَّاقِ بِجَهْلِ حَقِيقِيِّ فَحَدَّجَنِي فِي الْمَرَأَةِ بِنَظَرَةِ تَفَوْقٍ
عَلَى دَسْبَةِ الْأَمْ، قَبْلَ أَنْ يُجَيِّسِنِي:

- حَمْدُ اللَّهِ عَلَى السَّلَامَةِ يَا بَاشاً.. الْكَلَامُ هُوَ مِنْ تَمْسَهُرِ.. وَمِنْ
لَاَقِينِ الَّذِي سَرَقَ لِحَدِّ دَلْوَقَتِ.. كُلُّ يَوْمٍ يَقْبَضُوا عَلَى وَاحِدٍ وَيَطْلَعُ
مَشْ هُوَ.. وَلَادُ الْكَلْبِ صَرَفُوا عَلَى تَجْلِيلِهِ وَتَأْمِينِهِ يَجْيِي دِيشَلِيُونَ
جَنِيهِ.. وَفِي الْآخِرِ يَتَسْرِقُ!! كَانُوا صَرَفُوهُمْ عَلَى عَلاَجِ الْحَشَاشِينِ
الَّذِي مَلَوَ الْبَلْدَا!

اسْتَبَلَتْ رَسَالَتِهِ الْمَسْمُوَّةُ بِبَسْمَةِ صَفَرَاهِ فَأَغْلَقَتِ الْجَرِيَّةُ
وَحَشَرَتِهَا فِي ظَهِيرَةِ الْكُثُرِيِّ الْمُقْبَلِيِّ لِمَنْ يَعْلَمُ، ثُمَّ اسْتَمْتَعَتْ
بِالْعَوَادِمِ وَالْفَسْجِيجِ وَدُخَانِيِّ الَّذِي سَابَقَهُ حَشِيشَهُ حَتَّى وَصَلَتْ أَمَامَ سُورِ
الْمُشْتَفِيِّ؛ مُشْتَفِيِّ الْعَبَامِيَّةِ لِلْأَمْرَاءِ النَّفِيَّةِ، حَاصِبَتِ السَّاقِ

السَّاخط واقتربت من كشك الأمان؛ بَرَزَ لِي رَجُلٌ يَكْرِش تدلى
حتى الرُّكبة.

- زيارة؟

- إِزِيك يا عبد الفتاح..

ضيق عينيه مدققاً قبل أن يتهدّل وجهه:

- يَا نَهَار أَيَا أَنْض، دُكْتُور يَحْمِي، وَالله ما عَرِفْت حَضْرَتَك، الدَّقْن
مُغَيْرَة شَكْلَك، الْمُسْتَشْفِي نُورَت، اتَّفَضَل..

توغلت وَسْط العَنَابِر الفِيروزِيَّة الباهنة، بِثَيَاتِهِ مِنْ هُور وَاحِدَيَّر جَع
بعضها لأَكْثَر مِنْ مائة عام^(١) مَضَتْ، يَهِيمُ النَّزْلَاء حَوْلَهَا بِأَجْسَامِهِم
الهَزِيلَة، نَظَرَاتِهِم الشَّاسِخَة شَحِيقَة التَّعْبِير، نُقوسِهِم العَزِيزَة بَيْن
أَكْتافِهِم المَحْنِيَّة، وَأَكْيَاس بلاستِيكيَّة مُعلَقة في أَصْبَاعِهِم تَأْوي حِيَاة
وَكِراكيِّب وأَحَلَاماً تَبْحَثُ عَنْ يَفسِرُهَا..

لَمْ يَكُنْ فِرَاقَهُم خَمْس سَنِين ليُغَيِّرَ مِنْ أَكْثَرِهِم شَيْئاً!

قَبْلَ أَنْ أَصِلَّ أَمَامَ مَبْنَى الإِدَارَة لَمَحَتِ الجَثَّة في وَسْطِ الْحَدِيقَة،
مُقْطَعَة الأُوصَال لم يَجْرُؤ أحد على مُوارَاثِهَا التُّرَاب، انْحَنيَتْ أَلْمَسِ
الْقَلْب، قَلْب شَجَرَة الكافور الذِّي فَقَدْ حُمْرَتْهُ وَبَاتَ فِي شُحُوبِ
الْتُّرَاب، عِمَلاًق انْهَزَمَ وَصَارَ جَسْدَه مَقَاعِدَ لِلْعَابِرِينَ.

- يا دُكْتُور !!

(١) يَرْجِعُ بِنَاءَ مُسْتَشْفِي الْعَبَاسِيَّة لِعَام ١٨٨٣ م.

بجانبي نَبَتْ «عَمْ سِيد» من عَدَم؛ أَشْهَرْ مَرْضى الْمُسْتَشْفِي، تَرْزِي
عَيْقَنَ تَخْطُّى العَقْدِ السَّابِعِ وَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ تارِيخًا لِدُخُولِهِ، وَلَا حَتَّى
هُوَ !! «Residual Schizophrenia»^(١) كَانَتْ حَالَتِهِ حِينَ تَرَكَتْهُ مِنْذِ
خَمْسَةِ أَعْوَامٍ، يَرْتَدِي قَمِيصًا كَانَ أَخْضَرُ وَقَبْعَةً رِياضِيَّةً هَالَّكَةَ لَمْ تَخْفِ
ابْتِسَامَةً شَحِيقَةً الْأَسْنَانِ، تَطَلُّ نِصْفَ قَدْمِيهِ مِنْ قَبَّاقَ خَشْبِيٍّ مَهْتَوِكٍ
لَتُدْلِي بِأَصَابِعِهِ الْمَنْسِيَّةِ إِلَى الْأَرْضِ، وَيَحْمُلُ فِي يَدِهِ كِبِيسًا مُتَخْمَّاً
بِالْأَقْمَشَةِ وَالْخُيُوطِ وَالْإِبْرِ:

- أَهْلًا عَمْ سِيد.. إِزْيَكْ يَا رَاجِلْ يَا طَيْب..

هَمَسَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ:

- هُوَ عَارِفٌ إِنْكَ هَتَرْجِعُ.. مَكْتُوبٌ نِتَقَابِلُ عَنْدَ الشَّجَرَةِ ..

تَخْطَّيَتْ إِشَارَتِهِ عَمْنَ قَالَ لَهُ إِنِّي سَأَرْجِعُ وَسَأَلَّهُ عَنْ شَجَرَةِ
الْكَافُورِ الْمَقْطُوْعَةِ.

- سَمِعْتُ بُودَانِي صَرِيحَهَا وَهُمَا يَدْبِحُوهَا..

- صَرِيحَهَا !! زِيَ الْفَل.. أَنْتَ لَسَهُ فِي «رِعَايَةٍ وَسَطِيَّةٍ» مَشِّ كِدَه؟
هَا عَدَّيْ عَلَيْكَ يَا عَمْ سِيد..

هُمُ الرَّجُلُ بِالرِّحْيلِ فَاسْتَوْقَفَهُ وَنَأَوَلَتْهُ سَتْرَتِي الْقَدِيمَةِ .. سَتَبِدوُ
عَلَى جَسْدِهِ كَغُطَاءِ سِيَارَةٍ فَوْقَ مَوْتُوسِيَكِلٍ !

(١) الفَصَامُ الْمُتَبَقِّي: يَتَسَمُّ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْفَصَامِ بِضَلَالَاتٍ وَهَلَاؤِسٍ وَاضْحَاءٍ، يَظْلِمُ التَّفْكِيرَ
غَيْرَ مَنْتَظَمٍ مَعَ اخْتِلَالٍ فِي السُّلُوكِ وَتَدَهُورٍ فِي مَسْتَوِيِ الأَدَاءِ الاجْتِمَاعِيِّ وَالْوَظِيفِيِّ،
يَهْمِلُ الْمَرِيضُ مَظَاهِرَهُ وَنَظَافَتِهِ وَيَظْلِمُ سَلَيْئًا مَنْسَجِّبًا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمَجَمِعِ.

- آيفها بقى وظبّطها على قذك أنت أستاذ.. دي كانت جيالي من
بره والله..

ابتسم الرجل مُمتنًا قبل أن يَحتضن السُّترة ويَرْحل..

صَعدت سَلَالِمَ مَبني الإِدَارَةِ مَجْنِبًا أَعْيُنْ زُمَلاءِ وَعَامَلينْ تَمسَحُنِي
مَسْحًا، دَرَاً لِأَسْئَلَةِ لَنْ أَجِدُ فِي نَفْسِي عَزْمًا لِلرُّدِّ عَلَيْهَا، تَجَاهَلتُ
فُضُولَهُمْ وَدَلَّفْتُ مَكْتَبَ مُدِيرَةِ الْمُسْتَشْفِيِّ، دُكْتُورَةَ «صَفَاءَ»، رَغْمَ
تَخْطِيَّهَا مُتَصِّفَ الْخَمْسِينِيَّاتِ لَا زالت تَحْتَفِظُ بِمَسْحَةِ جَمَالٍ تَرْمِمَهُ
الْمَسَاحِيقُ وَأَظَافِرَ مَصْبُوْغَةَ مُعْتَنِي بِهَا، حِينَ رَأَتِي عَنْدِ الْبَابِ أَنْهَتُ
مُكَالَمَةَ تَلِيفُونِيَّةً وَرَمَقْتَنِي بِعِتَابٍ بِائِتَ أَرَادْتُ مِنْيَ اسْتَشْعَارَهُ حِينَ
صَافَحْتَهَا «كَاتِمُ الْأَنْفَاسِ» كَيْ لَا يَنْفَلْتَ مِنْيَ عَبْقَ كُحُولِ الصَّبَاحِ..

- أَهْلًا يَا يَعِيَ.. إِيَّهُ! الْمُسْتَشْفِيِّ مَا وَحْشَتَكُشْ؟!

جلستُ أَمَامَهَا:

- وَحْشَتَنِي، بِدِكَاتُرَتَهَا وَعِيَانِينَهَا..

- تَشْرِبُ إِيَّهُ؟

حاوَلَتْ تَحْمَلُ أَشْعَةَ الشَّمْسِ الْأَتِيَّةِ مِنْ شَبَّاكِ خَلْفِ رَأْسِهَا:

- قَهْوَة.. نُصْ مَعْلَقَةَ سُكَّر..

انْحَنَتْ عَلَى التَّلِيفُونِ:

- قَهْوَةَ عَلَيْهَا نُصْ مَعْلَقَةَ سُكَّرْ يَا بَدْر..

- إِيَّهُ الَّلِي حَصَلَ لِشَجَرَةِ الْكَافُورِ الْكَبِيرَةِ؟

- دي كانت فضيحة من أربع سنين.. الحمد لله إننا وقفناها على قد كده.. المحافظة كانوا عاوزين يشيلوا شجر أصغره ستين سنة!!
حعدنا الموضوع للوزير و «المصري اليوم» كتبت عنه.. مش ممكن تكون ما سمعتش !

- ما بقراش جراید.

- لسه قاعد لوحدك؟ مافيش...؟

- ما بارتاحش غير وأنا لوحدي، بس باروح إسكندرية كل أسبوعين
أزور ماما وأختي..

قاطع حديثنا دخول القهوة مع الساعي، حيانى بحضن ودود
وخد عرقان قهرت نفسى كي لا أمسح بلله قبل أن يخرج، أرخت
«صفاء» نظارتها على أنفها تصنع انشغالاً في الأوراق فعرفت أنها
قد أنهت مقدمة روتينية لا بد منها وتستعد حالياً لانقضاضة! نبلا
تركتني أرتشف بعض الكافيين ثم سالت بدون أن تنظر ل وجهي
إمعاناً في إرهابي:

- وصلك جواب شؤون العاملين؟

طلب الأمر رشفة أخرى قبل أن أجيبها:

- التهديد؟! وصل..

فجّرها استفزازي المُتعتمد:

- يعني أنت بالسنة دي كده كملت خمس سنين انقطاع عن
العمل! دي عمرها ما حصلت في تاريخ المستشفى، موظف خمس
سنين ما بيجيش ولسه على قوة المستشفى! طبعاً أنا مقدرة اللي حصل

ومفرملة الشئون القانونية ستين مرّة، لغاية ما بعتوا يسألوا عن وضعك
لما جت لجنة تفتيش من جهاز التنظيم والإدارة وسألت عنك وكانت
عاوزة تأخذ إجراء قانوني لو لا اتدخلت وأجلت تقديم الإفاده، أنا
طبعا اللي بيتجاوز ما باسكنتش معاه، وفي نفس الوقت ساكتة معاك!!
مش هاسمح لحد يقول عليا بوشين ولا باكيل بمكيالين.

- لأ طبعا، أنا عارف إن...

قاطعني:

- ده غير إن اللي هيتأذى بتوع الإجازات والشئون القانونية! اللي
زعلي أكتر إن دكتور عبد المعطي كمان جه اشتراكك، الراجل بيسرف
على رسالتك وأنت تلات سنين لا حس ولا خبر!! ولا خطة من
أصله، إيه الحكاية يا يحيى؟! لا شغل ولا رسالة.. فاضل إيه بقى!!

- البحث أخذ وقت.. وبعدين...

- قول لي إن الدكتوراه مش مهمة.. ماشي.. ممكن تعيش من
غيرها.. تعمل زمالة في أي جامعة من بره ولو إني أشك.. طب
الشغل؟ برضه هتعيش من غيره!!

- أنا خلّصت من الرسالة جزء معقول و...

قاطعني ثانية:

- دكتور عبد المعطي قال لي إنك بتقول له كلمة «خلّصت جزء
معقول» دي بقالك تلات سنين.. عارف ده يعني إيه؟

- عارف.. المشكلة بس إن...

فاطعنتي ثالثة:

- يعني بتنهى كاريوك ومستقبالك بجرة قلم ..

كلماتها ..

الفيلم الهندي المُعاد الذي تشاهده للمرة الأولى!

يعنى «أنا» مش مُديرة المستشفى وبس، «أنا» باعتبر نفسي أختك الكبيرة وأنت عارف، «أنا» أقصى حاجة مُمكن أعملها عشان تتجنب الفصل «إني» أرجوك الشغل كما كنت، وتستظم، وده عشان خاطري «أنا» شخصياً، أنت مش عارف التفتيش كانوا عاوزين يصدعوا الموضوع قد إيه و«أنا» منعهم ..

حقيقة علمية: تذكر المرأة في مُحادثاتها لفظة «أنا» أكثر من ضعفي الرجل ..

- أرجع فين؟!

- ترجع المستشفى ..

- آه...!! طيب.. أنا أخلص الرسالة.. وبعددين أرجع ..

- تخلص ما تخلص خالص، المُهم وضعك القانوني يكون سليم أنا مش ناقصة قلق، ده شرطي الوحيد عشان أتدخل وأوصي عليك ..

قالتها ودَسْت وجهها في الأوراق تتصفح القراءة بعينين لا تتحرّكان فوق السطور، تبتلني انتظاراً كشريحة لحم «جملي» صعبة المراس، تابعت أمشاط قدميها المتقطعتين في رفض، وعَقرَب ساعة الحائط

خلف رأسها يعد الشواني حتى قررت استئناف جولتها الثانية.. بضربة قاضية..

-ما انتظمتش.. هاوصي عليك برضه.. بس هاوصي إنك ما تستغلش
تاني بعد ما هتخلي منظري زفت وسط الموظفين والزملاء.. وابقى دور
على حد يشغلك بعد ما ترتفد من العباسية..

ابتلعت ريقها مع آخر كلمة.. لا تعني تهديدها الأخير بنسبة ٧٢%.. إلا أنها ستمادي في تهديدها «النظري» حتى آخر سُم^٣ من
هواء الغرفة..

- أحضر إزاي؟ سأّلتها.

- بالجدول زي زمايلك..

!!...-

- وتخلس رسالتك..

- طب ما نأجل موضوع الرسالة و...
قطعتني رابعة:

- أنت مش بتقول شغال في الرسالة؟ أنا عرضي «Package..»
..Take it or Leave it

قالتها وهي ضامة قبضتها، نقاشي معها تلك اللحظة لن يكون
مُجدياً، كما أنها على حق بشكل مُقزّز!

فَفصلِي من المستشفى سِيُضيف إلى حواتطي بقعة لن تزول..

هزّت رأسي وزمت شفتي بابتسامة «صناعة محلية رديئة»
فتنهَّدت وهي تقرأ خُصوصي المَشكوك في ملته..

- كويـس! كويـس.. فـكـرـنـي مـوـضـوـع رسـالـتـكـ كانـ إـيـهـ؟

- Psychoanalysis through The Body language..

- التحليل النفسي عن طريق لُغة الجَسـدـ.. كويـس.. لـسـهـ عندـكـ
ورق الدبلومـةـ؟

- عندـيـ..

- دـهـ هـبـخـفـ عـلـيـكـ كـتـيرـ.. شـدـ حـيـلـكـ.. كـدـهـ ماـفـاضـلـشـ غـيـرـ نـشـوفـ
مـكـانـ تـنـزـلـ فـيـنـ؟

فتحـتـ دـوـسـيـهـاـ أـمـامـهـاـ وـقـلـبـتـ أـورـاقـهـ:

- عندـيـ مـكـانـ فـيـ قـسـمـ سـابـعـ (حرـيمـ)ـ..

- مشـ هـاـسـتـحـمـلـ التـبـولـ الـلـاـإـرـادـيـ!!

- تحـبـ تـنـزـلـ فـيـ إـيـهـ؟

حاـوـلـتـ التـفـلـبـ عـلـىـ تـثـاؤـبـ قـهـرـيـ يـصـيـنـيـ عـنـدـ رـغـبـتـيـ فـيـ الـهـرـبـ..

- حـقـيقـيـ مشـ عـارـفـ..

- مـمـ.. (رعاـيةـ وـسـطـيـةـ)ـ مـلـيـانـ! (صـحـةـ ٥٨ـ)ـ مـلـيـانـ بـرـضـهـ! إـيـهـ رـأـيـكـ
فيـ (٨ـ)ـ غـرـبـ! دـكـتـورـ (مـوـفـقـ)ـ سـافـرـ وـمـحـتـاجـةـ حـدـ يـسـدـ مـطـرـحـهـ..

- غـرـبـ! مـاـشـيـ..

- وـمـوـضـوـعـ رسـالـتـكـ قـرـيـبـ منـ طـبـيـعـةـ المـكـانـ هـنـاكـ.. دـهـ غـيـرـ إنـ
دـ.ـ كـيـلـانـيـ مـمـكـنـ يـوـافـقـ يـشـرـفـ لـكـ عـلـىـ الرـسـالـةـ.. بـتـضـحـكـ عـلـىـ إـيـهـ؟

- باضحك عشان حضرتك لما قلتني قسم «سابع حرير» قلتليها
وأنتي عارفة إني هارفض، وده يخلّي تفكيري يتخطّي رفضي فكرة
وجودي في المستشفى وأبتدئ أفكر في الاختيارات..

خلعت نظارتها ورجعت بظهرها للكرسي مُبتسمة باندھاوش:
- بدل ما تطلع عليا كورساتك طلّعها في رسالتك.. يعني أنت كنت
من أكفاء الدكاترة عندى.. ماحدش ينسى أنت عملت إيه في الكام سنة
اللي قعدتهم معانا قبل الـ... الخمس سنين اللي فاتوا يعني.. حرام
ده كله يروح على الأرض!

هزّت رأسِي تفهّماً كي تُنهي مُحاصرة الكيماء التحليلية
التي بدأتها..

- بُصّ على مبني «٨٠ غرب» الجديد قبل ما تمشي.. قبل باب
صلاح سالم على الشمال..

- ماشي..

قبل أن أصل للباب استوقفتني:

- بقول لك يا يعني.. بالنسبة لدقنك؟

- إيه؟ بقت ممنوع دلوقي؟

- لأ.. هي بس مكّبراك شوية.. وأنت عارف بنحاول نخاف
الـ«Stigma» بتاعت الطبيب النفسي ودقه والبایب اللي هرونا فيها في
الأفلام.. يعني!

بترت كلماتها لما قرأت الاستكثار في وجهي:

.. حمد لله على السلامة .. Whatever -

كيف يمكن أن تسوء الأمور أكثر؟

تقبلُي العَودة للعمل ثانية أشبه برجوع سجين مؤيد إلى سجنه طواعية، بعدها هرب من صحو مبكر، توقيع حضور وانصراف، اجتماعات أمانة الصحة الدورية، والثُّرثرة الإجبارية مع الزملاء.

الجحيم حين يكون Organic ..

كتقنية دفاعية ضد ارتفاع السُّكَر في دمِي تناستِي الأمر مؤقتاً على أن أعمل جاهداً وبكل إخلاص وصدق على افتعال حجة هروب مُقنعة في الأيام المُقبلة، استأذنتها ووَقعت ورقة العودة إلى العمل بخطٍّ غائر مملوء غللاً قبل أن أتجه إلى مبني «٨ غرب»^(١) ..

المسافة الطويلة من مبني الإدارة حتى الحدود الغربية للمستشفى استغرقت سيجارة، طريق على جانبيه شجر عتيق يرقب القادمين، دعوت في سرّي ألا تُباركني أسراب أبو قردان الرَّابضة على الأغصان بلطة كريمة حتى وصلت أمام سور عالٍ كُتب عليه بحروف نحاسية كبيرة «وحدة الطب النفسي الشرعي» تعلق زواياه كشافات كبيرة سُتحيل الليل نهاراً بعد الغروب وأبراج عالية تأوي الحرّاس، تَرِبض أمامه سيارة ترحيلات كبيرة، جلس فيها ضابطان أخفيا الملل وراء نظارات شمس عَريضة، ومن حولهما عساكرهما يهيمنون تحت ظلال ما تبقى من الأشجار ..

(١) «٨ غرب» هو الاسم القديم المعترف عليه والأكثر انتشاراً - رغم تغييره - بين أطباء مستشفى العباسية.

يستقبل «الغرب» المشتبه في قواهم العقلية إثر ارتكابهم جرائم، يحالون على ذمة التحقيق تحت حراسة مشددة ليعذروا ذلك القسم تمهيداً لاختبارهم نفسياً وعقلياً على مدار خمسة وأربعين يوماً قابلة للنقص أو الزيادة، لتقدير مدى وعيهم عند ارتكاب الجريمة، إن كانوا لحظتها مسئولين عن أفعالهم فيحاكموا محاكمة عادلة، أو أنهم كانوا تحت ضغط مرضي «عقلي أو نفسي» هيأهم بلا وعي لتنفيذها، فيتم إيداعهم سجن مستشفى الخانكة ليتلقو العلاج تمهيداً لخروجهم حال الشفاء، تلك مهمة أطباء القسم، حسم الخلاف بتقرير استشاري يساعد القضاء في تحديد حكمه..

لما أصبحت أمام الباب الحديد المُسلسل أشرت ل العسكري
يجتر شيئاً ما، اقترب فأرخت جفوني بيقين:

- دكتور يحيى ..

دَسَ العسكري مفتاحه وفك سلاسل حَديدية غليظة:

- أول مرة أشوف سعادتك !

- إجازة طويلة ..

المبني خلف الأسوار مكسو بطبوب قرمزي باهت، طابق أرضي كبير على هيئة مستطيل ينقصه ضلع، شبابيكه مغلفة بالحديد وأبوابه غليظة تبث اليأس في النفوس، دُرّت حوله قبل أن أعبر باباً كُتب عليه «قسم الرجال (أ)»، أول من قابلته كان «محسن»، مُمِّرض مُخضرم عمل معه لستين من قبل، تحافة مقتسة، أسنان طويلة، وعين يُمنى بؤبؤها أكبر من أختها، مسلم على بحرارة قبل أن نعبر أمام مكتب

يجلس عليه نقيب وأمينا شرطة، دلفنا ممّا طويلاً مزدحماً بطفايات
الحريق والأبواب، كسر «محسن» خلاله وقع خطواتنا الرتيب بروح
مُرشد سياحي:

- المبني أحسن بكثير من المبني القديم، بس أوض التمريض ضيقة
شويتين، قسموه «أ» خطرين و«ب» عادي، و«ج» حريم.. موجود
عندنا النهاردة اتنين وخمسين متهم، سبعة وتلاتين منهم قتل..

وصلنا أمام باب غرفة فتحها محسن ثم استطرد:

- دي أوضة الدكتورة.. اللجنة خلصت بدرى النهاردة.. بس دكتور
سامح في الحمام.. أعمل شاي؟

- سامح مين؟ زيدان؟؟؟

- إن شاء الله..

من بين كُل الشخصيات عَدِيمَةِ الجَدْوِيِّ التي أَفْضَلَ نِسْيَانَهَا،
لا يوجد من هو عَدِيمَ الجَدْوِيِّ أَكْثَرَ من سامح!

- خليها قهوة دوبيل.. من غير سكر خالص..

في الغرفة انتظرت، رائحة الطلاء الجديد طاغية، مكتبهن صَاج
وتكييف يز مجر وثلاثة صغيرة تحت نافذة عالية بجانب وحدة
أدراج وكمبيوتر متواضع.. في مُتصف بسيجارتي سمعت الطُّرقات
على الباب:

- التدخين ممنوع!

سامح كان واقفاً بالباب مُبتسماً يجز أسنانه، صافحني بغلٍ يتوارى
خلف ودّ مُصطنع:

- حمد لله على السلامة.. خستت أوي.. بتلُّق في الهدوم !!

حاولت السيطرة على ملامحي وأنا أتابع لغده المُرتجف:

- إزيك يا سامح.. ما كُتتش أعرف إنك هنا في ٨ غرب..

- إيه؟ كنت هتغّير رأيك؟

عَصَرْتُ عَلَى نَفْسِي لِيَمْوَنَّ «أَضَالِّي» وَلَعَنْتُ الْمَدِيرَةَ فِي سَرِي سَبْعِينَ
مَرَّةً حِينَ مَسَحَ سَامِحَ عَلَى شَعْرِهِ الْمُبَعْثَرَ فَوْقَ جَبِينِهِ وَاسْتَطَرَدَ:

- بس يعني مالقتش غير «٨ غرب» عشان ترجع عليه!!

- نصّيب !

- كان حَقّك تَنْزِل حاجة خفيفة تسخّن، تأخّر عقلِي مثلاً ولا حاجة
إداري، أنت تلاقيك نسيت الشغل ..

كلماته..

رائحة سِجَادَةَ مَبْلولةٍ مُخْزَنَةٍ فِي شَقَّةٍ مَكْتُومَةٍ!

- أحكي لي.. إيه الجديد؟

- المبني كله جديد.. تعالى آخذك لفة..

تقدّمني سامح بسطاً لهيمته، مشيت وراءه أتأمل حركته القهريّة في
المسح على شعره كُلّ بضع ثوانٍ، يُحاول فرض سيطرته على القسم
بمداعبات مبالغ فيها مع العاملين والممرضين، لم ترق لأغلبهم، كان
ينقصه فقط أن يتبوّل على حائط ويهرش ظهره برجله ليكمل روتين
الكلب البلدي في تحديد منطقة نفوذه! أمسكت نفسي أكثر من مرة
كيلا أركل مؤخرته العَرَيضة!

سُكّحتي بوراءه يُعرّقني بِعْزافياً المبني والتملاك قبل أن نصل أمام عنبر الحَجز، مُستطيلاً كبيراً تخلل حوانطه نوعاً مُغلقة بشبكات الحديد؛ يامتداده تراصّت الأسرّة المبنية كالمصاطب على الأرض في صفين، فوقها مراتب إسفلجية مُغلقة بـملاعات ومشمع داكن لزوم سرعة التنظيف، السقف على ارتفاع خمسة أمتار تحتله مراوح كبيرة وشبكة استشعار حريق، وعلى الجوانب شاشات تلفزيونية عريضة تبث فضائيات سخيفة لهرس الوقت الطويل، وفي اليمين حمام مقسم ليست كائن مكسوة بستائر ومتزوع منها كل ما قد ينخلع ليصير سلاحاً أياض..

وقوفنا أمام العنبر جذب بعض النزلاء، التصقوا بالباب كجماعات من «الزوّمي» في فيلم رعب رخيص، يستجدون عقلاً غير قادرين عليها لتظهر أعراض الصادق منهم، أو يستعجلون إصدار تقارير حالاتهم، بعضهم بطيء الإيقاع هائم الملamus والبعض طبعي أكثر من اللازم، وأخرون تطفح من أعينهم الكهرباء الزائدة..

انتهى سامح من حوار «فضن المجالس» حول مطالبهم ثم اقترب متبّي بهمس في أذني بتفاصيل بعض الحالات في محاولة لتأكيد «كعبه العالي» في المكان:

- سعيد ده قتل مراته.. فشك.. هايت حل بكرة.. وده فوكس..
خطف جارته أسبوعين.. وبعدين خنقها.. اللجنـة لـهـ ما حدّدـتش..
والـلي جـنبـه دـه عبدـ المـجيد.. سـمـمـ أبوـهـ وأـمـهـ.. غالـباـ «Persecution of Delusions»

دقائق وابتعدنا بعدهما استبط المرضى أنني بدليل جديد.. في غرفة

الأخلاقي لم يبدل سمع علّك بواحدة جلدية قبل أن يحيط بيده على
ملفاته، خرق المكتب:

ـ هنالك وارد الجليد، وبقية الحالات في المدرج، وبخوض النيابات
معتبر، ورا الباب، حمد الله على السلامة..

ـ رُحل سامح بعلّك وغزوه وشعره المبعثر على جبينه، لمن ثَبَرَ دَرَجَ
نفسه بِرُوكِيْد يوماً! انتفت سنوات ولم ينس الفتاة التي هُلِّنَ يوماً أنها
تظرفه ولم تُنكِنْ، وما هو القدر يجمعنا عن خصـد في قيس وأحد؟
ـ نضـت عن رأسـي وجـهـهـ المـفـاطـعـ وـأـشـعـتـ سـيـجـارـةـ وـأـنـاـ أـقـلـ
ـ مـلـفـاتـ الـفـرـلـامـ وـجـوـهـاـ تـحـلـ وـجـوـهـاـ وـجـنـوـنـاـ وـأـشـاهـ أـمـهـيـ لـأـصـفـهاـ
ـ كـلـمـاتـ مـنـذـ خـمـسـ سـنـوـاتـ مـنـتـ أـنـهـ مـأـكـأـ وـفـتـ فـرـيلـ أـنـ تـحـسـ
ـ صـورـهـيـ وـنـهـمـ،ـ أـلـفـ وـشـمـائـلـةـ وـمـحـسـةـ وـمـشـرونـ يـوـمـاـ تـفـوحـ عـودـنـيـ
ـ لـلـسـفـقـ كـتـرـيلـ..ـ وـهـاـ قـدـ غـدتـ.

ـ معـ جـسـ الـاخـطـارـ !!

ـ انتـهـرـتـ مـاـعـ اـخـطـارـ اـرـيـةـ،ـ تـجـزـتـ خـلـالـهـاـ جـرـمـيـةـ وـحـرـقـتـ
ـ شـجـرـةـيـهـيـ،ـ مـسـلـمـ لـزـمـلـاءـ يـرـمـقـوـتـيـ بـفـضـولـ مـسـاعـدـهـيـ طـازـجـةـ
ـ شـفـرـشـيـ الـأـسـفـلـتـ،ـ اـمـصـمـتـ تـقـشـلـهـمـ بـاـبـسـاعـةـ حـكـوـمـةـ سـنـطـعـ
ـ مـسـخـيـأـنـ أـرـجـلـهـمـ مـنـ الـمـكـانـ قـبـلـ أـنـ الـعـلـمـ نـسـيـ وـلـهـوـبـ..

كانت الساعة قد تعدّت الخامسة حين رجعت..

دَسست المفتاح في الباب بعدما التقطرت مَظروفيَن وَجذتها
بِجانب دَوَاسة القدم التي حملت يوماً كلمة «Welcome»، نزعت
حذائي وَساعتي وركلت زجاجات بيرة فارغة ثم أَرْخت من فوق
الأريكة بقايا وَجبة أمس وطفأية مُتخمة بالرماد والأعشاب وَغُصت
بين وسادتين بعدما فتحت التلفزيون «Mute» على قناة «National
Geographic»، أَعشق تلك القناة خاصة حين يتعلّق الأمر بأسماء
القرش الأبيض، الضُّباع أو دِببة القُطب، وأتمنى من صَميم قلبي أن
تَنْفَرِض دِببة الباندا وتريحنا من دلالها غير المبرر، فلون التاكسي كان
أبيض وأسود يوماً «For god sake !!»

التقطت المظروف الأول، من الجُزء الشَّفاف في الوجه طلَّ شعار
البنك، بغيان قَرأت ديون بطاقة الائتمان:

جدول تراكمات القسط الشهري + غرامات التأخير في السداد
= رمالِ رِبا مُتحرّكة انغرست فيها حتى رَقبتي !

وضَعَت صَلَّك عُبوديَّتي جانباً والتقطت المظروف الثاني؛ أبيض
زين أطراوه الشريط الأحمر والأزرق التقليدي، كُتب عليه بخط

رَدِيءٌ: «يُحْمِي رَاشِد إِبْرَاهِيم وَعَنْوَانِي مَفْصَلًا» وَبِلَا اسْم لِلْمُرِسِلِ، فَقَط طَابِع بَرِيد مَحْلِي وَخَتَم مَطْمُوس، فَضَضَتْه فَسَقَطَتْ وَرْقَة عَاجِية مَطْوِيَّة مُتَوَسِّطَة الْحَجْمِ، فِيهَا رَسْم بَدَائِي أَقْرَب لِخَط طِفْل يَلْعَب، نِصْف دَائِرَة عَلْوَى تَوْسِطِه نَقْطَتَان سَوْدَاوَان، يَخْرُج مِنْ تَحْتِهِمَا ذَرَاعَان تَتَدَلَّيَان يَمِينًا وَيَسَارًا، تَحْتَضِنَان مُربَعًا مُغْلَقاً مُفْسَماً إِلَى تِسْعَة مُربَعَات بِأَبْعَاد وَاحِدة، تَشْبَه مُربَعَات لَعْبَة «OX» الشَّهِيرَة!! قَلَّبَت الْوَرْقَة فَلَم أَجِد غَيْر بُقْعَات صَفَرَاء بَاهِتَة رَأَوْدَتْنِي نَفْسِي أَنَّهَا بُولٌ فَاشْتَمَمْتُهَا وَلَم أَجِد لَهَا رَائِحة، أَعْدَت الْوَرْقَة فِي الظَّرْف وَكَوْرَتْهُ وَهَمَّمْت بِالْقَائِه حِين تَأْمَلْت عَنْوَانِي وَاسْمِي الْثَّلَاثِي الَّذِين لَم أَجِد لِدَقْتِهِمَا تَفْسِيرًا! حِرْصًا عَلَى الْبَيْتَه وَظَاهِرَة الْاِحْتِبَاس الْحَرَارِي وَنَظَافَه الشَّقَّه الَّتِي لَا أَتَهَاوَن فِيهَا قَذَفْت بِهِ مَع جَوابِ الْبَنَك فِي حَوْض زَجاجِي فَارَغ مُتَخَمِّبًا بِالْأَوْرَاق، كَان يَوْمًا بَيْتًا لِلْسَّمْك وَلَم يَعُدْ، ثُم قُمْتُ إِلَى غُرْفَتِي وَأَلْقَيْت بِجَسْدي فَوق السَّرِير بَعْدَمَا أَزْحَت لِيَا سَا أَرْجُوانِيَا نَسِيَّتِه مَايَا.. أَو لَم تَنْسِه .. دَقَائق وَتَدَقَق النَّوْم فِي أَطْرَافِي ..

نَزَّل مَسَاء ذَلِك الْيَوْم بَغْتَة، غَرَوب سَقْطِ كَسْتَار مَسْرَح مُهْتَرَئ كَسَا السَّمَاء بِحُمْرَه الدَّم، وَهُوَاء خَانِق لَزْج رَأَتْهُتْه حَرِيق هَبَيج جِيوبِي الأنْفِيَه بِمُجْرَد فَتحِي لِلْبَاب، تَمَثَّلَتْ تَحْتَ الأَشْجَار المُغْبَرَه خَمْس دَقَائق قَبْلَ أَنْ أَتَلْقَى مُكَالَمه مِنْ مَايَا، مُنْذ «أَلو» عَرَفْت أَنَّهَا انتَزَعَتْ طَابِع الـ«LSD» مِنْ فَوْق لِسانِهَا فَقْط مِنْذ دَقَائق، وَهَذِه مِيزَه حَقِيقِيه في مَايَا، تَحْفَظ رَأْسَهَا الجَمِيل مِنْ الْاِنْشَغَال الَّذِي يُؤْثِر سَلَبِيَا عَلَى فَيْرِيَاء جَسَدهَا وَمَنْحِنِيَّاتِه الْقِيَاسِيه، تَطْفَئ عَقْلَهَا وَتَرْكَه يَسْقُط سَقْطًا حُرَّا فِي رَحَلَات تَمَتد لِشَهَانِي مَسَاعِيَه مَع طَوابِع الْهَلْوَه، تَطْرُق فِيهَا أَبْوَاب جَنَّه مَا لَتَرْكَض فِيهَا حَافِيَه بِلَا تَوْقِف، ثُمَّ تَغُطُّ فِي سَبَاتِ عَمِيق

تقوم من بعده مُتشبهة بـ حركها كلب جَربان في خرابه، قبل أن تنزل
لتتابع صَالونها اليومي في «Deals» الزمالك، البار الذي تعرفت عليها
فيه منذ ستين، تقضي وقتها مع شلة مُزدحمة بـ حكايات الفيس بوك
التافهة حتى يأتي مُتصف الليل، تقوم كِسندريلا ثملة لا تنسى فردة
حِذاءها لستجه إلى بيتها، سبع ساعات من النوم ثم تصحو لترتدي
ملابس رسمية تحول فيها إلى مسئولة تسويق «Sexy» في شركة
فخمة، تبيع الهواء تقريرًا، وتنهي عملها لتعدّثني بـ عاده مُكالمه تكون
عاده تقريرًا مُفصلاً عن ليلة أمس وكيف كنت معها WOW.. بجد..
أنارايحة في داهية لحد دلوتي.. مش عارفة أمسك نفسى وأنا باكلم
العميل.. هاشوفك إمتى؟!..

أحياناً أسألهما ما الذي أعجبها فيي؟ فتجيبني بأنني في نظرها أجمل
من «براد بيت»!!

بالطبع أنا أشبه براد بيت «وهو ميت» + نسبة عطف وشفقة لا
تخفي على في كلماتها..

وتنتهي المُكالمه معها في العادة بمَوْعِد في بَحر يومين أكون
فيهما قد هيأت نفسى:

للقبضة الجهنمية.. اللقاء الدّامي.. صراع الجبابرة «الجزء
الثالث»..

أنهيت مكالمتي معها حين وصلت أمام بناية «عونى»، عمارة
حديثة يزيّن مدخلها رُخام أسود ونباتات زينة، حَيَّت الْبَوَاب ورَكبت
المصعد ونقرت ببابا سميكًا داكنًا، لحظات وفتحت «نيجوزي»؛
خادمة إفريقية في منتصف الأربعينيات حَكَت لي يوماً أن اسمها في

بلدها «رواندا» يعني «المباركة».. كما حَكَت لي أيضًا عن عائلتها التي أبْيَدَت في صراعات ١٩٩٤ العِرْقِية قبل أن تأتي مصر!

حيَّتني بأسنان ناصعة وسط بشرة أبنوسية لامعة ثم تقدَّمتني لغرفة مُغلقة بباب جرار جاهدت وهي تجذبه فتسدل صوت وردة الجزائرية بأغنية «حكاياتي مع الزمان»، غابت دقَّيقة قبل أن تخرج وخلفها «عوني» بقميص ضيق أسود مفتوح الصدر..

أنيق ذلك الشيطان!

أغلق الباب وهو يتقدَّمني ناحية باب الخروج:

- النهاردة «Full» يا «Man»..

- «شاكر» موجود مش كده؟

بنفاذ صبر تخلَّل عوني شعره الفضي بأنامله:

- أنت نسيت اللي حصل المرة اللي فاتت؟!

- هو اللي سُبِطَ لما عِرف إني «Psychiatrist».. مش ذنبي إنه ما استحملش يشوف تحليل لنفسه على الحقيقة..

جحظت عينا عوني استغرابًا:

- تحليل!! ده أنت حللت له بول يا «Man».. شمبرته.. تقول له في وشه أنت ٩٠٪ عندك ضعف جنسي! اقسم بالله الراجل كان حالف ما يجي هنا تاني.. أنا كنت هابوس دماغه..

سَحَبت نفسًا من سيجارتي:

- هو «Definitely» عنده ضعف جنسي.. طول الـ «Round»

بيتكلّم عن تقاطعه للنسوان في السرير، بيحكي وعيئه في عين اللي بيكلّمه، بيراقبنا عشان يطمّن إننا مصدقينه، ولما قال إن الفياجرا دي للعجزة مش لتعتليل اللي زيه لعب في مناخيه.. دي كدبة جسمه مش مصدقها.. أنا قلت له من الأول إن كلامي ده هايز عمله.. هو اللي صمم!

- تقوم تدبّحه! وقدّام الناس !!

- كان عَمال يرغبي وما كتش عارف أزكّر في اللعب يا عوني..
كان لازم حاجة تخليه يتهدّ..

طفّق عوني فقرات رقبته:

- يا «Man»، الناس بيتحجي هنا عشان تلعب، تنبسط، ما فيش خصوصيات، ما فيش أسرار «This was always the rule» ..

قالها وأرسل عينيه للسقف هرباً من ابتسامتني الضاغطة:

- امشي يا عوني؟ امشي؟

داعب السلسلة المتسلية وسط صدر خالي من الشعر ثم زفر استسلاماً:

... بس... No ya man -

- من غير بسبسة يا عوني بطل دلع.. زيتك بكام النهاردة؟

- الصُّباع عامل مية وثمانين جنيه..

- يا واطي! من عشر تيّام كان بمية وستين..

- دي فرشة مَغْرِبِي بزيتها، أنا لا باحُظ حنة ولا باطحن كيميا

وأنت عارف، وبعدين أنت زعلان ليه! هو أنت اللي بتشيل الترابيزية
آخر الليل؟ أنت سيد من يشيل الناس يا دكتور..

- بتلعبوا إيه؟

..Poker ..

سرت خلفه إلى الغرفة.. أمسك عوني مقبض الباب ثم استدار لي:

- ما فيش تحليل نفسي مع حد.. Especially شاكر..

هزت رأسي وابتسمت.. نفاقاً!

الغرفة كانت واسعة، التكييف جعلها في بُرودة ثلاثة لَحْم،
توسطها منضدة؛ الأولى تحمل كتوسا وأطباقاً مشهيات وعدة
زجاجات لوحٍت لي من بينهم عشيقتي (Chivas)، بجانبها صينية
تحمل ورق بفرة وتبغًا وفرشة حشيش (سبعات) تقطر زيتاً، المنضدة
الثانية مستديرة مكسوة بالجوخ، فوقها لمبة خافته متسللة من السقف
تحترق سحابة دُخان ظلت خمسة رجال عَلَت ملامحهم الجدية،
التفتوا لي حين دخلت وحدّجني (شاكر) بسخط قبل أن يسحق
سيجارته بين أصابعه ويُرمي (عني) بعتاب وهو يكاد يقف ليُغادر،
حيثهم فهزّوا رؤوسهم بودّ مُصطنع قبل أن أتجه للمنضدة المقدسة،
لفت قِرطاساً وصبيت كأساً، خلط الكحول والخشيش يصنع منك
أعدى الأعداء.. وهو بالضبط ما أحتاجه!

سحبت نفساً قبل أن أتعمد بسادئتي المحببة إلى قلبي دَسْ كُرسى
في مواجهة شاكر، انحنى عوني على الأخير (تشبتاً) وبَث في أذنيه
ما هدأ ملامحه قبل أن يرجع مكانه، بامتعاض أشعل شاكر سيجارة
بدل التي سحقها فحيته بابتسامة:

- شاكر بيـه.. مساء الفل..

لم يجـب.. صـبـت لنفسـه كـأسـا تـجـرـعـه فـي حـنـقـ:

- شـكـلـك لـسـة زـعـانـ!

- عـاجـبـك اللي قـلـتـه المـرـة اللي فـاتـ؟!

- دـه مـجـرـد رـأـي يا شـاـكـرـ بـيـه.. مـش أـنتـ اللي قـلـتـ حلـلـ يا دـكـتوـرـ؟
لو حـابـبـ نـشـهـدـ النـاسـ أـنـا مـا عـنـدـيـشـ مـشـكـلـةـ!

امتنع وـجهـ شـاـكـرـ وـاحـمـرـتـ أـذـنـاهـ فـأـمـسـكـ أـورـاقـ اللـعـبـ بـأـنـامـلـهـ
الـبـدـيـنـهـ وـدـفـنـ فـيـهاـ وـجـهـهـ،ـ اـنـتـظـرـتـهـمـ يـكـمـلـونـ الدـوـرـ الـذـيـ توـقـفـ فـيـ
مـتـصـفـهـ قـبـلـ أـنـ دـخـلـ مـعـهـمـ فـيـ بـدـاـيـةـ دـوـرـ جـدـيدـ،ـ خـلـطـ عـوـنـيــ بـصـفـتـهـ
الـرـاعـيـ الرـسـمـيـ وـمـنـسـقـ اللـعـبــ الـأـورـاقـ بـأـصـابـعـهـ الـمـُدـرـبـةـ قـبـلـ أـنـ
يـسـحـبـ وـرـقـتـينـ لـكـلـ مـنـ الـجـالـسـينـ وـيـضـعـ فـيـ مـتـصـفـ الـمـنـضـدـةـ
ثـلـاثـاـ،ـ رـفـعـتـ طـرـفـ وـرـقـتـيـ وـاـسـتـرـقـتـ النـظـرـ،ـ تـسـعـتـينـ تـنـقـصـهـمـاـ تـسـعـةـ
ثـالـثـةـ وـأـكـمـلـ «Full House»ـ،ـ أـورـاقـ جـيـدةـ،ـ وـضـعـتـهـمـاـ عـلـىـ وـجـهـيـهـمـاـ
وـأـشـعـلتـ سـيـجـارـتـيـ ثـمـ أـلـقـيـتـ رـهـانـيـ،ـ وـجـهـ «عـوـنـيـ»ـ يـصـرـخـ فـيـ
الـتـمـاسـاـ:

- «كـمـلـ الـلـيـلـةـ عـلـىـ خـيـرـ فـيـ عـرـضـ دـيـنـ النـبـيـ»ـ..

كان ذلك مـتأـخـراـ،ـ فـالـحـكـةـ كـانـتـ قدـ بدـأـتـ،ـ حـكـةـ قـراءـةـ منـ حـولـيـ،ـ
فـكـ شـفـرـتـهـمـ،ـ تـعـرـيـتـهـمـ وـرـؤـيـةـ أـكـاذـيـبـهـمـ بـالـعـيـنـ الـمـُجـرـدـةـ،ـ لـغـةـ الـجـسـدـ
الـتـيـ لـاـ تـكـذـبـ،ـ فـمـدـاعـبـةـ أـرـنـبـةـ أـنـفـ تـفـضـحـ مـنـ يـدـعـيـ ثـقـةـ وـأـورـاقـهـ سـيـئةـ،ـ
جـذـبـ شـحـمـةـ أـدـنـ تـعـنـيـ أـورـاقـاـ جـيـدةـ لـكـنـهـاـ مـتـرـدـدـةـ،ـ كـمـاـ أـنـ هـزـةـ قـدـمـ
رـتـيـةـ تـعـنـيـ شـخـصـاـ فـقـدـ صـبـرـهـ،ـ عـلـىـ وـشـكـ الـفـوزـ لـكـنـهـ يـتـظـرـ انـقـضـاـضـهـ،ـ

تلك الأخيرة استشعرتها من شاكر، اهتزازه كموتور سيارة مفكوك من قواعده وسجارتة التي يأكلها جوعاً، ورهان يتضاعف بتهرّر، ذلك الرجل يتزف قلقاً، يملك ورقاً جيداً، أو هكذا يظن!

مقطع من كتاب «Poker for Dummies» البوكر للمبتدئين
صفحة ٢٦:

سياسة البوكر:

- إما أن تُوحِي لخصمك أن أوراقك أعلى قيمة من أوراقه - وهي ليست كذلك - فينسحب خوفاً مكتفيًا بخسارة قريبة خيراً من مكسب بعيد فيه مُخاطرة.
- أو أن تُوحِي لخصمك أن أوراقك أقل قيمة من أوراقه - وهي ليست كذلك - فيزيد رهانه جشعًا حتى يصير ماله غنيمتك.. ويصاب لاحقاً بذبحة صدرية أو جلطة!

مع ثانية لفة نفخ أربعة من اللاعبين أوراقهم انسحاباً، لم يتبق في الجولة سوى شاكر، نظرت له لأن أكّد أنه يقرئني ثم قررت أن أعطيه هدية.

..Raise..

ضاعفت رهاني ورَعَشت أصابعي وأنا أسحب نفسيَّاً من سجاري قبل أن أمسح عرقاً غير موجود على جبيني، طلت من بين شفتي «شاكر» ابتسامة ظفر، قرأ لا إرادياً علاماتي المُزيفة، فكل لاعبي البوكر يمتلكون جهاز «كشف كذب» فطري يضيء لهم وجه منافسيهم.

إلا أن الأجهزة الصينية الرخيصة انتشرت تلك الأيام!

ضاعف شاكر رهانه ظنًا أني أرهبه بالتعلية ليتقمقر، تحولت هزة قدمه إلى ثبات قبل أن يئد سيجارته في المنضدة، حسم أمره بثقة، ورَجع بظهره إلى كُرسيه وَسْط ترقب المُحيطين، نَظر إلى ورقته ببطء ثم لقوده قبل أن يكشفهما، سَحبهما عوني لمتصف المنضدة ليكمل المجموعة «٢١ - ٤ - ٦ - ٩» قلب أحمر، «Flush»، أوراق كافية للغوز، أو هكذا ظنّ! كان ذلك قبل أن أكشف ورقي، ببطء، سحب عوني الورقتين إلى متتصف المنضدة واستبدل ورقتي شاكر بهما، أتممت بالتسعة الباقية «Full House»، يَد أعلى من يَد شاكر، تأوه الأخير كمن اغْتُصِب في الظلام على غفلة، رَماني بنظرة كادت تُرديني حِقدًا قبل أن أسحب نقوده إلى منطقة نفوذِي وأطعنه بابتسامة لا لون فيها.. ذلك السكير المُقامر!

الذين قالوا إن المال لا يصنع السعادة؛ لا بد أنهم لم يكونوا يقصدون أموال الآخرين..

بعد ثلاث ساعات انْفَضَ اللَّعب، كنت آخر الباقيين، احتسبت كأسِي الثالثة ووقفت في الشرفة أستجدي نسمة صيف وأُحصي غنائم الليلة:

ألف وثمانمائة جنيه سِيُغْطُونِي الأيام القادمة..

سيجارتا حَشيش وثلاث كتوس أوصلتنِي لحافة أعشق المشي عليها، مع مساحة كافية من الاتزان تضمن لي عودة لنفس البيت الذي أعيش فيه.

رؤيه وجه شاكر مَهزوًّما.. ساديه مَحمودة في حُدود النُّسب المعقولة..

لَمَلَمْ عَوْنِي مِنْضُدَتِه ثُمَّ أَتَى وَالدَّهْشَةُ عَلَى كَتِفِيهِ:

- تِلَاتْ سِنِينْ مَعَايَا هَاتِجَنْ أَعْرَفْ بِتَعْمِلِهَا إِزَايْ؟

- هي إيه دي؟

- بتلم الـ «Round» لحسابك أكْنَكْ شايف الورق كلَه!!

- الورق مِسْتَخْبَي.. بس الوشووش بتفضح.

- مش كِده.. أنت إيه؟ مِخَاوِي؟

- مِخَاوِي آه.. جِنْ من نوادي لوس أنجلوس..

- لَا صَحِيح.. بِتَعِدَ الورق هه؟ بِتَحْفَظُ الأَرْقَامْ؟

- عونِي.. عونِي!! ما تفصِّلِشِ الكَاسِينْ وَالسِّيْجَارَةِ اللَّه يَبْارِكُ لك.. دي كلَهَا حاجات بتطلع في الغسيل..

- الغريب إن فيه أيام بتبقى «Down» مُوت!!

- دي الأيام اللي حشيشك فيها بيقى مَضْرُوب..

قهقهه عونِي:

- أنت مجنون يا «Man».. بس «Genius»..

بادلته الابتسام ولم أُعْقِب، فطاقتني تبَدَّدت على طاولته كأرنب بدون «Energizer»، ودَعْته وتمشيت حتى عثرت على البيت، خلعت ملابسي في طريقي لغرفة النوم قبل أن أنهار على سريري.

كشجرة بلا جذور..

قبل الفجر..

درجة الحرارة: ٣٩٠ °C

تنبهت حواسِي دفعةً واحدةً، كنت راقداً على ظهري غارقاً في عرقٍ حين استشعرت اللّهاث، فتحت جفني أسترق نظرة فوجدته عند باب الغرفة واقفاً! كلباً أسود فاحمماً يلهث كأنه ركض شهراً، شعره مُبعثر ولسانه لون الكبد يقطر زيداً، يحدق في غضباً بعينين محجريهما دم، ز مجر فارتقت شفته العلية لتكشف عن صفين من الحراب المدببة ونمة في الانقضاض، انتفضت هلعاً، انتصب شعري وتعرقت مسامي، حاولت أن أثب أو أحتمي بشيء، هنا أدركت الخدر الذي أخضع أطرافي مسبقاً، قرية نمل كاملة استعمرت جسدي وبنَت فوق أطرافه حصارتها، كالمشلول لم أقدر على الإتيان بردة فعل تذكر، نبضات قلبي تسارعت وتهدج نفسي جرعاً، كان ذلك حين رأيت خيال شخص لم تسمح العتمة بتبيّن وجهه، يقف خلف الكلب، رغم انعدام التفاصيل أیقنت أنه يرماني، يتخلىني، لحظات ثقيلة غادرت الدماء فيها عروقي قبل أن يقبض على عنق الكلب بصراوة، ز مجر الحيوان ثم استدار مطيناً بين يديه آمرةً وانسحبا إلى العدم.

انفك أسرى فاعتدلت كالملدوغ، تلوّت يدي بهستيريا فوق

المنضدة أبحث عن التليفون، ضوءه الباهت لم يكن كافياً لاتقاء حافة السرير التي عانقت أصبع قدمي الصغرى في ألم وأنا أقفز تجاه زر النور، أضيأت الغرفة فتأذتْ حدقتي قبل أن أستوعب التفاصيل، فتحت الباب بحذر، أقيمت برأسي أولًا ثم خرجت، أضيأت الأنوار كلّها ومررت على الأبواب والشبابيك أمسحها.. لا شيء !!

جلست في الصالة أستعيد دققيتين مضتا، سرت قشعريرة في جسدي حين رأوْدني وجه الكلب وخيال صاحبه الذي رَمِقْني..
قبل أن أستيقظ ! كابوس أصدق من حقيقة !!

تحسست أصبع قدمي التي تنزف، وحلقى الجاف ككهف فتجزّعت زجاجة بيرة أسرعت شبقي للتبول، أفرغت مثاثلي ثم ملأت حوض الاستحمام واستلقيت فيه أنزف عرقاً يفوح كحولاً، التقطت رواية سخيفة ملقة فوق الغسالة منذ شهرين، تصفحت فيها بضم أوراق مقاوماً إيقاعها البطيء وثقل رأسي قبل أن يقهرني النوم ..

بعد ساعتين أيقظني صوت باائع جائيل - لن يرد جنة - يسع شيئاً ما بلغة منقرضة، مبتلاً نهضت وقدماي تنفلتان مثني حتى كدت أرشق في المرأة، علقت الرواية التي تعجبت صفحاتها فوق ماسورة البانيو لتجف ثم اتجهت لغرفتي، أرتدت ملابسي واتخذت طريقي للمستشفى بعدما أضفت زجاجة بيرة فارغة إلى هرم الزجاجات ..

دخلت مبني « ٨٠ غرب » بنظاري الشمسية أخفى وراءها إرهاق ليلة أمس وكابوس لم تأكل تفاصيله، كان سامع أول من قابلني، اقترب مني بشتم رائحتي مستفزًا، مُقتحمًا مساحتني الحميمية المقدّرة «بالنسبة لأمثاله» بثلاثة كيلومترات:

- كانت سهرة جامدة شكلها.. دي «Ray-Ban» أصلي
النفارة دي؟

بحثت بعيني عن كيس للقىء ولم أجده:

- صباح الخير يا سامح..

- فيه اتنين وارد لسه جاين.. لو فايق نقى لك واحد.

دلفت غرفتي وأغلقت الباب ورائي، انتظرت حتى اختفى صوته
من المبنى ثم ناديت محسن المُعرض:

- هو سامح ما يروح حش؟

- هايروح يعمل ايه؟! مش متجوز.. ده بينام ساعات في الاستراحة
حتى لو مش نايب إداري..

- زي الفُل.. هات لي ملفات وارد النهاردة واعمل لي قهوة بس
اضبطها بقى مش زي آخر مرة.. اغلبها يا محسن.. اغلبها..

دقائق وعاد محسن بقهوة وأوراق التزيلين، وضعهما أمامي
وانسحب، خلعت النظارة وأمسكت بأول ملف أقلب صفحاته،
أبعدت الأوراق قليلاً لتُفضِّل الحروف اشتباكيها من بعد نظر بياته
عيناي مبكراً..

الحالة الأولى كانت لرجل في مُتصف الخمسينيات، صورته
توحي بشخصية روتينية لم تُكُن لتردي دجاجة، مُتهم بقتل زميله في
الشركة، أقواله مُرتيبة وغير مُتجانسة، يقول إنه ضحية استهزاء مُستمر
من شلة في العمل يَضْلُّوه اضطهادهم منذ سنين وكان على رأسهم

القتيل، لكنه ينفي صلته بالجريمة رغم القبض عليه على بعد أمتار من الجثة وفي يده سجين، مُحاميه طلب الكشف على قوى مُوكله العقلية؛ حيلة الدفاع الأخيرة التي قد يضمن لموكله عن طريقها عفواً، بموجبه يقضى مدة عقوبته في مستشفى، عوضاً عن الإعدام..

٩٠٪ يتضح أنهم أسواء ويدعون المرض هرباً من الحكم..

لكن ١٠٪ من الأبرياء تظل نسبة لا يستهان بها..

أكملت الاطلاع على الملف الأول ثم سجّلت الملف الثاني، فررت صفحاته سريعاً حين توقفت بفتحة قبل أن أرجع للخلف صفحتين ا ذلك الوجه!! وثبت بين صورة صاحب الملف واسمه الرباعي حتى حُسْم شَكِّي، قمت ملدوغاً فأسقطت قهوةي على المكتب وينطلوني وخرجت قبل أن أتوقف وأرجع للملف شَكِّي، دققـت النظر في الصورة تيقـناً ثم اتجهـت إلى العنـبر، دلفـت غـرفة التـمريض المـطلـة على عنـبر المـتهمـين أـتصـنـع هـدوـءاً لـم أـعـد أـمـلـكـهـ، حـيـثـتـ مـعـرضـين لـم يـفرـغـاـ منـ تـناـولـ فـوـلـهـماـ وـيـصـلـهـماـ وـأـنـاـ أـجـولـ بـعـيـنـيـ فـيـ العنـبرـ الطـوـيلـ، قـبـلـ أـسـأـلـ أحـدـهـماـ عـنـ الـوارـدـ العـدـيـثـ فـأـشـارـ إـلـىـ شـخـصـ بـدـيـنـ يـتـحدـثـ مـعـ زـمـيلـ لـهـ، ذـلـكـ كـانـ صـاحـبـ المـلـفـ الـأـوـلـ، تـخـطـيـتـهـ وـسـأـلـتـ عـنـ الثـانـيـ، بـحـثـ المـعـرـضـ بـعـيـنـيـ ثـمـ أـشـارـ إـلـىـ شـخـصـ يـجـلـسـ عـلـىـ حـافـةـ السـرـيرـ الـأـخـيـرـ فـيـ العنـبرـ، يـرـتـديـ بـنـطـلـونـ (ـتـرـيـنجـ)ـ كـحـلـيـ وـفـانـلـةـ نـصـفـ كـمـ يـضـاءـ، سـاـكـنـ مـثـلـ صـخـرـةـ، عـيـنـاهـ مـبـيـتـانـ عـلـىـ مـرـوـحةـ سـقـفـ تـدـورـ فـوقـهـ، لـمـ أـكـنـ لـأـخـطـهـ رـغـمـ الـمـسـافـةـ..ـ هـوـ..ـ شـرـيفـ الـكـرـديـ..ـ

انسـجـتـ لـغـرـفـتيـ، طـلـبـتـ قـهـوةـ بـدـلـ التـيـ أـرـيـقـتـ وـفـتـحـتـ مـلـفـهـ

الجِنائي الآتي معه من إدارة البحث الجنائي، دُوسيه سُمكه ثلاثة سنتيمترات من الكلمات والصور الجنائية..

«شريف ماهر الكردي، طبيب نفسية عمل حتى عام مضى بمستشفى «بهمن» النفسي قبل أن يُفصل منها لأسباب لم تُذكر، متهم بقتل زوجته «بسمة مجدي»، حلقت عارية من الدور الثلاثين لأحد أبراج عثمان بالمعادي، محاميها دفع بمرض موكله العقلي إلى هيئة المحكمة لتبرير عدم مسؤوليته الجنائية عن الحادث، كما قال إن موكله لم يكن حاضراً لحظة الوفاة وإنما جاء بعدها، وأكد أن الضحية انحرت لعدم وجود ما يُبرر أو يثبت توقيع موكله، فصدر القرار بفحصه تحت أيدي خبراء العباسية في قسم ٨ غرب»..

فُوت ديياجة الشرطة التفصيلية سريعاً قبل أن أقابل تقرير الطب الشرعي، في صفحته الأولى صورة للمجنى عليها، WOW!! لا أذكر أنني رأيت قسمات بذلك التناقض تلتقي في وجه واحد من قبل! تحمل عيناهان نظرة الثقة التي تنفي موت أمثالها، إلا أن صور معاينة موقع الحادث كذبت الشائعة، جسدها خرقة مستعملة حلقت من السماء السابعة إلى الأرض، قبل أن يمر فوقها بابور زلط صدئ، لترات دم غليظة نضحت من جسدها المغروس في الأسفلت وعظام اتخذت اتجاهات مُخالفة آثارت معدتي رغم التعود في مشحة الكلية، لم أتمالك نفسي فأغلقت الملف، ابتلعت ريقني عنوة وناديت المُمرض:

- مُحسن، هات لي «شريف الكردي»: اللي جه إمبارح..

دقائق وسمعت الطرقات على الباب، سَحْبَت لرئتي نفساً عميقاً

وأَسْنَدَتْ كِلِيَّتي إِلَى الْكُرْسِيِّ حِينَ دَخَلَ الْمُمْرُضُ وَفِي يَدِهِ شَرِيفٌ،
بِهِدْوَهِ أَجْلَسَهُ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْمُقَابِلِ قَبْلَ أَنْ أُشِيرَ لَهُ أَنْ يَتَرَكَّنا، سَادَ
صَمَتْ لِزْجٌ لَا تَقْطَعُهُ إِلَّا زَمْجَرَةُ التَّكْيِيفِ، شَرِيفٌ شَارِدٌ فِي نَقْطَةٍ وَهُمْيَةٍ
عَلَى الْحَائِطِ وَأَنَا أَسْتَجْمِعُ فَرْوَقَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ فَاتَّتِي بُعْدًا، كَمْ تَغْيِيرٌ !!
بِسَرِّ وَجْهِهِ وَحُفْرِ خَدِيهِ بِخَطْيَيْنِ غَائِرِيْنِ، انْخَسَفَتْ عَيْنَاهُ الْخَضْرَاءُ فِي
مَحْجُورِيْهِمَا كِجْزِيرَتِيْنِ فِي مُجْبِطِ، وَطَالَ شَعْرُهُ الْمُطَعَّمُ بِخَطْوَطِ بَيْضَاءِ
عَقَصَهَا إِلَى الْوَرَاءِ بِخِيطِ أَسْوَدِ سَمِيكِ، أَظَافِرُهُ طَوِيلَةٌ وَذِرَاعَاهُ بَارِزاً
الْعُرْوَقُ، الْبِسْرِيِّ مَوْشُومٌ بِخَطَّ رَأْسِيِّ يَمْتَدُ مِنَ الْكَتْفِ لِيَتَهَيِّي فِي
الْكَفِّ، تَقْطَعُهَا بِالْعَرْضِ خَطْوَطٌ تَلْتَفُ حَوْلَ الذَّرَاعِ كِدْرَاجَاتِ سَلْمٍ،
نَهَايَةُ كُلِّ مِنْهَا مَشْبُوكَةٌ بِمَا يُشَبِّهُ حِرْفَيْنِ «ص» «مُتَعَاكِسِيْنِ ..

- شَرِيفٌ !!

نَدَائِي كَانَ مِرْسَاهُ مَرْكَبٌ قُذِفَتْ فِي بَحْرٍ لَا قَاعَ لَهُ ! لَمْ يَتْحُرِّكْ وَلَمْ
يُعْرِنِي أَدْنَى اِنْتِبَاهٍ !! حَتَّى عَيْنَاهُ الشَّاخِصَتَانِ لَمْ تَطْرُفَا طَرْفَةَ، اسْتَنْدَتْ
عَلَى مَكْتَبِيِّ مُقْتَرَنًا وَكَرَرَتِ النَّدَاءَ :

- شَرِيف.. أَنَا يَحْيَى.. يَحْيَى رَاشِد..

تَمَثَّالٌ مِنَ الرُّثَامِ تُمْطَرُهُ الطَّيُورُ بِالْفَضَّلَاتِ ! قَمَتْ وَجَلَسَتْ
فِي مُوَاجِهَتِهِ، وَتَعْمَدَتْ قَطْعَ خَطَّ نَظَرِهِ الْمَرْبُوطُ بِالْحَائِطِ تَشَتِّيَّا
لِشَرْوَدِهِ :

- شَرِيف.. مَعْقُولَةٌ مِشْ فَاكِرِنِي !!

رَعْشَةٌ خَاطِفَةٌ مَرَّتْ بِعَيْنِيهِ فَتَشَبَّثَتْ بِهَا :

- إِزْيِكِ يا شَرِيف.. مِشْ مِصْدَقٌ إِنَّا قَاعِدِينَ مَعَ بَعْضٍ .. إِيَّهُ !! عَشْر
سَنِينَ تَقْرِيبًا مَا تَقَابَلَنَا شِ.

شبح ابتسامة مُرتعشة داعب شفتيه مالبس أن اختفى ليزيف ببصره
إلى الحائط ثانية:

- بس تصدق لايق عليك اللوك الجديد ده.. شعرك والتاتو..
جَوْ جَدِيد خالص.. أنت لست نفسك تمثّل؟ يااه يا شريف.. فاكر
المدرسة.. فاكر رانيا وشيرين.. ولا البت لينا اللبنانيّة؟

رمقني لكسر من الثانية.. رَعْشَة مُترددة مرّت بجانب فمه ثم
هرّبت مع عينيه..

- شريف أنت عارف إحنا فين؟

بيحة لم تكن فيه وعيين مُتحجرتين أجاب:

- ملح..

- نعم؟!

- عاوز ملح..

- ملح!!!

- كتير.. في الأكل..

- ليه يا شريف الملح؟

....

- ماشي.. هاوّصيلك.. شريف أنت عارف أنت هنا ليه؟

هرّب بنظره ناحية الحائط فاستدرّكته:

- شريف بُصّ لي! فيه حاجة مضايقاك في الحيطة؟ تحب تبعد
في مكان ثاني؟

رَمَانِي بِنَظَرَةِ جُوفَاءٍ فَعَاجَلَتِهِ:

- إِيَّاهُ الَّيْ حَصَلَ؟ مَكْتُوبٌ فِي الْوَرْقِ كَلَامٌ غَرِيبٌ أَنَا مشَّ مُصَدَّقٌ..
الْكَلَامُ دَهْ صَحٌّ يَا شَرِيفٌ؟

كَالْأَصْمَ لَمْ يُبَدِّ رَدَّةُ فَعْلٍ، بَحْثَتْ فِي جَسْدِهِ عَنْ إِيمَاءَ إِيَّاهَابِ
أَوْ سَلْبِ فَلَمْ أَجِدْ، ظَهَرَهُ مَحْنِي وَيَدَاهُ مُسْتَرِخِيَّتَانِ فِي وَضْعٍ مُنْفَتِحٍ
صَادِقٍ، وَسَبَابِتَهُ بِهَدْوَهُ تَرْسِمُ دَوَائِرَ فِي الْفَرَاغِ:

- شَرِيفٌ أَنْتَ مَوْقِفُكَ صَعْبٌ.. لَوْ كَانَ فِيهِ حَدٌّ هِيَ سَاعِدُكَ فِي
الَّيْ أَنْتَ فِيهِ دَهْ يَبْقَى أَنَا.. مَا فِيشُ مَرْضٌ اسْمُهُ الَّيْ مَا يَتَكَلَّمُشُ،
أَنْتَ دَكْتُورٌ وَعَارِفٌ.. الْلَّجْنَةُ هَتَابِعُكَ مِنْ أَوَّلِ بُكْرَةٍ تِلَاثَ تِلَاثَ أَسْابِيعِ..
صَدَقَنِي لَوْ مَكَانِكَ تَتَكَلَّمُ مَعَايَا أَنَا الْأَوَّلِ..

لَمْ يَبْعُدْ نَظَرُهُ عَنِ الْحَائِطِ فَقَمَتْ إِلَى مَكْتَبِيِّ، طَقَطَقَتْ أَصَابِعِي
قَرْبَ أَذْنِيِّهِ وَأَنَا أَلْتَفُ مِنْ وَرَاهِهِ..

- شَرِيفٌ.. فَوْقَ مَعَايَا شَوِيَّةِ اللَّهِ يَبْارِكُ لَكِ..

جَفَنَاهُ حَتَّى لَمْ يَرْمَشَا، لَمَّا جَلَسْتُ التَّفَتَ لِبَدِيِّ وَالْقَلْمَ فِيهَا، قَطَعَتْ
وَرْقَةً مِنْ أَجْنَدَهُ وَنَاوَلْتَهَا لَهُ:

- لَوْ مَشَ عَاوِزٌ تَتَكَلَّمُ اكْتَب.. ارْسِمْ!

لَوَّحَتْ بِالْقَلْمِ لِلحَظَاتِ قَبْلَ أَنْ يَلْتَقِطَهُ بِتَرَدَّدٍ، نَظَرٌ لِلْوَرْقَةِ كَشَاعِرٍ
يَسْتَظِرُ وَحْيًا تَأْخِيرٍ، دَقِيقَةً بَدَتْ سَاعَةً لَمْ أَرِدْ مَقَاطِعَتِهِ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ
وَحْدَهُ وَبِيَدِهِ مُرْتَعِشَةً كَتَبَ أَحَدُ عَشَرَ رَقْمًا ثُمَّ تَوَفَّ.

بِرْفَقِ سَحْبَتِ الْوَرْقَةِ مِنْ أَمَامِهِ وَدَفَقَتْ فِي الْأَرْقَامِ:

- ٩٥١٠٢٠٠١٤٠١١٠٠٢٠٠١٩٥.. دَهْ تَلْيَفُونُ مَيْنَ؟ بَسْ فِيهِ رَقْمٌ زِيَادَةً!

أمسكت القلم وطمسـت رقم ٤ فهز رأسه نفـيـا فكتـبت رقم أربـعة
ثانية..

- إيه الأربـعة اللي في الأول دي؟ اتصـالات الرـقم دـه! ولا مـحافظة؟
لم أتلـقـ رـدـا فـرفـعت عـينـي إـلـيـه، كان وـاضـعاً أصـبعـه الوـسـطـي في
حـلقـه، قـبـلـ أنـ أـعـيـ ماـ يـفـعـلـ قـامـ بـغـتـةـ وأـسـقـطـ كـرـسيـه، أـمـسـكـ بـمـعدـتهـ
وـقـفـزـ إـلـىـ الرـكـنـ مـُـنـحـنـيـاـ، أـفـقـتـ منـ المـُـفـاجـأـةـ وـلـحـقـتـ بـهـ، أـصـدـرـ
حـشـرـجـةـ جـاحـفةـ قـبـلـ أنـ تـنـدـفـعـ السـوـاـئـلـ منـ فـمـهـ بـسـعالـ عـنـيفـ، أـفـرـغـ
جـوـفـهـ وـكـادـ يـخـرـجـ مـعـدـتـهـ، تـفـادـيـتـ تـقـيـؤـهـ بـالـكـادـ وـسـنـدـتـهـ حـتـىـ اـنـتـهـىـ
وـخـمـدـ، اـسـتـلـقـىـ عـلـىـ الـأـرـضـ شـاخـصـاـ لـاـيـكـادـ يـلـتـقـطـ أـنـفـاسـهـ، صـرـختـ
فـسـمـعـنـيـ مـُـمـرـضـ عـابـرـ، عـاـونـنـيـ عـلـىـ حـمـلـهـ إـلـىـ الـحـمـمـاـ وـتـرـكـنـاـ المـيـاهـ
تـغـسلـهـ قـبـلـ أنـ تـُـودـعـهـ سـرـيرـهـ فـيـ العـنـبرـ، تـابـعـتـهـ يـتـكـومـ عـلـىـ نـفـسـهـ فـيـ
وـضـعـ جـنـينـ حـتـىـ غـفـاـ فـرـجـعـتـ إـلـىـ غـرـفـتـيـ التـيـ عـبـقـتـ بـرـائـحةـ الـقـيءـ،
فـتـحـتـ نـافـذـةـ لـلـتـهـوـيـةـ وـلـفـقـتـ سـيـجـارـةـ نـسـيـتـ أـنـ أـشـعلـهـ ثـمـ فـتـحـتـ
الـمـلـفـ الـطـبـيـ الـمـطـلـوبـ مـنـيـ مـلـءـ خـانـاتـهـ بـتـفـاصـيلـ جـلـسـتـيـ مـعـ شـرـيفـ،
انـطـبـاعـيـ وـتـكـهـنـاتـيـ! تـجـلـطـ حـبـرـ الـقـلـمـ وـحـشـرـتـ الـكـلـمـاتـ، نـقـرـتـ
الـمـكـتبـ بـأـصـابـعـ مـُـسـتـحـضـراـ تـرـكـيـزاـ هـارـبـاـ حـتـىـ اـسـتـقـرـتـ:

- Time Disorientation, Flat Affect, weak insight and concentration,
Possibility of audiovisual hallucination.. Check for (Chest,
Gastrointestinal and Nerve Diseases + X-Ray)⁽¹⁾

(1) اـرـتـبـاكـ فـيـ الإـلـحـاسـ بـالـزـمـنـ.. مـشـاعـرـ الـوـجـهـ مـسـطـحةـ.. إـدـراكـ وـتـرـكـيـزـ ضـعـيفـانـ..
اـحـتمـالـيـةـ وـجـوـدـ هـلـوـسـةـ سـمـعـيـةـ وـيـصـرـيـةـ.. مـطـلـوبـ كـشـفـ صـدـرـ وـبـاطـنـيـ وـأـعـصـابـ
+ أـشـعـةـ Xـ..

أغلقت الملف الطبي وسجّلت الملف الجنائي تحت ذراعي، تمثّلت في الطرقات حتى توقفت أمام غرفة يجلس فيها موظف إداري بجانبه ماكينة مستندات، التقطت رقم خطه الداخلي المدون على تليفون بجانبه وأنا أحّيّه، أعلم أن نسخ الملف الجنائي ممنوع، لكن استدعاء موظف إلى مبني الإدارة ليس ممنوعاً، خاصة إذا أمن أن مكتب المديرة هو الذي يطلبها! رحلة لأقصى شرق المستشفى على مسافة نصف ساعة ذهاباً وإياباً! ترك الشاب مكتبه ورحل فأغلقت الباب على نفسي وصنعت من الملف نسخة قبل أن أُعيده لشئون المتهمين، دسست الأوراق في حقيبتي الجلدية ورحلت، فتلك الليلة كان عليّ البحث بين ثلاثة سنتيمترات من الورق..

عن بداية طريق..

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

وَجْهَةَ دَجاجِ مَشْوِي سَتُغْضِبْ قَوْلُونِي + سَلَاطَةَ خَضْرَاءَ غَيْرِ مَغْسُولَة
جَيْدَاً غَنِيَّةَ بِمِيكِرُوبِ السَّالْمُونِيلَا..

علبة بيرة مايستر ماكس مثلجة «٥٠٠ مللي» ستصرعني تجشوأ ..
وي بعض الترمس المملح ..

وثلاث سجائر تبغ «Golden Virginia فلتر ٨ مللي» رفعت
«الدوامين» في رأسِي إلى مُستوياته المُعتادة..

جلست أمام الملف المُتخم في صالة شقتي وبجانبي ورقة أدوان
فيها المعلومات وأضيف إليها تكهناتي بين الأقواس:

حين فتحت الشقة عُشر على شريف في ركن الغرفة التي أقيمت
منها المجنى عليها، شرائين يُسراه مقطعة بأربعة جروح تردديه^(١)
(Culpability delirium)^(٢)، نُقل إلى المستشفى في حالة سيئة
ولما أفاق ظلّ صامتاً ليومين قبل أن يستزعوا منه الكلمات للتحقيق،
جائت أقواله متضاربة لا تحمل منطقاً ثابتاً، قال إنه لم يمس زوجته،
ثم قال إنه دفعها، ثم أنكر معرفته بالحادث من أصله، قبل أن يجزم بأن

(١) جروح قطعية سطحية متوازية تشير إلى التردد في تنفيذ الانتحار.

(٢) هذبان الذنب ..

شخص آخر قد فعلها وأنه جاء متأخراً ولم يتحمل، فقرر الانتحار!
أعراض الـ «Schizophrenia»^(١) تُعلّم عن نفسها..

تبين من عينات البول في الزجاجات البلاستيكية المتشرة بجانب حائط الغرفة التي أقيمت منها الضاحية أنها تخصل المتهم، يبدو أنه أقام لفترة فيها ولم يغادرها..

بالكشف على المجني عليها ثبت وجود كدمات وسحاجات بنفسجية في مناطق متفرقة من الظهر والفخذ بأطوال وأعماق مختلفة تُشير تطوراتها الالتامية إلى كونها جائزة الحدوث ما بين أسبوع إلى عشرة أيام قبل الوفاة..

كما تبين حدوث قطع دائري مشرذم «قطر ٥ سم» أعلى الفخذ اليسرى، يشير تطوره الالتامي إلى كونه جائزة الحدوث ما بين أسبوع إلى عشرة أيام، نتيجة سلخ الجلد بآلية حادة..

وبالكشف على المجني عليها تبين حدوث اعتداء جنسي يرجع لساعات قبل الوفاة أحدث تهتكاً حاداً بمنطقة المِهبل والِعِجان، ونزيقاً أدى للإجهاض، وبفحص الرحم تبين أنَّ عمر الجنين من سبعة إلى ثمانية أسابيع تقريرياً..

لم يتم العثور على بقايا جلدية تحت أظافر المجني عليها ناتجة عن مقاومة أو تفيد حدوث التحام جسدي مع الجنائي.. كما تم العثور على بقايا سائل منوي اتضحت بالتحليل أنها تخصل الزوج..

قاطعت قراءتي رنة المحمول برقم غير مسجل:

(١) فضام.

- ألو.. يحيى؟

تلك الـ «ألو»!!

- مين معاي؟

- أنا لُبْنِي..

تعرّقت فروة رأسي وخفق قلبي فمشيت خطوتين ورجعتهما
حين قطعت صمتى:

- مش فاكرني !!

أفقت من ذهولي فسلّكت زوري بحجة:

- لا.. طبعاً فاكرك ..

- باكلمك في وقت مش مناسب؟

- خالص.. أنا...

- أنا جبت رقمك من أختك.. هزأتني ساعة عشان ما كلامتهاش
من زمان..

- إزيك يا لُبْنِي؟

- أكيد أنت أكتر واحد ممكن يكون مُتخيل حالتى النفسية دلوقت
عاملة إزاى.. يحيى.. أنا محتاجة أقابللك في أقرب وقت.. لو
ممكنا بكرة؟

- بكرة!

- مش فاضي؟

- لا لا ماشي .. فين؟

- «سيكويَا» اللي في شارع أبو الفدا.. الساعة تمانية كويس؟

- الساعة تمانية.

أغلقت التليفون وارتمنت فوق الكتبة دمية خشبية مُنحطة الخيوط،
تبيست دقائق أتأمل رقمها على الشاشة، قرأته ثلاثين مرة حتى حفظته،
بعد سيجارة وزجاجة ودورتين حول نفسي اتجهت إلى غرفة النوم
وفتحت الدولاب، من بين الملابس ساحت الصندوق الكرتونى
وجلست على السرير، أزحت عدّة ألبومات مُعتقلة منذ زمن بشرط
لا صق والتقطت وأحداً أخيراً يرقد في القاع، ألبوم يرجع لفترة
الستينيات، الصور فيه تكدرست بلا ترتيب زمني، أغلبها لقطات
لشلة الكلية في نزهات القاهرة وعلى شواطئ الإسكندرية، قلت
الصفحات سريعاً قبل أن أتوقف أمام صورة لي في فرح وبجانبي
شريف يضع يده على كتفي، متورز الوجه يضحك من قلبه، ويتابط في
ذراعه أخيه، شفاه رقيقة رسمت بحرفه، عينان فيهما تساؤل لا إجابة
له، وشعر كستاني يموج قرب كتفيها في طاعة عمياً، أزلت الغلاف
الشفاف وجذبت الصورة برفق مُتجنبًا تمزيقها، وجدت على الظهر
كلمات كتبها يوماً..

«أنا وشريف ولبني في فرح حاتم رفت، ٢١ إبريل ١٩٩٨».

أخذت الصورة وخرجت، في طريقى للصالات مررت بالحمام،
نظرت لنفسي في مرآته ثم للصورة، أربعة عشر عاماً تفصلنى عن
ذلك الشخص، لو قابلتني صدفة لن أعرفني! قررت تخفيف لحيتي
قليلاً «بالطبع بما لا يسمع لمايا بالاعتراض» فالخربشة تعنى الكثير

لبشرتها الملساء! وضعت الصورة على الرف الزجاجي ثم فتحت
دولاب المرأة وسحبت مقصاً، ذبحت خصلة تابعتها تسقط على
جدار الحوض قبل أن أبدأ في التشذيب يميناً ويساراً حتى بدأ
لحيني كفابة دهستها الأفيال! فلتذهب مَايا للجحيم.. مؤقتاً! وضعت
الصابون على ذقني واستللت موسمًا، نصف ساعة وأصبحت حليقاً،
دقن فاتحة لم تر شمساً منذ أمد، وكمية لا بأس بها من العروج
والخرشات!

ستظن «صفاء» أني قد انصعدت لرغبتها، لا بأس، إرضاء أنوثة
«مديرة» متأخرة لن يضر شيئاً!!

تركت أفكاري في الحوض وخرجت لأجلس أمام الملف،
حدقت في صورة شريف على الفيش الجنائي، ممسكاً أمام صدره
بلوحة سوداء فيها أرقام!! تذكرت الأرقام التي كتبها صباحاً،
بحثت في جيوبه حتى عثرت عليها، سحبت تليفوني وطلبت
٤٠١١٠٢٠٠٩..

الرقم الذي طلبه غير صحيح.. ترجو التأكد من الرقم وإعادة
المحاولة!

شريف لم يكتب الرقم الصحيح.. اختلط عليه الأمر.. أو ربما لم
يكن يكتب رقم تليفون!!

كان ذلك تساؤلاً من بين ألف سينازعني حتى الصباح..

في اليوم التالي وبمجرد دخولي من بوابة المستشفى أسرعت
الخطى محاولاً تفادي «نعمما يا دكتور» التي انهالت علي من كل
صوب كأني امرأة زانية يجرسونها قبل أن تُرجم، الرّبط بين حلاقة
الشعر وكلمة «نعمما» سيظل لغزاً لا حل له!!

لما وصلت ٨ غرب ناديت محسن وأنا أنقب في حقيتي عن
تبغي، وجدت حفنة بالكاد تكفي سجارتين، دسست واحدة بين
شفتي حين دخل:

- صباح الفل يا دكتور.. «نعمما».. أجيبي فطار؟

ناولته نقوداً:

- اطلع على «On the Run» اللي في بنزينة «موبيل»، هات لي
كيس دخان زي ده، وربع بُن غامق، اعمل لي كوبية على الريحة،
قول لي، شريف الكردي أخباره إيه إمبارح؟

- التحاليل أهه جنب ملفه.. كل ساعتين يحط صابعه في بقه
ويستفرغ..

قلبت أوراق التحاليل سريعاً، لم تَعثر عيناي على خلل إلا في
صورة الدم، نقص واضح في الصوديوم سينتولى أمره فوار مُكمّل،
والتهاب في العينين نتيجة زيادة في الضغط، وأنيميا..

- اتكلّم معاك يا محسن؟

- هو قليل الكلام.. حاولت الاغيه.. أجيّب له حاجة من بره..
ما فيش.. طول الوقت متّنح في الحيطة ويستفرغ..

- خلاص يا محسن قرفتني الله يحرّك.. رأيك إيه؟

- لا.. صعبة شوية.. دكتور نفسية يجيّلنا ٨ غرب! لو مش عيّان
بيقى سابكها أوّي..

- بياكل؟

- بينقرّ كام حاجة ويسيب باقي الوجبة زي ما هي وبعدين...
- يستفرغ! حاول تضغط عليه ياكل عشان عنده نقص في الأملاح..
وهاتهولي قبل ما تخرج.

اتّجه محسن مع عسكري للباب الحديدي للعنبر فدلفت غُرفة
المُتابعة أراقب سلوكه حين صاح العسكري مُنادياً من خلف الحديد:

- شريف.. شريف الكردي !!

لم يتلق إجابة.. شريف كان جالساً على سريره ساكناً يحدق
في ركن خالي، نودي اسمه ثالثة ولم يتحرّك فدخل العابر يتخلّلان
المتهمين حتى وصلا أمامه:

- أنت أطرش! أنا مش ندحت اسمك !!

التفت شريف إلى العسكري بنظرة جعلته يعيد التفكير فيما قال
حين عاجله محسن ملطفاً:

- دكتور يحيى عاوزك..

قام شريف ومشى بينهما وسط نظرات المرضى المُتربيصة حتى
خرجوا فرجعت مكتبي، ثوانٍ وسمعت الطرقات قبل أن يجلسه
محسن أمامي، لم يجد أفضل من أمس، عينان هاربتان تجاه الحائط
ووجه أكثر شحوباً:

- إزيك النهاردة؟ فطرت؟

يُصمت رقم ذقني فاستطردت محاولاً الحفاظ على التواصل
الهزيل:

- بتشوّكني.. الجو بقى حر والتكييف في البيت عطلان بقى له
سنة.. والتوكيل قفل! عارف.. إمبارح بادور في الدولاب لقيت
صورة قديمة..

آخر جتها من جيبي ووضعتها أمام عينيه.. حدق فيها طويلاً:
- شفت كنت تخين أنا إزاي.. أنت برضه اتغيرت كثير يا شريف..
بالمناسبة لبني كلمتي إمبارح.. هاقابلها النهاردة عشان أطمئنها
عليك.. مش عاوز منها حاجة؟

لم يطرف له حفن، انتظرت منه انطباعاً بالانفتاح، رعشة استنكار
في الوجه، لا شيء، طوبية حمراء مثبتة في جدار:

- أنت شوية وهتقعد مع اللجنـة.. إدّيني فرصة أسمع منك حاجة
قبل ما تقابلهم..

بصعوبة نزع شريف عينيه من الركن ونظر لي.. شعرت أنه يتخلّل
مسام وجهي:

- أنا ما قتلتش..

- جميل.. مين اللي قتل؟

- هو..

- هو مين؟

استغرق ثواني ليجيئني:

- اللي قاعد جنبك دلوقت..

التفت إلى يساري حيث أشار:

- هو فيه حد تاني معانا في الأوضة!

رمضني بغضب لإنكاري ما يدّعي وجوده، فتصديق المريض
ضلالات مرضه جزء لا يتجزأ من الأعراض..

- أنا بس مش شايف حد!

حدق شريف في وجهي بعيني تمثّل فرعوني زجاجية..

- أنت سامع صوته دلوقت؟ سأله..

- شريف.. أنت دكتور.. خلّي عندك وعي بالحالة بتاعتكم..

- تفتكّر لجنة دكاترة عُقر هتصدق بسهولة دكتور حافظ الأعراض؟
خليلك منطقى..

لم ينبع بكلمة! أححتاج لبداية جديدة:

- طب ممكن توصفهولي؟

...-

بدأ يرسم بإبهامه الدوائر ثم انسحبت عيناه إلى الركن فحاصرته:

- طب وهو قتل باسمة إزاي؟

صمت للحظات قبل أن يزفر:

- أنا عاوز أمشي..

- جاوب سؤالي..

احتد شريف:

- عاوز أمشي..

- هتمشي بس إهدا.. إهدا يا شريف..

حاولت تغيير الموضوع تخفيفاً:

- صحيح.. الرقم اللي كتبته إمبارح ده تليفون؟

لم يُبدِ شريف تعبيراً فسألته:

- حساب في بنك؟ فيزا؟ أنت تحتاج فلوس؟

...-

فتحت الدرج وأخرجت أوراق اختبار رودشاخ؛ عَشْر وَرَقَاتٍ
بيضاء توَسَّطُهُم بُقْعَ حبر مُتماثلة النصفين كصورة فيَّ مَرَاة، تَصْنَعُ
أشكالاً عشوائية يُسْقِطُ عَلَيْهَا المريض حين يصفها انعكاساً لـما

في نفسه:

- شریف الشکل ده بیفکر ک بایه؟

بصعوبة انتزع عينيه عن الحائط، نظر للورقة ثواني بدت دهراً الما
لم يرمش بجفنيه فعرضت عليه الورقة الثانية.. لم يتكلّم.. الثالثة..
الخامسة.. السابعة.. في التاسعة حرك شفتيه ببطء:

١٢٦

١٢٧

البحر كان أبعد وصف لما في الورقة.. البقعة كانت أقرب لوجه حسان !!

لم يُجنبني فمررت الصورة العاشرة، لم تكن بقعة حبر، كانت صورة زوجته، جسدها المَزروع تحت البرج مَسقِيًّا بدمائهما، كنت أحتاج لاستفزازه ومُراقبة رد فعله حين يتعرّض لصدمة، نظر للصورة بروح صنم جاهلي، عيناه مُستقرتان لا تشويهما اختلاجه! لو كان رأى مجلة أطفال فيها صورة جثة ميكي ماؤس مقتولًا لنضع وجهه بتعبير!!

- شریف.. شریف !!

لَمْ يُخْرِجْهِ نِدَائِي مِنْ مَوْتِهِ.. طَقْطَقَتْ أَصَابِعِي وَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ
شِمْ جَلَسَتْ الْقَرْفَصَاءُ أَمَامَ كُرْمِيهِ:

- شریف.. تهمتک فيها إعدام.. مُدرك ده؟

رمقني بنظره جوفاء لم أقرأ منها أي علامة..

- شريف.. بيبي وبينك كده.. حصل خيانة؟ بسمة كانت على
علاقة بحد؟

ابتسم ..

- أنا مش فاهم أنت بتضحك على إيه؟

.....

- الشخص اللي قتلها تقدر ترسمه؟

لم أمهد له وقتاً للتفكير، قررت الورقة منه ودست القلم بين أصابعه:

- ارسم يا شريف.. أي حاجة..

لم يرسم.. كتب ٤٠١١٠٢٠٠١٩ ..

لم أتمالك نفسي غبيطاً:

- شريف مش كلام ده! أنت كده بتعجزني !!

كان ذلك حين افتح الباب بعنة، سامح كان واقفاً، بدون أن يتكلّم وأشار لي أن أتبعه فخرّجت وراءه:

- نعيمًا.. فين ملف الحالة اللي معاك؟

- فيه مشكلة؟

ناولني سامح ملفاً كان في يده:

- استلم أنت الملف ده وسipp لي الـ «Case» دي أقرأ بسرعة عشان أضبط لو فيه حاجة ناقصة قبل ما تيجي اللجنة..

- ناقصة إيه.. أنت بتهرّج!! مش هينفع.. شريف هيفضل معايا..

- ومالك قافش كده ليه؟ اللجنة دلوقت بتطلب طريقة معينة في
العرض أنت ما تعرفهاش..

قاومت رغبة ملحّة في لكمه..

- أنا درست الـ«Case» عاوز أرّكز معاه وهاعرف أعراض.. ويدأ
يرتاح لي ويتكلّم.. مش عاوز أشتّه..

رمضني سامح لثوانٍ قبل أن تعتلي وجهه ابتسامة شُك فعاجلته:

- اللجنة هتقعد مع ثلاثة تانين النهاردة.. اشمعنى الـ«Case» دي؟

- أنت لسه راجع ودي الـ«Case» تقبيله عليك!

اللجنة وصلت..

كان أعضاء اللجنة قد ظهروا وراءه في آخر الظرفة، ثلاثة أطباء
قادرون على غريبة «هولاكو» لو جلس بين أيديهم، حيّونا قبل أن
يسأل أقدمهم عن الطبيب المُتابع، اصطحبتهم إلى الداخل وأغلقت
الباب في وجه سامح..

جلس أعضاء اللجنة كالقضاة خلف مكتبيْن عَريضين، وشريف
على كرسي في مواجهتهم، أولهم انشغل بقراءة الملف الطبي،
والثاني طالع الملف الجنائي، والثالث كان د. كيلاني؛ كبير اللجنة
وأقدم الأطباء، أشار لي فاقربت:

- حمد الله على السلامة يا يحيى..

- الله يسلّمك يا دكتور.

- هنبقى نقعد مع بعض عشان تطمّنـى عليك.. إيه أخبارـال Case؟
شفت إيه؟

- «Schiz».. OCD.. Audiovisual hallucination..
واضح..

- ما تستعجلش..

تعمّدوا ترك شريف خمس دقائق من الانتظار المدروس تكسيراً
للاعصاب، سحبت كرسيّاً وجلست على مسافة تسمح لي برؤيه
لامحه إذا تكلّم:

- مرتاح في القعدة؟

لم يعره شريف أدنى اهتمام فأردف د. كيلاني:
- بُص يا ابني، من أولها كده إحنا مش وكلاء نيابة وده مش تحقيق،
وأنت بتسمع كويـس فـرـد عـشـان نـقـدر نـسـاعـدـك..

نَجَحت الكلمات في تحويل رأس شريف ناحية الطبيب..

- اسمك إيه؟

بـشـخـوصـ لـمـ يـجـبهـ، هـزـ الرـجـلـ رـأـسـهـ وـتـجاـوزـ السـؤـالـ..
- سنك؟

ابتسم د. كيلاني:

- ماشي.. بـتـشـتـغلـ إـيهـ ياـ شـرـيفـ؟

(١) يعاني من هلاوس سمعية - بصرية.. ووسواس قهري.

- تاجر بغال..

عاجله الطيب الثاني:

- يا بنى عيب كده.. احترم نفسك وردد صبح.. إحنا مش بنسألك عشان مش عارفين.. اترفت ليه من المستشفى يا دكتور؟

تابعت ملامحه.. لم يُدِّي استياءً من كلمة الرفـد..

- يقولوا إنك قلت مراتك.. الكلام ده صبح؟

مال شريف برأسه للبيمن ولم يجب!

- أمال مين اللي قتل؟

التحت شريف ونظر لي قبل أن يستقر بعينيه في الركن.. لم يُمهله

الطيب الثالث:

- أنت عاوز ترمي على أي نوع من أنواع الـ «Schiz»؟
مثلاً؟ عرفنا عشان نساعدك!

لم يتغير وجه شريف فأردف الطيب:

- طيب.. إحنا كام واحد في الأوضة يا شريف؟

طقطق الطيب أصابعه جذباً للانتباه:

- شريف! خلـيك معايا..

تنقلت عينا شريف بين أعضاء اللجنة قبل أن يجيب:

- ستة..

- ممكن تعدـهم لي؟

رجع بنظره للحائط فعاجله الطيب الثاني:

- يا ابني الدكتور كيلاني يكلمك.. عد لنا الموجودين..

مر شريف بعينيه على ثلاثة ثم نظر لي قبل أن يمر بالركن الحالى
ويحسم أمره:

- ستة..

سؤال الكيلاني:

- إحنا ثلاثة ودكتور يحيى وأنت بقى خمسة.. جبت منين
السادس بقى !!

نقل شريف نظره بين الركن ود. كيلاني..

- واسمه إيه بقى الأخ اللي إحنا مش شايفينه ده؟

عاد شريف للركن فرجع الطيب بظهره إلى الكرسي:

- ده شغل تمثيل.. وفاضل كمان.. إيه يا دكتور!! عيب.. طب
ادرس حتى الحالة كوتيس!

رعدة غضب لمحتها في رفة أنف أخذت لحظة قبل أن يحنى
شريف رأسه في الأرض ويقوم بهدوء ليسحب القلم من يد الطيب
ويرسم على الحائط متالية «١٩٠٢٠٠١٤٠١١٠٠٢٠٠١» بخط رديء..

- أنت يا ابني أقعد.. أقعد!! يا يحيى قعده.. إنه مُمْرَض..

لم يُعره شريف انتباها، أخذ يكتب أرقامه ذاتها بشكل ميكانيكي،
يُكررها كمن ينوي تغيير لون الحائط! قمت إليه لأنني برفق فوجده

مُتيساً كسيخ حَدِيدِي في خرسانة، جذبت ذراعه فوكزني بکوعه في صدری، شعرت بالدم رهيب فتحاملت وناديت محسن، ثوانٍ وجاء شاهراً حُقنة «هالدول»؟ مُهدى نستعمله في حالات الهياج، تركها في كفي وانقض على شريف اعتصاراً وتشيّتاً فرشقـتـ الحـقـنـةـ فيـ ذـرـاعـهـ، أفرغـتـ مـحتـواـهـ فـبـدـأـ يـرـتـخيـ نـسـبـيـاـ بـعـدـ ثـوـانـ، ثـمـ انطفـأـ كـمـاـ كـيـنـةـ فقدـتـ مـصـدـرـ طـاقـتهاـ قـبـلـ أنـ يـسـجـبـهـ مـحـسـنـ لـلـخـارـجـ..

رمضني د. كيلاني وهز رأسه مبتسمًا:

- دي هاتبقى حالة الموسم..

قالها ثم انهمك في كتابة ملاحظاته فسحبـتـ كـرـسـيـاـ وجلستـ بـجـانـيهـ:

- إيه رأي حضرتك؟

- هايـتـعـبـناـ.. واحدـ زـيـ دـهـ سـهـلـ جـداـ يـخـتلـقـ أـعـراـضـ.. بـسـ مـينـ ماـ يـقـعـشـ.. أـنـاـ مشـ بـقـولـ إنـ الـ«Psychiatrist»ـ مـسـتـحـيلـ يـمـرضـ.. بـسـ يـاماـ شـفـناـ أـلـاـعـيـبـ..

-؟«Schiz»-

- الفـضـامـ أـقـرـبـ تـشـخـيـصـ طـبـعاـ.. عـامـةـ أـكـدـ عـلـىـ التـمـريـضـ يـتـابـعـوهـ.. وـحاـولـ تـشـوفـ سـبـبـ رـفـدـهـ مـنـ الـمـسـتـشـفـىـ.. وـاتـكـ عـلـيـهـ شـوـيـةـ.. اـسـتـفـرـهـ.. عـاـوزـ أـشـوـفـ نـرـفـزـتـهـ هـاـتـطـلـعـ إـيـهـ لـغـاـيـةـ مـاـ أـقـعـدـ مـعـاهـ تـانـيـ.. المـُـهـمـ.. أـخـبـارـكـ إـيـهـ؟

- تمام..

- هاستناك في مكتبي نشرب شاي ونتكلّم براحتنا.. هات
اللي بعده..

هممت بنداء النزيل التالي حين استوقفني د. كيلاني:
- شريف ده دفعة ٩٩؟ مش دي دفعتك يا يحيى؟ أنت تعرفه؟

- دفعتي كانت أكثر من ألف ونص يا دكتور..
- ما علينا.. هات لي اللي بعده..

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الابتسامة

سَجَّلتِ المَوْعِدُ احْتِيَاطِيًّا عَمَلًا بِنَظَرِيَّةِ تَنوُّعِ مَصَادِرِ السَّلَاحِ ثُمَّ
فَصَّلَتِ سِلَكُ الْكَمْبِيُوتُرِ كَمَا تُفْصِلُ الْكَهْرِباءَ عَنِ الْمَكْوَاهِ وَانْطَلَقَتِ
إِلَى الزَّمَالِكِ، فِي نِهايَةِ شَارِعِ «أَبُو الفَدَا» دَلَفَتِ الْمَطْعَمُ، الْجَوُ كَانَ
شَرْقِيًّا دَافِئًا، اخْتَرَتِ مِنْضَدَّةً مُنْتَرَّفَةً قُرْبَ النَّيلِ وَجَلَستِ، طَلَبَتِ

«Espresso» دوبل وبدأت لا إرادياً في ممارسة هوایتی، كم أُعشق لُغة الجسد حين يتعلّق الأمر بـرجل وامرأة يجلسان في مطعم.

بطولة عالم في المراوغة «وزن ثقيل» ..

تلك الجالسة التي تضع يديها أسفل ذقنها وتميل برأسها، تنصلت لهراء الجالس أمامها بشغف وانبهار، إلا أن السفيه يكذب فيما يحكى، كتفه اليسرى ترتفع لا إرادياً كل عشر ثوانٍ ليُنكِر ويستغيث مما يختلفه فَصَّ مخه الأيمن المسؤول عن طمس الحقائق واستبدالها ببطولاته الزائفية، أمّا تلك التي تضم ذراعيها أمام صدرها وتضع حقيقة يدها بينها وبينه تصنع حائلاً يمنعه من اقتحامها رافضة لما يقول، كما أن ساقيها تميل نحو مخرج المطعم، تنوي الهرب وستتهازء فرصة، رغم أنه صادق، فرحة يديه مبوسطتان أمامه وقامته مُتحننة تجاهها رغبة في خطب وذها، بعد بضعة أشهر ستهجره طبقاً لنظرية «أحب البنت تسييك.. سيب البنت تحبك»، وذلك الجالس وحيداً يراقب من حوله في حذر قبل أن يميل ميالاً بطيئاً إلى اليسار، إنه فقط يُطلق ريحًا! وتلك القادمة من بعيد، ساقاها متناسقة ملفوفة في الجينز الأزرق وكعبها العالي طاغي النغمة!!

جذابة بالنسبة لأم تمسك في يدها ملائكة صغيراً..

ملائكة يشبه إلى حد الجنون.. لبني!

بحثت بعينيها بين الجالسين حتى لاقتني فاضطررت خطوطها لحظة، لفت خصلة بأناملها وضعتها خلف أذنها مُحاولة بث الثقة في دقات كعبها على الأرض، اقتربت، البلوزة البنفسجية أضفت الكثير لبشرة النسكافيه الفاتحة، والحزام فوقها أحاط خصرًا لم

يتغير، اقتربت، عنقها الطويل تزيّنه السلسلة! الفراشة الزرقاء التي لم تخلعها يوماً منذ هاديتها بها، اقتربت، حواجبها السميكة وشفاه الكريز والرموش تخفي توترًا في عينين يانعتين أطفاهم حُزن، شاحبة مُرهقة رغم تفاوضها مع الـ «Makeup»، قُمت ماداً يدي فألقت في كفّي أناهل لم أنس يوماً ملمسها، وجلستنا، كِتِرام غشيم بلا سائق خرج عن القضيب دَسَست نيكوتيني بين شفتَيِّ قبل أن أتدارك طفلتها التي حدقت في براءة، أعدتُ السيجارة لجيبي حرجًا فنادت الخادمة الفلبينية التي كانت تتبعها، أشارت لها أن تجلس و«هانيا» في منضدة مُفصلة ففعلت، جاء النادل فطلَّبت لنفسها «Espresso» وللصغيرة تشير كيك بالشوكلاته ثم حدقت في وجهي تبحث عن بداية:

- اتغيرت كثيراً!

- عشر سنين مش قليلين.. أنتي كمان اتغيرتني..

- للأحسن؟

هزت رأسي إيجاباً وأنا أرمي الدبلة الذهبية في بنصرها:

- أكيد..

- أعرفك يا سيدى بهانيا..

نظرت لصغيرتها التي تحمل جينات أمها ولوحت لها فابتسمت خجلاً ولاذت بصدر الخادمة هرباً مني..

- هانيا.. سلمي على أونكل.. معلش.. وش كسوفاوي.. ما شفتهاش في النادي بتعمل إيه؟

- هانيا.. جميلة.. ربنا يخليلها لك.. أخبارك إيه؟

- زي ما أنت شايف.. اتجوزت وخلفت هانيا وباشتغل
في كريدي أجريكول.. وأنت؟ **HR Manager**

- زي ما أنا مع المجانين..

بدون أن تنظر في عيني ألقتها وكأن شخصا آخر يسأل:

- اتجوزت؟

كنت أعدّ الثاني حتى تأسّل السؤال الحتمي.

- كنت..

- الطلاق بقى عادي.. معاك **Kids**؟

- كان معايا.. نور..

لفظة «كان» وترت ملامحها، رجعت بظهرها للكرسي وقطبت جبينها فخففت نبرة صوتي وحاولت أن أنطقها بإحساس من يخبرك أن الجو حار وأن التكيف مُعطل.

- بستي.. ومراتي.. ماتوا في حادثة على طريق الساحل الشمالي
من خمس سنين!

وضعت أناملها على فمها تبحث عن لسانها ونظرت لا إرادياً لجميلتها، سئمت تلك الملامح، خليط الفزع والشفقة مع تدلي الفك ثم البحث عن كلمات مواساة رتيبة لا معنى لها، هذا بخلاف الفأل السيء الذي يسببه أمثالى في أي مكان.

- أختك إزّاي ما قالتش.. مش عارفة أقول لك إيه؟! أنا.. البقاء
لله.. متأخرة أوي.. أنا...

ابتسمت لها تخفيفاً:

- ما تقوليش حاجة.. الموضوع انتهى خلاص.. خلينا نرتكّز في
اللي نقدر نساعد..

ابتلعت ريقها بالـ«Espresso» ثم استطردت بعدما تمالكت نفسها:

- أول ما عرفت إن شريف هاتتحول على العباسية دعيت تكون
لسه هناك.. شُفت شريف يا يحيى!

- ملفه معايا.. أحكي لي.. بالتفصيل من البداية..

- شريف وبسمة اتعرفوا على بعض من أربع سنين في فرح
واحدة صاحبتنا، حُب من أول نظرة، الموضوع مشي بسرعة، ما فيش
شهور واتجوزوا، أنت عارف شريف وطقطقانه، بس هو بجد كان
يحبها أوي.

أخرجت أجذدة لأدون ما تقول حين أردفت:

- كل حاجة كانت ماشية كويس لحد قبل الحادثة بشهرين.. وعلى
حظّي كنت في فرنسا بع البنك لما عرفت من ماما إن فيه مشاكل بين
شريف وبسمة.. على ما رجعت كانت كل حاجة انتهت..

- إيه طبيعة المشاكل؟

- كلمت بسمة من فرنسا لما شريف فجأة ما بقاش يرد على
مكالماتي.. حكت لي أن شريف متغيّر من ناحيتها.. كانت شاكرة إن

تأخير الحمل هو السبب .. مُكالمه تانية بعدها كانت بتعيط وقالت إنها حاسة إن فيه واحدة تانية .. ما بقتش تعرف أي تفاصيل عن حياته.. عازل نفسه وبيغيب كثير ولما بسجي بيقفل على نفسه بالمفتاح بالأيام في أوضته .. و«During Sex» بقى عنيف جداً.

ارتبتكت ملامحها خجلاً فهزّت رأسي تفهمًا التكمل:

- طبعًا حاولت أوصل لشريف.. قافل تليفونه ليل نهار وما يفتحش الباب حتى لو بسمة قالت له إبني على التليفون.. دي الحاجة الوحيدة اللي مش فاهماها.. إحنا طول عمرنا أصحاب وسرنا مع بعض.. عمره ما عمل كده معايا.. وده اللي أكيد لي إن فيه حاجة غلط.. المهم.. بعد كام يوم بسمة عرفت من جواب التأمينات اللي وصل البيت إنه اترفد من المستشفى.. كلمتها.. حكت لي كلام غريب..

- كلام زي إيه؟

- شريف بيكلم حد معاه في الأوضة وهو قاعد لوحده.. حد شايفه.. بيقعد بالساعات باصص في رُكن، عينيه ما بتزلش عنّه.. ما بياكلش ولا بيشرب معاها.. عمال يقول إن دراعه الشمال فيها مرض وهيقطعواها !!

- دي أعراض طبيعية للسكيرز فرينيا..

- شخصيتين؟

- ده الجانب اللي بيحبوه بتوع السينما، بس السكيرز مش كده، هو خلل عقلي مش نفسى، بعمل أوهام، تسمع كلام غريب، مُخابرات بتراقبنى، بيتصتوا علياً، بيقروا أفكارى، عاوزين يموتونى،

جنْ راكبني، مراتي بتخونني وعاوزة تسمّني، عندي مرض خطير..
الخ.. وممكِن يجي على «Paranoia» عظمة، يعني أنا أقوى واحد،
معروض علياً أكون رئيس، أنا المهدى المستظر، أنا نبي! والمريض
ممكِن يسمع أصوات، وفي حالات نادرة بيشفو..

توثّرت ملامحها:

- ي تعالج؟

- لو الأعراض حصلت في وقت بسيط زي ما فهمت منك ممكِن..
المشكلة الحقيقية في اللي بتبدأ عنده في سن المراهقة..

- لكن شريف دكتور، مش المفروض يكون...!

- مفيش حد كبير على المرض.. مش دي المشكلة.. المشكلة
في القضية..

- أنت مصدق إن شريف يقتل؟؟؟

- أعراض الـ «Schiz» نادرًا ما تبقى عنيفة.. يمكن لو فصام
هيفريني ساعات بيكون عدواني..

- هيفريني يعني إيه؟

- مش عاوز أدوشك بمصطلحات.. يعني لو فعلًا قتلها يبقى
ما كانش في حالي الطبيعية.. كتعلي..

- فجأة شريف طرد بسمة وغير كاللون الباب.. راحت عند مامتها
ما حاولش يكلّمها أسبوع.. وبعدين اتصل بيها واترجمها ترجع..
راحت له.. فتح لها الباب عريان وراسم «Tattoo» أكيد شفته.. هما

الاتنين مجانيين تاتوهات أصلأ.. تخيل يعْمِل إيه؟ (He raped her)
بُمُتْهِي العُنْف..

- اغتصاب.. اغتصاب؟

- ده اللي قالته في التليفون وهي مُنهارة..

- ويعدين؟

- ويعدين بسمة اقطعت أخبارها، آخر مرّة اتصلت بهم اترفت
السّماعة، قعدت أقول ألو.. ألو الخط قفل، بعدها بشوية جات لي
«SMS» من تليفون شريف..

قالتها وعيشت في تليفونها قبل أن تناولني شاشة الرسائل القصيرة..
كان فيها كلمة واحدة.. «إلحقيها»... فقط..

- إلحقيها!! الرسالة دي كانت إمتى؟

- يوم ما بسمة رمت نفسها!! ويعدّها يوم رجعت من فرنسا..
سكتت وسحبت نفساً محاولة السيطرة على رعشة الميت بأناملها
ثم أشعلت سيجارة مارلبورو «Slim» بالنعناع..

- يحيى أنا هاتجّن وما ما هتموت.. أنت ما شفتش أبو بسمة عمل
فينا إيه في المحكمة.. بهدلنا وصرخ فينا وماما انهارت.. الرجل كان
يعتبر شريف زي ابنه.. وشريف في القفص يعْمِل إيه تخيل؟ يتسم
للرجل أكن ما فيش حاجة.. حاسة إبني في كابوس مش عارفة أصحّها
منه.. كابوس حقيقي..

مسحت بمنديلها دموعاً اختلطت بالمسكاراه، بلّت شفتيها

والمنضدة ووَتَرَتْ ابْنَهَا فَالْتَّفَتْ إِلَيْنَا السَّرْعُوسُ الْمُنْسَنِي
نَذَلًا أَهْجَرَهَا.

- إِهْدِي.. الْمَوْضُوعُ فِيهِ حَاجَةٌ مُشْكِنَةٌ مُنْطَقِيَّةٌ.. مُشْعَرٌ عَارِفٌ أَنْتِي
تَعْرِفُ لَوْلَا.. بَسْ بَسَمَةً لِمَا مَاتَتْ كَانَتْ حَامِلٌ..

شَحْبٌ وَجْهَهَا دُفْعَةٌ وَاحِدَةٌ:

- شَرِيفٌ كَانَ هِيمَوْتُ عَلَى «Baby».. مُشْمُكْنَ يَكُونُ قَتْلَهَا
بَعْدَ مَا كَانُوا مُسْتَشِينَ أَرْبَعَ سَنِينَ !!

- الْعَيْبُ كَانَ مِنْ مِنْ؟

- كَانَ فِيهِ ضَعْفٌ فِي الـ«Sperms» عِنْدَ شَرِيفٍ..

- وَفَجَأَةً بَسَمَةٌ يَقِتَ حَامِلٌ! تِفْتَكِري وَارِدٌ يَكُونُ شَكْ إِنَّ الَّذِي فِي
بَطْنِهَا مِشْ ابْنَهُ؟

قَاطَعْتَنِي باسْتَكَارٍ:

- يَسْتَحِيلُ.. بَسَمَةُ أَنَا أَعْرِفُهَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْسِي.. بَنْتُ نَاسٍ..

- يَقِنُ مَا فِيشُ غَيْرُ إِنَّ شَرِيفَ فِي لَحْظَةٍ.. مَا كَانَشَ شَرِيفٌ..
أَوْ...

ابْتَلَعَتِ الْكَلْمَةُ مِنْ عَلَى لِسَانِي فَأَكْمَلْتُ هِيَ:

- أَوْ إِنَّ شَرِيفَ خَلَقَ كُلَّ دَهْ عَشَانَ يَخْلُصُ مِنْهَا.. مُشْ كَدَه؟
- مُمْكِنَ تَكُونَ اسْتَفْزَرَتْهُ بِكَلْمَةٍ بِسَبِّ الْحَمْلِ؟ مُشْ عَاوَزَ أَقُولُ
عَايَرَتْهُ عَشَانَ بِلَدِي الْكَلْمَةُ دِي.. بَسْ إِحْنَا دَايْمًا بِتَضَايِقِ مِنِ الَّذِي
يَلُومُنَا حَتَّى لَوْ بِالسَّكُوتِ.. الَّذِي يَحْسَنُنَا بِضَعْفِنَا..

- عمرها ما كُلّمته في الموضوع ده..

- ممكن يكون فيه واحدة تانية؟

صدمتها شوكوي فابتعدت بظهرها هرباً إلى طرف الكرسي
وسبكت يديها انفلاقاً..

- معقوله يكون ده تفكيرك في شريف!!

لم أشأ نيش جرح انديمل.. فشريف لم تكن لتردعه منظمة حلف
شمال الأطلسي عن فتاة يرغبهَا..

- ما تفهمنيش غلط.. أنا بافِكَر زي اللجنة ما هتفِكَر..

- اللي أعرفه إن شريف وبشمة ما يستغنوش عن بعض.

«اللي أعرفه»: قائلها غير واثق أو لا يملك معلومة..

- المشكلة إن أخوكي دكتور نفسية.. وده مخلبي موقفه صعب.

- وصعب يتعالج؟!

- لو مريض فيه احتمال يتعالج ويخرج...

- ولو مش مريض؟؟

لم أجد ما أقوله فأشاحت بنظرها بعيداً قبل أن تعود:

- عاوزة أشوفه..

- صعب.. الموضوع عاوز إذن من النايب العام.. سيبيني أشوف
ممكن أعمل ليه.. صحيح قبل ما أنسى.. أخوكي كان ليه حساب
في بنك؟

- أه.. فاتحة له حساب عندي..

عرضت عليها أرقامه التي كتبها..

- ده مش رقم حساب ولا حتى فيزا.. أنا حافظة الأرقام.. يمكن رقم دولي والكود غلط أو ناقص..

اتصلت ما ادأيش حاجة.. مبدئياً انقلني الأرقام دي وحاولي تعرف في أي معلومة عنها.. يمكن حسابات في بنوك تانية.. خزنة شايل فيها حاجة تهمه.. قوللي لي.. معاكي مفتاح شقته؟ ممكن ألاقي حاجة تساعد..

أخرجت سلسلة مفاتيح من حقيتها وعزلت واحداً:

- لو أهل بسمة ما غيروش الكالون هيفتح معاك..

- تقدري تيجي معايا؟

- أنا أعمل أي حاجة تخلصني من الكابوس ده..

نظرت في عينيها وبثقة لا أملكها أجابتها:

- هيخلص.. أو عدك.. معاكي عربية؟

انتهينا وخرجنا إلى سيارتها الراقدة أمام الباب، حمراء موديل السنة زين كنبتها الخلفية كم من الديبة القطنية يكفي محل هدايا وگرمسي لها نيا جلست فوقه بجانب خادمتها الصامتة، ضغطت لبني زر التكيف ورفعت الزجاج فانعزلت الأصوات، تحركنا والصمت يرخي جائله فوقنا، كان علينا اختراق زحام الإشارات والمارة السائرين وفجوة عشر سنوات تفصلنا عن آخر مرة جلسنا بذلك

القرب، شغلت نفسي بالطريق، ووجهها، أسترق نظرة إلى صفحته كل بضعة ثوان متمنياً أن تتلاقي النظارات فتشعر الأسئلة التي تلح على إلحاد مطر غينيا الاستوائي، لم أستطع منع نفسي من تأملها، استيعابها، تسجيلها في ذاكرتي وجرد الحَسَنَات التي تُزِين عَصْدَهَا، أربع عشرة نجمة بُنية لم ينْقُصْنَ واحِدة أفقـت منها لما سَجَبـت لـرثـتها نفسـاً وأغمـضـت جـفـنـيـها قبلـ أنـ تـخـطـفـ دـمـعـةـ بـسـبـابـتهاـ التـوارـيـهاـ وـتـضـغـطـ زـرـ الـكـاسـيـتـ تـشـتـتـيـاًـ لـلـصـمتـ، لـحـظـاتـ وـتـسلـلـ صـوتـ فـيـروـزـ كـدـخـانـ أـزـرـقـ لاـ يـوـتـرـ هـوـاءـ:

«عندـيـ ثـقةـ فـيـكـ..ـ عـنـديـ أـمـلـ فـيـكـ..ـ بـيـكـفـيـ..ـ شـوـ بـدـكـ يـعـنيـ أـكـترـ بـعـدـ فـيـكـ..ـ».

ما زـالتـ أـسـيرـةـ فـيـروـزـ!ـ لـاحـتـ منـ بـيـنـ شـفـتـيـهاـ اـبـسـامـةـ خـاطـفـةـ عـنـدـ مـقـطـعـ «ـبـاـجـرـبـ ماـ باـفـهـمـ شـوـ عـلـقـنـيـ بـسـ فـيـكـ!ـ»..

- لـسـهـ بـتـضـحـكـيـ عـنـدـ نـفـسـ الـكـوـبـلـيـهـ!

قلـتـهـ فـيـ سـرـيـ فـأـجـابـتـ:

- مشـ قـادـرـةـ أـطـلـعـ مـنـ فـيـروـزـ..ـ مـافـيـشـ وـاحـدـةـ بـتـقـولـ اللـيـ بـتـقـولـهـ.

- آـهـ..ـ طـبـعـاـ..ـ جـامـدـةـ فـيـروـزـ..

لم أجـدـ مـاـ أـعـلـقـ بـهـ فـبـارـكـتـ كـلـمـاتـهاـ بـهـزـةـ رـأـسـ كـمـاـ أـبـارـكـ آـراءـ سـائـقـيـ التـاكـسـيـ السـيـاسـيـ،ـ ثـقـلـ دـمـيـ بـلـغـ لـزـوجـةـ مـرـبـيـ تـينـ،ـ ظـلـلـتـ صـامـتـاـ حـتـىـ وـصـلـنـاـ أـمـامـ عـمـارـاتـ عـمـانـ بـالـمـعـادـيـ،ـ أـبـرـاجـ رـفـيـعـةـ شـاهـقـةـ تـشـيرـ رـهـابـ الـارـتـفـاعـاتـ فـيـ مـدـرـبـ قـفـزـ بـالـمـظـلـاتـ،ـ تـسـاثـرـ عـلـيـهـاـ وـحدـاتـ التـكـيـيفـ كـحـبـ الشـبـابـ فـيـ وـجـهـ مـرـاـهـقـ،ـ تـرـكـنـاـ السـيـارـةـ وـفـيـهاـ

ابتها والخادمة قبل أن ننطعف عند المدخل، دلفنا مصعداً مكسواً
بمرايا عكست صورتنا لا نهائياً، كأننا نحلق في فضاء أسود، تابعت
الأرقام المتضاعدة بسرعة سحبت الدم من العروق وانعكاس شعرها
الواصل لنصف ظهرها حتى وصلنا الطابق الثلاثين ..

لمبة سلم ترتعش وهواء يُصفر من فتحة ضيقة في شبكة كثيف
غريض، أشارت لبني إلى باب الشقة ثم قبعت في المصعد تحسباً
لوجود أحد من آل بسمة، أعرف النساء، عند الهلع ستضغط هي
الصفر وعلىي أنا أن أنزل ثلاثة دوراً قفزًا !!

اقربت من الباب، بقايا الشمع الأحمر ترتجح قرب ثقب المفتاح
بهزال، فَرَعَتِ الْجَرْسُ وَأَنَا أَرْتَبُ فِي رَأْسِي سِيناريو افتراضياً، سُؤَالِي
عن اسم شخص غريب بـدا حتمياً، تلقيت صمتاً، دقيقة وناديها،
خَرَجَتْ مُنْكَمِشَةً وَالتَّصْقِتْ بِكَتْفِي كَأَنَّا نَقْتَحِمْ كَهْفًا يَسْكُنُهُ دَبٌ،
نزعت الشمع الأحمر وأدرت المفتاح مُقاوماً تيار هواء دفع الباب
في وجهي، نافذة بحرية نسيت مفتوحة، بحثت بأناملمي عن مقبس نور
وضغطته فلم يبدد الظلمة، على ضوء تليفوني تلمست علبة الكهرباء
الرئيسية حتى وجدتها، رفعت المفاتيح النازلة واحداً واحداً حتى
أضيئت الصالة، دخلت ودخلت ورائي تتخيّط، تركتها واتجهت
مُباشرة لنافذة الشرفة المنسيّة المُطلّة على النيل وأغلقتها فهدأت
الأصوات بغتة، يبدو أن أحداً من آل بسمة لم يقو على المجيء،
فالاثاث مُبعثر والسجاد مطموس بأثار أقدام رجال البحث الجنائي
والطب الشرعي، والأركان تكدرت بأكواب شاي مدفون فيها أعقاب
سجائرهم، تحف أسقطتها ريح متھورة، وبرواز تناثر زجاجه على
الأرض، انحنىت على صورة تجمع شريف وبسمة مُتعانقين على

شاطئ، يضحكان ضحكة من القلب، انتزعتها من بين الرجاج
المكسور حين اقتربت لبني فعلقت:

- شكلهم كانوا يحبوا بعض أوي!

- مافيش حد بيضحك كده غير لما يكون يحب..

- عرّفوني أروح فين.

أشارت إلى طرفة على اليسار يتفرّع منها تلّاث غرف:

- آخر أوضة..

دست الصورة في جيبي ومشيت في الطرفة باتجاه الباب المغلق، فتحته فصدمتني رائحة عطنة مكتومة قبل أن أضيء نور غرفة كانت غرفة معيشة! في اليمين كتبة متهالكة متزوّعة الكسوة مُقعرة من المتصلب، وفي اليسار حائط موشوم بمتالية شريف الرقمية ذاتها! مكتوبية ببنط كبير خلف مكتبة صغيرة خالية إلا من زهرية نبتها الصناعية ذبّلت وأصفرت، تكدرت الزجاجات البلاستيكية التي تميّزها آثار صُفْرة البول في ركن لن أطرقه، الركن الذي وجدوا فيه شريف، عرفته من بقايا دماء شرايينه التي لم تغادر السجادة، اقتربت من النافذة وفتحتها تهوية فصفع الهواء وجهي، تحاملت ونظرت إلى أسفل فضولاً، لو سقطت من هذا الارتفاع لتوقف قلبي قبل أن أصل نصف المسافة، ألم بي دوار فأغلقت النافذة والتفت للبني التي وقفت تتأمل الأرقام على الحائط:

- مش دي نفس الـ...؟

- هي.. واضح إن شريف بتراوله فكرة «OCD».. وسواس قهري يلتح عليه يكتب أرقام.. بيقى لها عنده مدلول إحنا ما نفهموش..

- حتى لو دكتور ما يقدرش يحس إن دي هلاوس؟

- ممكن يحس لو هلاوس، جلستين كهربا وأدوية تقدر نفصله عنها واحدة واحدة، المشكلة لو «Delusions».. ضلالات..

- إيه الفرق؟

- الهلاوس بتجي سمع، رؤية، وممكن حتى شم، إحساس مش حقيقي بخلقه المخ.. تروح أعراضه مع الأدوية، ولو بطل الجرعة ترجع له أعراضها تاني فيفهم المريض ويستوعب إنه مريض، لكن الضلالات أفكار مغروسة، مصدقها ويجادل اللي يعارضه فيها، بتأخذ وقت..

فتحت كامييرا تليفوني لأنقط صوراً للغرفة، وتعتمدت «اصدفة» أن التقط لبني في واحدة حين لاحظت أن المطالبة قرب حدود المكتبة نهايتها مبتورة، رقمين ناقصين تواريا خلفها، المكتبة تحركت عن مكانها المعهود، كما أن الظل الأصفر منثر حجب الشمس والهواء عن العائط متأخر عنها سنتيمترات، دامت أصابعه في الفراغ خلف المكتبة ويعزم قوته بدأت أحذبها، اقتربت لبني بدون أن تسأل وجذبت معي المكتبة التي صدتها السجادة فاهتزت للحظة كانت كافية لتسقط الزهرية محدثة دويًا وبالغاً فيه، تبعثرت أوراق الشجر البلاستيكية الباهتة بين أجزاء الإناء وكارت شخصي وتليفون محمول انفصلت بطاريته!!

- ده تليفون شريف !

قالتها وأنا أجمع أشلاء النوكيا .. وَضَعَتْ الشريحة وضغطت زر التشغيل فلم يستجب .. سكتة بطارية لن تسعفها سوى شحنة كهرباء ..

- التليفون ده طالما عدى على المباحث يبقى أكيد كان قاطع شحن قبل يوم الحادثة ..

- وإيه اللي جابه هنا؟

- مش عارف .. يمكن أخوكي خباء !
قرأت الكارت الشخصي ..

Buddha .. Tattoos designs..

اسم محل في مصر الجديدة لرسم الوشم، مذيل بعنوان ورقم تليفون ..

- ده لازم المحل اللي رسم فيه الـ «Tattoo» اللي على إيده ..
خرجت منها بمرارة، دسست التليفون والكارت في جيبه وأزاحت المكتبة لمسافة تسمح بمروري، المتالية اكتملت برقميها الناقصين كما كتبها شريف ..

انحنىت لأنقط بقایا كتاب حُشر بين المكتبة والحائط، كتاب مُهترئ، لغته عربية عتيقة، استعمل استعمال حدوة حصان قبل أن يُمزق جزئياً، ما تبقى من غلافه حمل عنوان «عجائب الآثار في الترجم والأخبار» لعبد الرحمن الجبرتي !! بالداخل كانت الكلمات

مُكَدَّسَة مَضْغُوَطَة بِالْكَاد تُقْرَأُ، وَهُوَ امْشَ منْمَنْمَة تُحِيطُ الصَّفَحَاتُ كِبِرُواز مُزْعِجٌ، حِينَ تَفَحَّصُتُ الْأُوراق عَثَرْتُ بَيْنَ الصَّفَحَاتِ عَلَى رَسُومَ مَتْقَنَة بِخَطِ الْبَدْ لِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ فِي أَوْضَاعٍ جَنْسِيَّةٍ تُشَبِّهُ أَوْضَاعَ كَامَا سُوتَرَا الْهِنْدِيَّة، طَوَيْتُ الصَّفَحَة خَجْلًا حِينَ عَلَقْتُ لُبْنِي:

- ده هش طبیعی!

- طبّيعي مع مريض سكيرز.. دِماغه مُمكِن توديه في أي حَتَّة..
أعرف ناس كانت بتحوش أعداد «طبّيك الخاص» بهستيريا عشان
باب الاستشارات الجنسية.. هاسأله عنها يمكن يفتح معايا كلام..
الحمام فين؟

السكري اللعين وشعيـر البـيرة يجعلـان مـئـانـتي لـمحـوـحة إـلـحـاح ذـبـابـة
لا تستـقر، إـفـرـاغـ نـهـري الأـصـفـرـ بـلـغـ في تـقـدـيرـي نـصـفـ مـتـعـةـ المـعـاـشـةـ
الـجـنـسـيـةـ! رـاـوـدـتـني ذـكـرـى مـُـراـهـقـتـيـ عـنـدـمـاـ كـنـتـ أـصـطـبـحـ مـجـلـاتـ
الـسـكـسـ لـلـحـمـامـ حـينـ لـاحـظـتـ آـنـيـ وـضـعـتـ الرـسـومـ الـجـنـسـيـةـ فـيـ جـيـبيـ
وـطـلـبـتـ دـخـولـ الـحـمـامـ فـجـأـةـ، «Which means» حدـثـ يـسـتـتجـهـ طـفـلـ
لمـ يـلـغـ!! تـمـنـيـتـ أـنـ تـفـقـدـ لـبـنـيـ الـذـاـكـرـةـ قـبـلـ أـنـ أـنـهـيـ بـثـ نـدـاءـ الطـبـيـعـةـ
حـينـ اـكـتـشـفـتـ أـنـ الـمـيـاهـ مـقـطـوـعـةـ وـمـحـبـسـ السـيـفـونـ مـكـسـورـ! سـأـتـرـكـ
وـرـائـيـ جـرـيمـةـ! بـحـثـتـ عـنـ مـنـدـيلـ وـرـقـيـ حـتـىـ عـشـرـتـ عـلـىـ وـاحـدـ فـيـ
جيـبيـ حـينـ لـاحـظـتـ خـرـانـةـ الدـوـاءـ الـمـعـلـقـةـ بـجـانـبـ الـمـرـأـةـ، فـتـحـتـهاـ
فـوـقـعـتـ فـرـشـاةـ أـسـنـانـ وـمـاـكـيـنـةـ حـلـاقـةـ وـخـمـسـ عـلـبـ «زـيلـورـكـ - ٣ـ٠ـ٠ـ»
مـنـ بـيـنـ خـمـسـ عـشـرـةـ عـلـبـ رـُـضـتـ بـعـنـيـةـ فـوـقـ بـعـضـهـا!! دـوـاءـ يـعـملـ
عـلـىـ سـحـبـ الـمـلـعـ منـ الـجـسـمـ! كـانـ ذـلـكـ حـينـ انـطـفـأـتـ عـيـنـايـ فـجـأـةـ
وـسـمـعـتـ لـبـنـيـ تـصـرـخـ!!

على طريقة برايل استرشدت مكان مقبض الباب، بتفاهمه وقلة عقل عاندني لا ينفتح حين سمعتها «يحيى؟؟؟» جذبت المقبض حتى انفتح عنوة، لم أعلم وقتها أنني نسيت. أمر الترباس، خرجمت أركض على ضوء المحمول الواهن ناحية الغرفة، دلفت من الباب أنادي لبني حين تعرّت في الكتبة لأسقط على رُسغي، طار التليفون مني وطار صوابي لما أتت استغاثتها الثانية من الغرفة المجاورة، تحاملت وقمت أتحسس الطريق وعيناي منفرجتان على آخرهما أستجدي نوراً..

- يحيى.. أنا مش شايفه حاجة..

- أنا جاي.. خلبيكي في مكانك..

ضرير تحست الجدران حتى عثرت على باب الغرفة، مددت يدي أمامي حتى لامست شعرها فوق كتفها، انتفضت رعباً فامسكت يدها، قربتها مني حتى سمعت نهيجها وشمت الأرجح الذي لم يغادرني يوماً..

بعضنا يعيش عمره حسرة على قطار فاته!

- أنت كويسة؟

- أنا عاوزة أمشي..

- إاهي.. النور قطع بس.. مش ممكن تنزل تلاتين دور على رجالينا! امسكي فيها..

تشبت بي بأنامل مُثْلَجة هاربة دماؤها وخرجنا من الطرقة إلى الصالة تتعثر أقدامنا في الكراكيب الملقة على الأرض، الشرفة بدت

أكثر حميمية لأنفصالها نظريًا عن الشقة، دخلناها نستقي بقايا نور
الشارع المشتت في السماء ونشرات قمر متآكل، دفعها الهواء كلعبة
بلاستيكية تترنّح وطير شعرها، غريزياً أصقت ظهرها بالسور تُحدق
بتربّق في الفراغ داخل الشقة كأعزل يَرْتَقِبُ وَحْشًا ضارّاً، وعيناها
الخضراوان منفرجتان على اتساعهما جوًّا للضوء، رَمْقَتْني فابتسمت
لها في استهانة صناعية أبْثَطَ الطمأنينة فيها، هدأت رعشة يدها قبل
أن تنسلّ أصابعها تدريجيًّا من كَفَّيْ حرجًا وتهرب بعينيها ناحية
أضواء القاهرة البعيدة، وقفّت بجانبها أتأمل ذلك المنظر المَهِيب؛
النهر العتيق يعكس نصف قمر مُرتعش على صفحاته، وصوت الريح
مُهيمٌ يصرخ في شعرها ويُعثّرُه قُرب وجهي، تتجنّبني عنوة وبيتنا
ألف كلمة تفور، دقّيقتان من الصّمت المدوّي مِرَا كـساعة قبل أن
يعود النور ومَعه لون وجهها، ظللنا على صمتنا لحظات حتى لفت
خصلتها خلف أذنها فوَفَرتُ عليها الارتباك..

- يَلَهُ بِينَا قَبْلَ مَا يَقْطُعُ تَانِي ..

كان ذلك حين أصدر تليفونها جرساً فنظرت للشاشة قبل أن
تُنهي الاتصال:

- دَهْ خَالِد.. أَصْلَهُ مَا يَعْرَفُشُ أَنَا فِينِ !

«خالد» في معجم «السان العربي» من مصدر «خُلُد» وتعني:

«خَالَدَ، يَخْلُدُ، خُلْدًا، وَخُلُودًا» أي بقي وأقام..

دوام البقاء في دار لا يخرج منها..

دوام البقاء مع أنسى لا يُفرغ منها.. لا يشبع منها..

لا أعرف إن كانت لغة الجسد خانتني أم أني في قراره تفسي
تمثّلت «بدناءة» رؤية ذلك التعبير في وجهها فرأيته؟ ملامح لبني
لم تبد مُسْتَرِّخَيَة وهي تنطق اسم زوجها، تقلّصت شفتاها لجزء
من الثانية كان كافياً بالنسبة لي لأنْ تقْطُهُ، اللعنة على لغة الجسد وما
تفعله في دارسيها! خرجنا إلى المصعد أتحسّ رُسْغِي الذي توَرَّم
وصدراً أحاط قلباً متلهي الصلاحية، هبّطنا من البروج المُشيدَة
صامتين وكادت تقبل الأرض شكرًا بإحساس نملة فلت من الدهس
قبل أن نركب السيارة، احتضنت ابنتها التي انفلقت بُكاءً ثم بحثت
عن شاحن لتليفون شريف لكن الثقب كان يحتاج شاحناً مختلفاً،
تَحرّكنا بالسيارة وبقياها كرامة لا زالت تستغرب المسافة بيننا، عيناي
تدفعان إليها مثل المياه على السد، بالكاد أصّدّها، لبني أيضًا تقاوم
فُضُولًا جعل قبضتها تعتصر عجلة القيادة! صرَفت شيئاً طيني وتابعت
الشوارع بشروق مُصطنع حتى وصلنا أمام بيتي بعدما أصررت على
توصيلي..

- تقلّت عليك ..

- بتهزّري !!

- خلّي المفتاح معاك يمكن تحتاج تروح تاني .. عندي نسخة ..
- أنا هاتابع شريف وأطمّنك .. قبل ما أنسى .. هو شريف أو بسمة
حدّ منهم عنده أملأح؟

- مش فاكرة حاجة زي كده!

- غريب .. أصل لقيت أكثر من عشرين علبة دوا للأملأح في

الحمام!! وأخوكي في نفس الوقت طلب ملح زيادة في أكله!!
.. ها خلّي تليفون شريف معايا.. عندي نفس الشاحن..
خدي بالك من نفسك.

- مشكرة يا يحيى..

رببي.. لم لم تخلق آدم بلا ضلوع؟!

تابعت سيارتها تبتعد، لوحت لي «هانيا» من الزجاج فابتسمت
ورفعت يدي بعفوية قبل أن تُواري نفسها في حُضن مُريتها الفلبينية
حتّى اختفت كشافات السيارة، لم أشعر برغبة في دخول شقتي،
سجّبته قدماي إلى عوني، الطريق ضيق لكنه يكفينا نحن الاثنين،
أنا وهواجسي، أنتقي علب السجائر وأوراق الشجر الجافة لأدهسها
بقدمي، صوت التهشيم يُشعرني براحة لم أعرف يوماً سببها، حاولت
ترتيب أفكاري لكن ضي القمر على عينيها، وملمس أناملها في كفي
وأربع شعرها جعلوا تحليلي مستاءً مُهلهلاً كضاعة صينية المنشأ،
أقاوم تشوّم «محترف» يتسلل إلى عقلي بشأن الأمر برمته، اللعنة
على الباب الذي افتحت على حياتي المستقرة الهدامة الميتة بخشوع
ناسك بوذى أبكم أطرش أعمى، كم أكره التغيير!!

خاصة حين يأتي حاملاً معه عِطرًا قدِيمًا لم تغادر رائحته صدرِي.

وصلت لعني وحيت الجالسين ثم صبيت لنفسي كأس «Jack Daniel's» قبل أن أقتنص مكاني وسط خمس فرائس سَيكونون سبيًا
في إعادة هيكلة أفكارِي، يحدث هذا دائمًا، بل وأبْيَت صافي الذهن
حين أفترِي على أحدهم وأحمله ثمن جوخ المنضدة والحسيش،
ذنب سأكفر عنه فيما بعد..

انزلقت في كرسي أقرب الأوراق في وجوه من حولي، وللأسف لم يكن من بينهم شاكر، العاجز جنسياً، سحبت أوراقه ونظرت فيها ويدأت الدورة، لم أعرف يومها إن كانت الكأس أفقدتني التركيز؟ أو أنا نلعب «شطرنج»، ولا أدرى انصف ساعة وتوقفت قبل أن أسحب وقفًا لتريف وصل خمسماة جنيه !!

تشتت قراءاتي كإبيرة بوصلة قرب مغناطيس وضربني الصداع تدريجياً حتى اختفت عيناي ولم أكن قد أنهيت كأسى الثالثة بعد، التقطت كيس سكر أفرغته تحت لسانِي وقمت مستأذنًا وسط الشماتات، صبحني عوني إلى الباب متسائلاً إن كنت على ما يرام، طمأنته بكلمات مبهمة لن أذكرها ثم رحلت..

حين وصلت البيت خلعت ملابسي وأعددت شريحة خبز بالتونة قبل أن يرن تليفوني برقم مايا، لا بد راغبة في استرجاع لباسها، أو ربما ترك واحداً آخر على سريري! لم أجده في نفسِي عزماً للمرد عليها، كما أتي في حاجة لحوار جاد والحوار مع مايا لا يأخذ أكثر من خمس دقائق ثم نصمت، لتحدث بطريقة برايل قبل أن تنشابك بالأيدي والأرجل في معركة تخسرها سوياً!

الله جعلها جارية حسناً؛ كما جعل بعض الزهور سامة، لكنها على أي حال أفضل بالنسبة لي من عروسة جنس بلاستيكية!

ضغطت زر كتم الجرس ثم أخرجت تليفون شريف، كان مطلباً بالخدوش كقباب في حمام بلدي، لكنه على أي حال يستخدم نفس شاحن محمولي، أو صلته بالكهرباء تغذية وضغطت زر تشغيله، تبع النوكيا بنغمته الرتيبة وأضيئت نصف الشاشة بضوء واهن بسبب

الشَّرخُ الْوَاسِعُ الَّذِي تَمَسَّى فَوْقَهَا، فَتَحَتَ قَوَافِلَ «اِسْتِبَالٍ وَإِرْسَالِ
الْمُحَادِثَاتِ»، فَوَجَدَتْهَا خَالِيَّةً، فَقَطْ قَائِمَةً «الْمُكَالَمَاتُ الْفَائِتَةُ» ضَمَّتْ
طَابُورًا طَوِيلًا مِنَ الْأَسْمَاءِ مِنْ بَيْنِهَا زَوْجَهُ وَأَخْتَهُ، شَرِيفٌ لَمْ يَجِبْ
مَتَّصِلًا لِمَدَّةِ شَهْرٍ عَلَى أَقْلِ تَقدِيرٍ! فَتَحَتْ قَائِمَةُ الْاِسْتُودِيوِ فَصَفَعَتِي
مُفَاجَأَةً جَعَلَتِي أَوْصَلَ التَّلِيفُونَ بِالْكَمْبِيُوتُرِ لِأَتَوَغَلَ فِي التَّفَاصِيلِ،
أَكْثَرُ مِنْ سَتِينَ صُورَةً لِبَسْمَةَ، عَارِيَّةً مُسْتَلْقِيَّةً فِي السَّرِيرِ! الْلَّقَطَاتُ مُقْرَبَةٌ
لِشَفَتِهَا، عَنْقَهَا، ظَهَرَهَا، سَاقِيَّهَا وَأَصْبَاعِ قَدَمِيَّهَا وَكَاحِلَّهَا، تَصْوِيرٌ عَاشِقٌ
يُقْبِلُ إِلَى الْأَرْضِ تَحْتَ قَدَمِيَّهُ أَفْيُونَتِهِ! بَدَتْ مُشِيرَةً رَغْمَ الْكَدْمَاتِ الْبَنْسُوجِيَّةِ
فِي جَلْدِهَا! تَلَتْهَا مَجْمُوعَةً صُورٌ لشَرِيفٍ مَعْهَا، يَقْبَلُهَا، يَلْعَقُهَا، يَنْهَشُهَا
وَيَمْتَصُّ رَحِيقَهَا، مُولَيَا وَجْهَهُ لِلْكَامِيرَا مِبْتَسِمًا بِفَخْرٍ مَسْؤُلٍ يَفْسَحُ
مُسْتَشْفِيَ أَطْفَالٍ، وَوَجْهَ بَسْمَةٍ شَارِدًا إِلَى سَمَاءِ الغَرْفَةِ، غَائِبَةً، يَقْظَةً رِبَّا
لَكُنُّهَا غَيْرُ وَاعِيَّةٌ، غَيْرُ مَبَالِيَّةٌ، لَا.. مُسْتَشْفِيَّةً! تَعْبِيرَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لَا تَؤَدِّيُ إِلَى
طَرِيقٍ! وَضَعِيَّةُ الْكَامِيرَا أَيْضًا بَدَتْ غَرِيبَةً، قَرِيبَةً، مَوْضِعَةً عَلَى مَنْضِدَةٍ
بِجَانِبِ السَّرِيرِ، وَمَمْسُوكَةً بِيَدِ شَرِيفٍ أَحْيَانًا، مِنَ التَّارِيخِ عَرَفَتْ أَنَّ تَلَكَّ
الْمَجْمُوعَةَ تَمَّ التَّقَاطُهَا عَلَى مَدَارِ أَسْبُوعَيْنِ قَبْلَ السُّقُوطِ! تَخَلَّلَ تَلَكَّ
الْمَجْمُوعَةَ صُورٌ لِبَنِيِّ قَدِيمٍ أَعْرَفُهُ! نَعَمْ أَعْرَفُهُ، الْمَتْحَفُ الْإِسْلَامِيُّ
بِبَابِ الْخَلْقِ أَمَامَ مَدِيرِيَّةِ أَمْنِّ الْقَاهِرَةِ! بَعْدَهَا مَجْمُوعَةً صُورٌ لِفَاتِرِيَّةٍ
عَرَضَ رُجُاجِيَّةً فِي الْمَتْحَفِ نَفْسَهُ اضْطُرِرَتْ لِتَكْبِيرِ مُحْتَواهَا، عَبَايَةً؟
جَلَابِيَّةً كَانَتْ أَقْرَبَ وَصْفًا لِلرَّدَاءِ الْمَفْرُودِ عَلَى مَاسُورَةِ بِيَضَاءِ، لَوْنَهَا
سَمْنِيٌّ فَاتِحٌ وَمُقْسَمٌ بِخَطُوطٍ عَرَضِيَّةٍ إِلَى مُرْبَعَاتٍ مَائِلَةٍ تَمْلِئُهَا مُرْبَعَاتٍ
أَصْغَرُ فَأَصْغَرُ مَمْلُوءَةً بِالْأَرْقَامِ، وَعَلَى الْأَكْتَافِ وَالْأَكْعَامِ لَرِيعُ دَوَائِرٍ
مَرْسُومٌ فِيهَا وَرْقَةُ شَجَرٍ سَدَاسِيَّةً! بِجَانِبِ بَعْضِ الْلَّقَطَاتِ لِكَامِيرَاتِ
مُراقبَةٍ وَنَظَامِ إِنْذَارٍ وَبَوَابَةٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا «الْطَّبُ»!

المتحف الإسلامي !!

بعد «عطل فني» في رأسي دام لحظات فتحت متصفح «Google» وكتبت «سرقة المتحف الإسلامي»، تجنبت الديياجات المنقوله بغشم حتى وصلت للخبر:

«... وقد أكد الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار أن المتحف قد تعرض للسرقة بالفعل أثناء فترة الانفلات الأمني، مُشيرًا إلى أن ما تمت سرقته هو قطع بسيطة وغير مهمة، قميص من الكتان يرجع للعصر العثماني وأطباق منقوشة بالزخارف، ونسخة من كتاب «عجائب الآثار في الترجم والأخبار» للجبرتي !! وعلى الرغم من أهمية المسروقات فإنها ليست بأهمية سيف السلطان الغوري وبونابرت التي سُرقت أثناء الترميم...».

ولم يذكر الخبر لم يمتلك شريف هذا الكتاب! وهل يملك باقي المسروقات !!

ضغطت سهم التمرير فأتنى الإجابة مع آخر صورة، شريف في مرآة الحمام مُتصلبًا يرمق انعكاسه مبتسمًا، ويرتدى القميص، قميص المتحف الإسلامي !! يده اليسرى المُزينة بالوشم تصوّب كاميلا التليفون للمرأة، وعيناه مُرخية وجروح الانتحار فيها تنزف الدماء! وتاريخ الصورة يشير ليوم محاولة تحليق باسمة الفاشلة!

شريف كان حاضرًا مُسجلًا لحظة فريدة؛ لحظة انتحاره، أمعنت النظر في الابتسامة المحفورة حول فمه مُحتلة جوانب شفتيه بقهر، ابتسامة تجمع الظفر بالضعف، حواجهه تصنع رقم ثمانية مُرتعشًا

هزيلًا، ورُسْغه يَعْتَصِرُ التَّلِيفُون بقوَةٍ نَفَرَتُ العروق، شريف انتهى
من تلك الصورة وألقى تليفونه في الزُّهرية البلاستيكية !!

أَسْدَلَتْ جفوني مِنْعًا لِعَقْلِي مِنْ لَضْمٍ هَوَاجِسِي بِبَعْضِهَا لَأَنَّ
الـ «Pullover» الَّتِي سَتَصْنَعُهُ سَيَكُونُ مُغْلَقًا مِنْ نَاحِيَةِ الرَّقْبَةِ، وَبِلَا
أَكْمَامٍ! لِمَاذَا صَبَرَ شَرِيف زَوْجَهُ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ؟ شَبَقَ مُبَالَغٌ فِيهِ
لِمَتْرُوْجٍ لَا بَدَاعَتْ دِرْحِيقَ أَمْرَأَتِهِ وَمَلَهَ كَعَادَتْنَا نَحْنُ الرَّجَالُ! تَصْوِيرُهُ
لِنَفْسِهِ وَالْجَرْحِ يَنْزَفُ؟! الثَّبَاتُ فِي مَلَامِحِهِ وَابْتِسَامَتِهِ؟! قَمِيصُ
الْمَتْحَفِ الإِسْلَامِي؟! الْكِتَابُ الْمَهْتَرَئُ بَيْنَ يَدِيَّ؟! صُورُ فَاتِرِينَةِ
الْعَرْضِ وَأَجْهَزةِ الإِنْذَارِ الَّتِي تَوْحِي بِمَؤَامَرَةِ؟!

الْأَغَازُ لَا مَحْلٌ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ وَمُسْتَنْقَعُ مَظْلَمٌ أَكْرَهَ الْخَوْضَ فِيهِ،
أَحْتَاجُ سِيجَارَةً مَحْشَوَّةً..

لَفَتَتْ وَاحِدَةٌ وَوَضَعَتْ يَدِيَ فِي جَيْبِي أَبْحَثَ عَنِ الْوَلَاعَةِ
حِينَ عَثَرْتُ أَنَّا ملِيَ عَلَى صُورَةِ الشَّاطِئِ الَّتِي التَّقْطَطَتْ مِنْ شَقَّةِ
شَرِيفٍ، أَشَعَلْتُ سِيجَارَتِي وَأَنَا أَتَأْمَلُ مَلَامِحَهُمَا، السَّعَادَةُ وَالْتَّوَائِمُ
لَا شُكُّ فِيهِمَا، الْفَسْحَكَةُ غَيْرُ مُصْطَنَعَةٌ، حَرَكَاتُ جَسَدِيهِمَا لَا تَكُلُّفُ
فِيهَا، وَالْوُشْمُ الْمُغْوِيُ عَلَى فَخَذِهَا الْيُسْرَى يُشَيرُ لِزَوْجَةِ لَدِيهَا
«Desserts menu» مِنْ مَائِتَيْنِ صَفَحَةٍ.. مِنْ أَجْلِ زَوْجِهَا..

الْوُشْمُ!

التَّقْطَطُ دُوْسِيَّ شَرِيفٍ وَقَلَّبَتْ صَفَحَاتَ تَقْرِيرٍ بِسَمْمِ الْجَنَانِيِّ حَتَّى
عَثَرْتُ عَلَى الْفَقْرَةِ: «... كَمَا تَبَيَّنَ حَدُوثُ قَطْعٍ دَائِرِيٍّ مُشَرَّدَمْ (قَطْرُ 5
سَمٌّ) أَعْلَى الْفَخَذِ الْيُسْرَى، يُشَيرُ تَطْوِيرَهُ الْأَلْتَانِيِّ إِلَى كَوْنِهِ جَائزَ الْحَدُوثِ
مَا بَيْنَ أَسْبُوعٍ إِلَى عَشْرَةِ أَيَّامٍ، نَتْيَاجَةُ سَلْخِ الْجَلْدِ بَآلَةٍ حَادَّةٍ!!».

لقد أزيل وشمها! سُلّخ بالآلة حادة! أضفت لتريري ملحوظة «نزعه
سادية» قبل أن أقرب الصورة لعيني، لم أستطع تبيّن الرسم جيداً، ربما
ثلاثة خطوط متقطعة تصنع شكل وردة بسيطة!!

توقف عقلي بعدما امتص السُّكَّر من دمي، دَسَست الصُّورة في
الملف الجنائي وتركـتـ تليفـونـ شـرـيفـ الجـائـعـ يـكـملـ وجـبـتهـ الـكـهـرـيـةـ
قبل أن أنزلـقـ فيـ الكرـسيـ أـقـلـبـ الصـورـ عـلـىـ شـاشـةـ الـكـمـبـيـوـتـرـ معـ
زـجاـجـةـ «Meister».. حتى اختفتـ معـالـمـ الغـرـفـةـ..

قبلـ الشـروـقـ تـبـهـتـ..

قمـتـ منـ فوقـ لوـحةـ المـفـاتـيـعـ التيـ حـفـرـتـ أـزـارـاـهـاـ فـيـ رسـغـيـ،
عـقـلـيـ مـسـنـونـ فـيـ قـمـةـ تـرـكـيزـهـ كـمـنـ نـامـ عـامـاـ، الشـاشـةـ كـانـتـ تـعـرـضـ
صـورـةـ شـرـيفـ فـيـ المـرـأـةـ، حـينـ أـطـلـتـ النـظـرـ لـمـحـتـ خـيـالـاـ مـهـزـوـزاـ
لـجـسـمـ يـقـفـ خـلـفـ شـرـيفـ لـمـ أـكـنـ قـدـ لـاحـظـتـ أـوـلـ مـرـةـ، جـسـمـ أـسـودـ
يـتـكـئـ عـلـىـ أـرـبـعـ قـوـائـمـ، شـكـلـ أـقـرـبـ لـكـلـبـ! كـلـبـ أـسـوـدـ!! قـبـلـ أـنـ
أـضـغـطـ (+) عـلـىـ لوـحةـ المـفـاتـيـعـ لـأـزـيدـ تـكـبـيرـ الصـورـ شـعـرـتـ بـهـ
قـدـ تـحـرـكـ.. نـحـويـ! هـنـاـ اـنـتـابـتـنـيـ الرـعـشـةـ، تـلـكـ الـبـرـودـةـ التـيـ تـعـرـيـكـ
حـينـ تـدـرـكـ أـنـكـ لـسـتـ وـحدـكـ فـيـ الغـرـفـةـ، وـتـنـصـبـ شـعـرـ جـسـدـكـ
كـجـمـهـورـ اـسـتـادـ يـصـنـعـ مـوـجـةـ تـشـجـعـ! لـمـ يـكـنـ الـانـعـكـاسـ خـلـفـ
شـرـيفـ، الـانـعـكـاسـ كـانـ خـلـفـيـ! اـنـتـفـضـتـ لـأـجـدـهـ وـرـائـيـ، بـحـمـرـةـ عـيـنـيـهـ
يـحـدـقـ فـيـ غـلـاـ وـالـزـبـدـ يـنـسـالـ مـنـ شـدـقـيـهـ، أـنـفـاسـيـ اـنـسـجـتـ بـلـارـجـعـةـ،
ضـربـاتـ قـلـبـيـ فـقـدـتـ إـيـقـاعـهـاـ وـالـعـرـقـ أـغـرـقـنـيـ فـيـ ثـانـيـةـ، كـنـتـ أـعـرـفـ
أـنـ أـيـ حـرـكـةـ كـفـيـلـةـ بـتـسـيـلـيـ كـصـدـرـ فـرـخـةـ، كـمـاـ كـنـتـ أـعـرـفـ أـنـ تـلـكـ
الـزـيـارـةـ قـدـ تـعـوـضـ اـسـتـعـجـالـهـ فـيـ زـيـارـتـهـ الـأـولـىـ، بـحـثـتـ عـنـ شـيـءـ فـيـ

نطاقٍ مِنْ أَذُودَ بِهِ عَنْ نَفْسِي، مَضْرِبُ ذِبَابٍ، كِتَابٌ، وَزُجَاجَةُ الْبَيْرَةِ
الْفَارِغَةِ! الْأَخِيرَةُ كَانَتُ الْأَكْثَرُ مَنْطَقِيَّةً، حِينَ أَلْقَيْتُ كُفَّيْ لِأَلْتَقْطُهَا كَانَ
ذَلِكَ مَتَّخِرًا ثَانِيَةً عَنْ تَحْرِكِهِ، قَبْلَ أَنْ أَصِلَّ لِعَنْقِهَا كَانَ بِالْفَعْلِ قدْ قَفَزَ،
بِرَدَّةِ فَعْلٍ لِإِرَادِيَّةٍ وَارِيتَ وَجْهِي بِيَدِي وَانتَظَرْتُ بَرَائِنَ، تَلِيهَا أَنِيَّابَ،
لَكِنِي تَلَقَّيْتُ شَظَّا يَا زَجَاجَةَ الـ «Meister» فِي مَشْطِ قَدْمِي! كَانَ ذَلِكَ
مَا أَسْقَطْتُهُ بِصَوْتِ مَسْمُوعٍ حِينَ قَمَتْ مَلْسُوعًا مِنَ النَّوْمِ..

صَبَاحُ الْيَوْمِ التَّالِي..

خَنْجَرُ غُرْسٍ فِي ظَهْرِي غَدَرًا وَصَمْعُ عَرَبِيٍّ اسْتَبَدَّ الدَّمُ فِي
عُروقِي، التَّفَتَ خَلْفِي حِيثُ كَانَ يَقْفَ ضَيْفِي الْفَاجِمُ، ضَيْفِي الَّذِي
رَحَلَ قَبْلَ أَنْ أَسْتِيقْظَ، اخْتَلَجَتْ عَيْنَايِ لِلْحَاظَةِ وَمَرَّتْ بِجَلْدِي قَشْعَرِيرَةٌ
مِنْ أَثْرِ التَّهْدِيدِ!! لَمْ أَسْتَطِعْ هَضْمَ الْفِكْرَةِ! هَلْ مَا تَلَقَّيْتُهُ تَهْدِيدٌ؟
جَرَجَرْتُ نَفْسِي حَتَّى الْمَطْبَخَ أَقَاؤُمْ نُورَ الشَّمْسِ «نَجْمٌ أَصْفَرُ كَبِيرٌ..
لَا يَفُوتُكَ..»، الَّتِي تَجْوُلُ فِي الشَّقَّةِ كَأنَّهَا شَقَّةُ أَيِّهَا، تُصْلِي عَيْنَيِّ نَازِرًا
لَا أَتَحْمَلُهَا، رَشَقْتُ الْحُقْنَةَ فِي عَضْدِي وَضَخَّخْتُ أَنْسُولِيَّنِي تَحْتَ
الْجَلْدِ قَبْلَ أَنْ أَرْتَشِفْ قَهْوَةً وَأَسْحَبْ لِرَتِي مَلِيجَرَامَاتِ الْنِيكُوتِينِ
مَعْ بَقَايَا بِيَتْرَا شَبَهَ حَامِضَةً سَخْنَتْهَا فِي الْمَحَمَّصَةِ ثُمَّ ارْتَدَيْتُ مَلَابِسِي
وَوَضَعْتُ تَلِيفُونَ شَرِيفَ فِي حَقِيقِيِّي، حِينَ هَمَّمْتُ بِالرِّحِيلِ زَلَّتْ
قَدْمِي لِلْحَاظَةِ كَدَتْ أَهْوَيِ فِيهَا عَلَى طَرْفِ الْكَرْسِيِّ قَبْلَ أَنْ أَسْتَعِيدَ
تَوازِنِي، انْحَنَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ أَلْتَمَسَ مَا مَيَّعَهَا فَوَجَدْتُ بَقْعَةَ سَائِلَةَ
شَفَافَةً، بَاشْمَتْرَازَ لِامْسَتْهَا بِسَبَابِتِي، لِزِجَّةٍ مُقْزَّزَةٌ، رَفَعْتُ إِصْبَعِي إِلَى
أَنْفِي، الرَّائِحةُ كَانَتْ كَرِيَّةً لَا تَأْتِي إِلَّا عَنْ بُولٍ أَوْ.. لُعَابٍ!!

طوال الطريق لشارع «المَرْصَد» بحلوان حاولت طرد الفكرة من رأسي؛ فكرة أن ذلك السود قد ترك تذكاراً على أرض غرفتي، يُطاردني وجهه مُطاردة الأغاني العتيبة الإيقاع التي تلازمك حتى الانهيار، لم يبدِ صورته سوى وصولي مستشفى «بِهْمَن» النفسي، تربض بلونها البنفسجي الراائق مغروسة بين الخُضرة، نزلت أمام الباب المَنْقوش بـ«BH» مَجَدُولين، تمشيت وَسْط السُّكُون حتى وقفت أمام فتاة استقبال سألتها عن اسم شريف الكريدي، اضطربت معالمها لما ذكرته:

- هو مشي من فترة.. حضرتك قريبه؟

- لا.. ممكِن أقابل حد من الـ«Staff» اللي يعرفه؟

استريح خمس دقائق..

قرصني الملل رُبع ساعة، مررت خلالها سيدة عجوز اغتصبها الزمن ولا يزال، جالسة على كُرسي مُتحرك يدفعها مُمْرَض، لما أصبحت أمامي رمقتي بمقلتين جاحظتين مشمئتين، ثم ابتعدت ورأسها تلف ناحيتي تابعني قبل أن تخفي في ممر! أي مرض نفسي قد يصيب سيدة بتلك السن! انتفضت حين وضعت فتاة الاستقبال يدها على كتفي تتشلني من شرودي..

- Sorry - عَمَالَةُ أَنْدَهُكَ مُشَّ وَاحِدٌ بِالْكَ.. اتَّفَضَلُ.. تَانِي
بَابُ شِمَالٍ.

تمَشِّيْتُ ثُمَّ طَرَقْتُ وَفَتَحْتَ..

مَكْتَبَةً مَتَخَمَّةً بِالْمَرَاجِعِ وَمَنْظَرٌ طَبِيعِي فِي شَبَاكٍ عَرِيفٍ وَرَجُلٍ فِي
الْعَقْدِ الْخَامِسِ يَجْلِسُ خَلْفَ نَظَارَتِهِ، أَبْدِيَ عَدْمُ ارْتِيَاحٍ وَهُوَ يُصَافِحُنِي
بِابْتِسَامَةٍ لَمْ تَصْعَدْ مِنْ حَيْزِ الشَّفَاهِ إِلَى الْعَيْنَيْنِ، سَرِيعًا أَسْعَفَتِي قِرَاءَةُ
تَفَاصِيلِهِ، دَبْلَةٌ فِي يَسَارِهِ، شَفَتَانِ مَذْمُومَتَانِ فِي تَوْتَرٍ لَا يُظْهِرُانِ أَسْنَانَهُ،
نَظَرَاتُهُ تَمَسَّحُنِي بِسُرْعَةٍ وَجِبَهَتُهُ مُتَشَبِّجَةً..

رَبُّ أَسْرَةٍ مُتَحَفَّظٌ كَثِيرُ الشُّكِ..

- يَحْسَنُ رَاشِدُ.. «Psychiatrist» فِي الْعَبَاسِيَّةِ..

- صَلَاحُ رَجَائِي.. «Consultant Psychiatrist»..

لَمْ يَدْعُ عَلَيْهِ اِنْفَتَاحٍ وَلَا فَكَّ اِشْتِبَاكٍ أَصَابَعَ يَدِيهِ إِلَّا لَمَّا حَكِيتُ عَنْ
شَرِيفٍ كَـ(مَتَهُمْ) وَصِفَتِي كَطِيبٌ مُقِيمٌ لِحَالَتِهِ، وَلَمْ أَذْكُرْ بِالْطَّبِيعِ
عَلَاقَتِي الْخَصِّيَّةَ بِهِ..

- فِي آخِرِ أَيَّامِهِ هُنَا كَانَ غَرِيبًا..

- إِزَّايِ؟

- شَرِيفٌ بِطَبِيعَتِهِ كَانَ بِيَهُمْ بِنَفْسِهِ.. شَيْكٌ.. لَكِنْ بَدَأْتُ أَلَاحِظُ
عَلَيْهِ إِهْمَالًا.. صَحَّتُهُ كَمَانْ بَقَتْ فِي النَّازِلِ.. أَنَا شَخْصِيًّا شَكِيْتُ
إِنَّهُ يَسْتَعَاطُ حَاجَةً.. كَلَمَتَهُ مَرَّة.. مَا فَهَمْتُشُ مِنْهُ حَاجَةً فَمَارَضَيْتُشُ
أَلْفَتُ النَّظَرَ.. بَسَ الزَّمَلَاءُ لَا حَظُوا.. شَرِيفٌ لِغَايَةِ هُنَا كَانَ يَعْمَلُ

شغله صَح.. لغاية ما في يوم قعد مع مريض.. فجأة سمعنا المريض
يصرخ في هستيريا فظيعة..

- إيه المشكلة؟

- المشكلة إن المريض ده كان حالة «Catatonic Schiz» من
٥ سنين.. ما بينطقش كلمة وما بيتحرکش.. بمعنی البساطة لقينا
قلم رصاص مغروز في أيده!

- شريف هو اللي غرزه!!

- يعني المريض فجأة فاق بعد خمس سنين تبیس وغرز القلم
في نفسه!

- المريض ماكاش مريض؟!

- لا طبعاً! الحالة بتعالج هنا من سنين.. وبعد ما بعدها شريف
عنّه اتبیس تاني..

- وبعدين!

- مجلس المستشفى لما قعد مع شريف ما قدروش يفهموا
تصرّفه.. بمعنی البساطة شريف بقى خطراً.. اضطروا يفصلوه..

- تشخيصك إيه؟

- شريف كان زميل مش عاوز أخوض في سيرته.. لكن فيه حاجة
في عينيه بتخليني مش مقتنع بأنه مريض.. الموضوع حصل بسرعة
غريبة يمكن في أقل من شهر ونص.. May be أكون ظالمه.. بس
تعالي نقول إن أقرب حاجة «Latent Schizophrenia».. كامنة

من فترة ما حدث كان ملاحظها وطلعت دلوقي.. وممكن يكون
ـ ضاغط على منطقة معينة و... «Tumor»

ـ مافيش ورم..

ـ لكن فيه «Schizoparagraphia».. مجنون بالأرقام.. شريف
لما مشي لقينا كمية ورق مهولة ورا الباب مليانة أرقام.

ـ الورق لسه...؟

ـ لا طبعا.. رميته.. لكن.. فيه ورق دبلومة كان بيذاكرها نسيه لما
مشي.. أعتقد لستة موجود..

ـ ممكن أشوفه؟

استدعى الدوسيه مع أحد العاملين ووضعه بين يدي.. العنوان
كان:

دراسة عن لغة الجسد «Body language and schizophrenia»
والسكيزوفرينيا !!

قرأتها مرتين. قبل أن أبحث عن ترجمة أسفل الشاشة تزيلوني
توضيحا، صدفة واحد في المليون أن يختار شريف نفس المجال
الذي درسته ليبحث فيه، قلبته الدوسيه بحثاً عن بصمات شريف
الرقمية فلم أجده غير ديراجات أكاديمية منظمة آخرها كان قبل سنة
من القضية.

ـ شريف ما حكاش عن مشاكل مع مراته قبل كده؟

ـ بصراحة ما أعرفش.. شريف كان كثوم.. مش يبحكي بعد
أسراره.

رجع بظهره إلى الكرسي وبسط كفيه على المكتب فلعلمت أنه نَضَب، شَكِرْتَه على وَقْته وفهوَه وسَوالفه البيضاء «المنكوشة» التي أزعجتني طوال الجلسة قبل أن أقفز في تاكسي، طلبت من السائق إخراص فردة العجزمة الذي يغنى في الكاسيت قبل أن أغوص في الكتبة الخلفية ألمِّم أفكارِي..

علامات المرض على شريف جاءت سريعة، تصرفاً ته حادة وصلت للاعتداء الجسدي رغم ما شاهدته في صور تليفونه من عشق ورغبة، ينكر ما فعل؛ الإنكار!! احتمالات جرائم العنف الجنسية المرتبطة بالفصام نادرة إلا أنها موجودة، ونسبة ظهور العنف بين المرضى أقل من ظهور العنف لدى الأشخاص الطبيعيين، ذلك لا ينفي أن مريض الفصام غير المتنظم في علاج أو المُهمَل من قبل أسرته أو المصاب بال النوع الهيبيفرى قد يكون لديه أحياناً نوبات اندفاعية تظهر في صورة عنف أو اعتداء على الآخرين، وهي حالة غير قابلة لإيذاء نفسها على عكس مريض الكتاب الذي قد يسعى للانتحار، إلا أن شريف حاول إنهاء حياته!!

(.....)

تستطيع أن تضع بين الأقواس كل علامات الاستفهام التي تنزعك ..

خرجت من التاكسي إلى المستشفى مُبللَا كمن لم يدخل سجارة الصباح، طوال طريقي إلى ٨ غرب حاولت استكمال قطع اللغز المتناثرة، أبحث عن وجه بلا معالم، جلست إلى مكتبي ووضعت ملف شريف أمامي حين تذكرت زميل «بهمن» ذا السوالف البيضاء لما تحدث عن وجود ورم في مُخ شريف يضغط على...!

أخرست صوت أفكارِي وأخرجت أشعة شريف ورفعتها إلى
نور الغرفة وأنا أبىش معلوماتي المتأكّلة عن شيء لن يظهر في أشعة
عادية.. بؤرة؟ بؤرة صرع بلا بصمات؟

صرع الفص الصدغي !!

أحتاج مرجعاً، فخمس سنوات من عدم الممارسة قادرة على محو
الطب من رأسي، خرجت من ٨ غرب ركضاً إلى المكتبة، بحثت
بين الكتب في أنواع الصرع حتى عثرت على صفحة صرع الفص
الصدغي، بؤرة في فص المخ تُشعل الجنون اشتئالاً، تعطي نفس
أعراض المرض النفسي، ينفصل المريض عن الواقع لثوانٍ وربما
دقائق، يفعل فيها ما يفعله قبل أن يعود لوعيه جاهلاً تماماً بما حدث
فأبداً للذاكرة كلياً، الأعراض تتطابق بنسبة ٩٠٪ مع سلوك شريف،
هلاوس سمعية وبصرية، نوبات عنف مع من حوله، اضطراب اللغة،
كتابة بشكل قهري مكتف دون توقف.

أمل ضعيف.. لكنه مثالي..

رجعت ٨ غرب وقبل أن أجلس في غرفتي طلبت عمل رسم مخ
لشريف.. في متصرف قهوتي دخل سامح وأغلق الباب.. جلس على
الكرسي أمامي للحظات ثم زفر..

- أنت طالب رسم مخ لشريف؟

- آه.. شاكك في صرع؟

- مافيش نوبات !!

- ..«TLE» ..

- صرع الفص الصدغي ! بعيدة.. أنا باقول إته واحد بيرسم جريمة كاملة.. عامة رسم المخ هايبين.. عندك أكاونت على الـ «Facebook»

- ماليش فيه..

- يا راجل ! فيه حد ما عندوش دلوقي !! أنت دفعه ٩٩ مش كده؟
هززت رأسني إيجاباً..

- علي شعبان كان دفعتك؟
مش فاكر..

- علي شعبان! التخين شوية ده أبو نمش في وشه..
آه.. علي.. افتكرته..

- أصله بقى عندي علي الفيس بوك.. اصلع وخلف بنتين..
سلم لي عليه.. عقبالك..

- حاطط صور لدفعتكم في رحلة الأقصر وأسوان.. وألاقي لك
مین تخیل؟

قرأت اكتشافه مبكراً فاتخذت قراراً تاريخياً بحرق مراكبه قبل
أن تصل شواطئ..

- شريف الكردي؟
أذهله كشفي لأورافي..
أنت عارفه بقى كويس !!

- كان صاحب علي شعبان.. بس ما كانش صاحبي..

- غريبة.. أنت واقف جنبه في سبع لقطات أكـنك أنتيم ! أنا افتكرتك صاحبه.. أصل أمانة الصحة مشددة الأيام دي على موضوع المـعارف في ٨ غـرب... و...

- قلت لك ما أعرفوش.

قبل أن يُكمل سامح ابتسـاه فـتح مـحسن الـباب بـغـة يـنهـج كـمـن تـسلـق جـبلـا..

- دكتور.. عندنا مشكلـة في عنـبر (أ).

رغم استبعادي شـريف لم أفهم الـهاـجـس الذي جـعـلـني أـقـفـز من فوق مـكتـبي، خـرجـنا إـلـى الـطـرـقـة رـكـضـا حتى بـاب العـنـبر، المتـهمـون كانوا يـلـتـفـون حول نقطـة قـرـب آخر سـرـير، سـرـير شـريف.

دلـفـنا في سـرـعة يـتـقدـمـنا نقـيب وعـسـكـريـان وـثـلـاثـة مـمـرـضـين أـفـسـحـوا الطـرـيق أـمـامـي وـسـامـح، لـمـا فـرـقـوا الـوـاقـفـين رـأـيـته مـلـقـى عـلـى الـأـرـضـ، متـهمـ يـنـادـونـه «فوـكس»، تـسـفـضـ أـطـرافـه وـيـنـهـمـ الدـمـ منـ آـنـفـهـ فيـ غـلـيـانـ إـبـرـيقـ يـُـبـقـيـقـ، صـرـخـ سـامـحـ فيـ الـمـوـجـوـدـيـنـ بـشـكـلـ مـسـرـحـيـ ليـتـعـدـوا قبلـ أـنـ يـنـحـنـيـ عـلـيـهـ يـتـفـحـصـهـ، ثـوـانـيـ وـأـتـىـ الـمـمـرـضـوـنـ بـمـنـاشـفـ لـسـدـ التـزـيفـ، بـحـثـتـ بـعـيـنـيـ عـنـ شـرـيفـ فـوـجـدـتـهـ جـالـسـاـ عـلـى طـرـفـ سـرـيرـهـ مـوـلـيـاـ وـجـهـهـ لـلـنـافـذـةـ فـيـ سـلـامـ !

حقـناـ «فوـكس» بـمـضـادـاتـ التـزـيفـ وـنـقـلـنـاهـ إـلـى غـرـفـةـ جـانـيـةـ حتـىـ توـقـفـ الـفـيـضـ الـأـحـمـرـ بـعـدـمـاـ تـرـكـ بـقـعـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـرـائـحةـ عـرـوقـ اـحـترـقـتـ مـنـ الدـاخـلـ، لـمـا اـسـتـقـرـتـ الـأـمـورـ سـجـبـتـ مـحـسـنـ فـيـ رـكـنـ لـأـسـأـلـهـ عـمـاـ حـدـثـ.

- والله يا دكتور ما شفت.. فوكس ده أصله زي القرد ما يقعدش..
غبت عنّه دققتين لقيته مفرفرا!

استعاد فوكس وعيه ببشرة لون التراب وعينين زانغتين.. اطمأن عليه
د. كيلاني بنفسه قبل أن يسأله عما حدث، بصوت واهن أجاب:

- أنا قاعد لقيت القطة على سرير الزفت شريف..

- قطة!! إيه اللي دخل قطة العنبر؟!

سأل د. كيلاني قبل أن يقذف المُمْرِض محسن بنظرة أردته
«مخصوصاً منه الحواجز» مقدماً..

- من شباك الحمام المكسور، قطة غيّتها القسم بقى لها كام يوم،
أهي بتسلينا، ببس لها لقيت بعيد بيحلق لي أوّي أكّنه اشتراها،
باقول له إيه يا عمّ وأنا هاكلها، فضل متّح لي يعنيه المفنجلة دي،
قمت أقلبّه، أهو بفضفضن بدل ما حانا قاعدين، باسأله الوشم اللي
على إيدّه ده دقة فين، فضل متّح، بحط إيدي على دراعه وعهد
الله باشوف «الدق» بس، قفش على إيدي وراح زاغدني في رقبتي
ويعدين ما حستش بروحـي..

تابعت رقبته وهو يتكلّم، كانت محتجنة لأنّ باباً قد انغلق
عليها..

- ورحمة أبويا ما هاسيـه..

- فوكس.. لو قربت له هاحجزك في العزل متكتف أنت وهو..
مفهوم.

قالها د. كيلاني بحزم ثم سَحْبِني وسأمح خارج الغرفة ليلاً كزنا بوعظ مدرسي في المسئولية، حاول سامح دفع التهمة عن نفسه بكلمات وتفتفة وعَرَق على الجبين، واكتفيت أنا بالصمت حتى تقىأ الرجل طاقتة الإنسانية وطلب مني تحقيقاً مع شريف حول الواقعه، عُوقب المُمَرّضون بخصم يومين من الأجر لإهمالهم، وتم غلق الثغرة في شباك الحمام بالأسمنت، ولم يُعثر للقطة على أثر!

اضطررت لإبعاد شريف مؤقتاً عن العبر، غُرفة العزل بدت مَكَانَا مناسِباً حتى لا يعتدي عليه «فوْكس» انتقاماً، غرفة ضيقة مبطنة بالإسفنج والجلد مخصصة لحالات الهياج الشديد، لن تجد فيها شيئاً لتؤذي به نفسك إذا نويت..

جلست في غرفتي أنتظر رسم المخ، خمس وأربعون دقيقة ثم حضر مُمرض يصحب شريف وتقريراً تحت إيطه، أجلس شريف فيما فتحت التقرير الذي نفى وجود بؤرة صرعية لكنه أشار لزيادة عامة في نشاط المخ لا تدخل في حيز الخطر..

خرج صَرَع الفص الصدغي من التصفيات! وضاقت الغرفة على شريف مترين إضافيين..

حين أنهيت قراءة التقرير ورفعت عيني لم أجد شريف على كرسيه، كان واقفاً ظهره للحائط تحت الشبّاك يرمضني بابتسامة أراها لأول مرّة!

- ما تقدّم يا شريف!

لم يستجب لندائي..

- شريف !!

نظر لي ثواني ثم أجابني:

- شريف خرج.

- نعم !!

- خرج !

- مين اللي خرج ؟

- شريف.

يدا شريف منبسطة بجانبه متفرجة الأصابع ووجهه مُستريح ..
ظاهرياً هو لا يكذب.

أمر عادي .. فقط هو ينفي وجود نفسه !!

- أمال أنت مين ؟

- صديق.

- والصديق ده ليه اسم ؟

- ممكن تناديني .. نائل.

- نائل !!

رمضني بيقين وابتسم ..

- أوكي .. يا نائل.

شريف يدفعني دفعاً إلى حائط خرساني مليء بالمسامير .. اقتربت منه .. سبابته لم تكف عن الدوران كما لم يتوقف مُخفي أيضاً ..

- أنت اللي كنت معانا دايماً في الأوضة؟

هز رأسه في إيجاب ثم ابتسم وهو يسألني:

- لسه بتحبها؟

- هي مين؟

- لبني؟

باغتني السؤال.. تعرّقت رغم تحكمي وأنا أتابع نشاطه عينيه..

- ما أنت عارف! لبني زي اختي..

ابتسم بخبث:

- وكنت عاوز تتجوز اختك؟

- دي قصة قديمة وانتهت..

- الكدب!

- أنا مش كذاب..

- دي كدب.. ما فيشبني آدم ما ييكدبش.. وبعد مدة حتى الحقيقة

بتبقى كدب!

بادلته الابتسام.. فأنا آخر من تقال له تلك الكلمات..

- ضربت فوكس ليه؟

- فيه ناس بتتأذى نفسها بنفسها..

قالها ومال برأسه يتأملني كمن يتأمل سمكة زينة في حوض زجاجي..

- كنت بتحب مراتك؟

شخص ما ثرثَر عن تاريخي أمام نزيل! سأنتزع أحشاء الواشِي
على انفراد حين أتأكد من هوّيَّته.

لم أجب.. فأردف شريف:

- أنا وترتك؟

- أنت اتكلمت مع سامح؟

- كنت بتحبها؟

حاولت الحفاظ على هدوئي بصعوبة..

- أكيد.

- أكيد إمبارح.. جايز بكرة!!

- أنت اللي قتلت بسمة؟

- أجوابك.. بس بقواعد اللعبة.. سؤال قصاد سؤال.

- ماشي.. أنت اللي قتلت بسمة؟

لوي شفتيه بابتسامة:

- تقدر تقتل حد بتحبّه؟!

- دي مش إجابة.

- أنت عارف الإجابة بس مش عاوز تصدق.. بتدور على مخرج
لصاحبك.

- لو صاحبي قتل مش هاتردد أكتب في تقريري إنه كذاب..

- ومستني إيه ما هي باینة زي الشمس.. ولا عشان خاطر لبني؟

- لبني مالهاش دعوة بالموضوع..

- تنكر إنك ما نستهاش يوم واحد؟ تنكر إن هي اللي بوّظت لك جوازك وحياتك؟ تنكر إنك عاوز ثبت نفسك قدّامها؟ توّريلها إنك أحسن واحد كنت يستحقها؟!

- ليه ما تقولش أساعدها؟

- مساعدة! بنسبة كام؟ أرجوك ما تقولش %.١٠٠.

....

- لسة حلوة لبني.. مش كده؟

الإجابة لم تكن متاحة سواء بالإيجاب أم بالرفض!

- مش ممكن تكون عينك فوتت صدرها وهي بتقعد.. ولا فخادها وهي بتركب العربية.. ده جزء من الإعجاب بالأنا.

قالها وهو يتبع انفعالي الذي جاهدت في كتمه..

- مش أنا.. ومش مع لبني يا شريف.. أنا لما كنت عاوز أختك كنت بيص لها باحترام.

- ماحدش بيص لواحدة عاوزها باحترام.. لو ما كتتش جبتها من فوق لتحت ما كانتش عجبتك.. خمسين في المية من نيتك لازم تعيد النظر فيهم.

- أنا عارف نفسى كويّس.

- أنت ما تعرفش عدد الأسنان اللي في بقك؟

- اتنين وتلاتين.. مين اللي قتل بسمة؟

- صاحبك.

- وشريف يعمل كده ليه؟

- ومن الحب ما قتل! قول لي.. الحادثة حصلت إزاي؟

لم أستطع كم انفعالي..

- دي حاجة مش بتاعتك.

- دكتور النفس الصبح ما بيترفتش.

لم أكن ملزماً بالرّد لكنني مجبر على مُسايرته..

- اللي حكى لك أكيد ما فوتش دي.

- التفاصيل.. أنا باعشق التفاصيل.

حاولت التوقف عن هزة قدمي العصبية..

- اتقلبت بينا العربية.. أنا عشت.. وهما ماتوا.. قدر.

- قدر سرعته ١٦٠.. الكحول بيعمل المعجزات.

الآن أدركت شعور آدم حين التقط ورق الجنة ليداري عورته..

- يعني إيه؟

- ساعات الكحول بيتكفل بحل مشاكل مالهاش حل.. ساعات الكحول بيبقى عامل زي القدر.. ما ينفعش نقول له لا.

- أنت مالكش تتكلم في الموضوع ده..

- ما تناكرش إن فيه حاجة جوّاك ارتاحت..

- مين اللي اتكلّم معاك؟

- واحد حبيبك..

- ساميح؟

مال برأسه وابتسم معلناً أنه لن يفشي اسم الواشي، كدّت أكسر طرف ضرسي غيظاً قبل أن أسأله:

- كنت موجود يوم ما ماتت بسمة؟

- صاحبك كان معاها لآخر لحظة.. أسأله..

قالها ولانت فقرات عنقه دفعه واحدة فسقط ذقنه على صدره..

- شريف! شريف!!

بيطه رفع رأسه.. نظر لي بعينين زائفتين كأنه يَراني لأول مرة..

- شريف! مين اللي دائمًا معاك؟

تبذلت ملامحه إلى فراغ وأشاح بوجهه للحاط ثم أغمض عينيه.

- هو اللي قتل بسمة؟ سأله..

لم يجني.. ظل شارداً لا يسمع حتى دخل محسن المُمْرض..

- دكتور كيلاني عاوزك في أوضته..

تركت له شريف مرتخي الأعصاب كمنديل ورقى مستعمل،
اصطحبه لغرفة العزل التي أصررت أن يبقى فيها ليلة إضافية ثم
اتجهت لمكتب د. كيلاني.. في الطرقة المؤدية لغرفته وقبل أن
أطرق الباب استفدتني سؤال شريف عن عدد أسنانى الذي أعرفه،
تمشيت بلسانى فوق الضروس والأسنان إحصاءً وتأكدًا فوجدتهم
واحدة وثلاثين!

نسيت ضرس عقل وثد قبل أن يولد!

طرقت الباب على د. كيلاني ودخلت، غرفته مُزدحمة كما
تركتها من خمس سنوات، شهاداته التقديرية تملأ الحوائط ومكتبه
العتيق مُكددس بالدوسيّات والرجل يجلس مُلقياً بنظارته على أربعة
أنفه المدبب.

- تعال يا يحيى.. أقعد.. لستة دكتورة صفاء قافلة معايا بتسألنى
عليك.. أخبار الرسالة إيه؟

- شغال.

ترك ما في يده وخلع نظارته ونظر في وجهي..

- أنت ما بدأتش! إيه حكاياتك يا يحيى؟ أنا عارف إن موضوع
الحادثة...

- الموضوع ده انتهى يا دكتور.. صدقني انتهى.

- طب نركز عشان الحياة تمشي.. زمايلك سبقوك يا يحيى...

- إن شاء الله يا دكتور.

- بقول لك إيه .. بتفهم في الـ «ipad»؟

- نعم؟

- دكتور فوزي السيد نازل بكرة من قطر إجازة، وقلت له عاوز
الـ «Laptop»، قال لي أجيّب لك الـ «ipad» أحسن.. بعدين دورت على
النت لقيت فيه كذا نوع، وفيه برضه سامسونج عاملة...

كان عليّ أن أقاطعه..

- دكتور أنا ماليش في التكنولوجيا للأسف.. أنا مش عارف إيه
الـ «ipad» ده أصلًا.

- إزاي يا يحيى.. ده شاشة كده قد الكف وباللمس...

- أنا كنت عاوز آخذ رأي حضرتك في حالة شريف الكردي.

- حققت معاه؟

- هو ضرب فوكس فعلاً.. بس فوكس هو اللي بدأ يضايقه..
حضرتك عارف فوكس ده مشاغب شوية.. المهم إني وأنا باكلّمه
ظهرت عليه أعراض «MPD».

صَهَلَ الرجل بضحكه صاحبة أتبعها بُعال عنيف أدمع عينيه..

- ازدواج!!!

- ازدواج! إيه المشكلة!!

- المشكلة إن نُص اللي بيتجو ٨ غرب مش حافظين غيرها من
الأفلام يا يحيى.. فيها إن الأبحاث بره دلو قتي نفت ازدواج الشخصية
ك النوع من أنواع المرض العقلي، ويضمونها تحت أنواع الهستيريا

النفسية باسم «Dissociative Identity Disorder»^(١) .. مرض تقسي..

مش عقلني.. عارف ده يا دكتور ولا صدّيت من القعدة في البيت؟!

- عارف.. بس فيه في الكُتب حالات زي «شيرلي ميسون» و...

- آديك قلت في الكُتب.. كُتب من العشرينات.. أنا سنتَة وعشرين سنة في المستشفى ما شفتش حالة واحدة..

- يمكن دي تكون أول حالة؟

نزل الصبر من فوق أكتاف الرجل فأشعل سيجارة:

- أنا هامشي معاك واحدة واحدة.. احكي..

دخل علينا الساعي بالقهوة قبل أن أبدأ، ضَخَّخت كافييني ويدأت في سرد التفاصيل حتى آخر دقيقة بدون ذكر الجزء الخاص بي، استمع لي بعينين مُرخيتين مُستخفتين وأنامله تنقر المكتب في رتابة قبل أن يزفر زهقاً:

- يا يحيى ما تقولش الكلام ده قدام حد عشان ما يضحكش عليك..
بُص.. مُود شريف بيعلا؛ بيكلم عادي.. إنسان طبيعي.. موده بيترنل
بيرجع للأعراض بتاعتته.. ده على فرض إنها أعراضه حقيقة أصلًا.

- هوّ ما كانش بيكلم عادي.. دي حتى مش شخصيته الحقيقة!

- وأنت شفت شخصيته الحقيقة فين؟

العبث مع طبيب نفسية أشبه بالعبث مع ثعبان أناكوندا ذي رأسين
وست أرجل.

(١) اضطراب الهوية الانشقافي..

- أقصد.. مش طبعته زي ما شفته أول مرّة.. فيه تحول..

- دي حالة صابعة يا دكتور.. محتاجة وقت..

للأسف الرجل على حق، ازدواج الشخصية أصبح في مقام
أنثى العنقاء، سوق رائحة في أفلام الخيال، لكنها لا تطير في
سماء الدنيا!

من فوق نظارته رقمني:

- دكتور «جيكل» ومستر «هاید» بتأثرك معاك، قلبك واقراه وشيل
موضوع الازدواج ده من دماغك، وهاشوفه لما أرجع من الإجازة،
لسه عندنا خمسة وأربعين يوم، مش عاوز حاجة من طنطا؟

خرجت أجر جر خلفي أفكاري المختلطة بتحليله المتماسك
وتحبّطاً مفجعاً لم أعهد، شهادتي المجرورة في الصديق «السابق»
ترتع، تتهاوى، كما أن كلماته عن لبني أثارت الاشمئزاز في نفسي،
لصحتها! لست نبياً رغم يقيني، فقط نسيت، وأتناهى عمداً آني
نسيت! لن أغافل نفسي، اشتهرائي للبني لم يكن أبداً أفلاطونياً، فكُل
تفصيلة فيها لها عندي مرجع لم أتوقف يوماً عن مذاكرته..

ذلك الكي الذي يشوي صدرك حين تجوع لأنثى تذوقتها فقط
ولم تلتهمها..

شارداً سحبتي رجلاً لشارع ٩٦ بالمعادي، أمars ضروريات
الـ(Single) المُملة، قسط فيراً متاخر، استلام ملابس مَكوبية، وجبة
سريعة مُهدرجة الزيوت قبل أن أتجه للبيت، استسلمت لدُش ساخن
وفتحت زجاجة (Meister) تكفي لتحليل منخفض قبل أن أرمي

بنفسي على الكتبة أتأمل بقابا كتاب «عجائب الآثار في التراث والأخبار» الذي وجدته خلف مكتبة شريف في شقته، وثبت بين الصفحات أحواول استيعاب مضمون الكتاب، لم يكن سوى تاريخ وتفسير للحوادث اليومية فترة ما قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها، مروراً بعهد محمد علي! قلبت الصفحات حتى أوقفتني صفحة مليئة بخطوط أسفل السطور، كانت تتحدث عن باب زويلة والبيوت المحيطة به!! وضعته جانباً بعدما التققطت الرسوم الجنسية التي كانت محشورة بين صفحاته، تفسيري لرسم شريف مثل تلك الصور ووضعها خلف مكتبة حائط، يدخل في نطاق هوس جنسي يصل لحد الرغبة في التجويد، بحثاً مضنياً في مفاتع أنشى لم تستسلم، طرقات على باب قلعتها بطرق سحرية تعبر الحراس الذين يحمونه على السقوط، أو ضاع إعجازة تحرك شجرة بجذورها، قلبت الصور حين فوجئت بصورة منها لم أكن قد لاحظت الشكل المرسوم فوقها بالقلم الرصاص، شكلاً عرفته! قمت مصعوقاً وقفزت في حوض سمكي العجاف أنقّب عن الرسالة، اللعنة على أحواض السمك، حين ترمي فيها شيئاً لا تريده؛ تقابله يومياً، وحين تبحث عنه يوم تحتاجه يختبئ منك شهراً، أخرجت أحشاء الحوض الزجاجي حتى وجدت الورقة، فتحتها ووضعتها بجانب صفحة الكتاب.. تطابق تام! صورة المربعات التسعة المحاطة بذراعي الشخص والعينين الصغيرتين في الرأس البيضاوي !!

الرسمة التي جاءتني في رسالة تحمل اسمي وعنواني منذ أيام!

هل أرسل شريف تلك الرسالة من سجنه؟!

علامة استفهام كبيرة انضمت لأخواتها في جمجمة ضاقت بهم ..
قاطعت أفكاري رنة تليفون برقم لبني، أخفيت الأوراق بين صفحات
الكتاب التاريخي كتلميذ إعدادي يُخفي مجلته الجنسية الأولى:
- معطل؟
- إزيك؟
- كويسة نسبياً من ساعة ما قعدنا مع بعض .. إيه الأخبار؟
- مش عارف!
- قلقتني!
- الموضوع مركب شوية..
- أنت فين النهاردة؟
- نايب إداري في المستشفى..
- نايب؟
- يعني بait نباتشية بالليل..
- لو جيت لك ينفع أشوف شريف؟
- تشويفه لا.. ممكن أحاول أخلاكي تكلميه في التليفون..
- أجي لك الساعة كام؟

أعِرِفُ..

أعِرِفُ أنْ وَقْتًا كَافِيًّا قَدْ مَرَ لِأَنْسِي وَأَتَنَاسِي ..

أعِرِفُ أَنَّ الْقِصَّةَ تَأَكَّلْتُ كَفِيلَمْ هَنْدِي زَخِيرْسْ مَدَهْ أَرْبَع
سَاعَاتِ ..

أعِرِفُ أَنَّ أَفْضَلَ عَلاجٍ نَقْلَبْ مُحَطَّمًّا .. هُوَ أَنْ يَتَحَطَّمْ مَرَةٌ
أُخْرَى ..

اصْمُتُ .. اكْتُبْ مَا سَأَمْلِيَهُ عَلَيْكَ بِلَا وَرْقَةٍ وَلَا قَلْمَ:

صَيْقُ الْخُلُقِ، مُتَبَلِّدُ الْإِحْسَاسِ جَانِحٌ لِلْوُحْدَةِ، فَاقِدٌ لِلنِّفَّةِ فِيمَنْ
حَوْلِيِّ، نَابِذُ الْلَّارْتِبَاطِ، مَذْعُورٌ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّةِ تَجَاهَ أَيِّ شَخْصٍ أَوِّ
كَائِنٍ (وَلَا إِسْتَنَاءَ لِلْنَّبَاتِ)، كَسُولٌ، يَائِسٌ بِالْيَجَابِيَّةِ، أَخْسِيقٌ كَثِيرًا بِمَنْ
يُحَاوِلُ قِرَاءَتِي رَغْمَ وَلَعِي بِقِرَاءَةِ الْآخْرِينِ، إِدْمَانِي لِلْقَمَارِ تَوْغِلُ حَتَّىِ
الْغُدْدَةِ النَّخَامِيَّةِ وَلَنْ يَفِيدَهُ عَلاجُ كِبِيَّاً، أَقْلَعْتُ عَنِ الْكَحْوَلِ مِنْذِ
شَهْرَيْنِ، كَانَتْ تَلْكَ أَسْوَأْ نَصْفَ سَاعَةٍ فِي حَيَاتِيِّ! الْكَنِيَ عَلَى أَيِّ حَالٍ
أَشْرَبُ فِي حَالَتَيْنِ فَقْطَ؛ حِينَ أَكُونُ عَطِيشًا، وَحِينَ لَا أَكُونُ! فَقَدْ اتَّضَعَ
أَنَّ الْمَاءَ لَيْسَ جَيْدًا كَمَا ظَنَّتُ، أَلَا يُصَدِّدُ الْمَوَاسِيرُ! أَوْقَتْ تَمَارِينِ
الْبَطْنِ وَانْهَارَ حِلْمِيُّ فِي بَنَاءِ مُرِيَّعَاتِ الْعَضْلَاتِ التِّي شَاهَدَتْهَا فِي فَيلِمْ

«٣٠٠ إسبارطي»، أكتفي بشفطه حين أمر بأنشى جميلة، كم اكتشفت مؤخرًا أنني مُطرب سمعي: الصوت ينوح صمتاً على فراق حبيبة رحلت إلى حبيب أخلد..

ذلك أنا الآن، والسنوات العشر القادمة، إن لم أستفط في غيبة سكر أو بنفجِر مُخي من تُخمة كحول..

مواجهة نفسي تبني حيَا، منذ طارت من السيارة وطار طحالبي وتضرر بنكرياسي حزناً وأنا أسجل شفوياً تقريراً نصف سنوي يُجتَسِّنْ أحدث الصفات التي اكتسبتها، أو التصقت بي فبركتها، أو اكتشفتها فسايرتها، قبل أن أُلقي أمرها جانبَا ولا أحاول متابعتها، أذبح كراكيب حُزُن وملل شرعي وبقايا كرامة عنيدة ترفض حقيقة آتي حتماً كنت صاحب دور النذل في الفيلم الذي مثلته مع شريف، لن أنسى لحظة الذروة التي شهدت فيها الجمهور لما اكتشف علاقتي بأخته من وزراء ظهره! قبل أن يُطلق علي الرصاص من مسدس صوت ويطردني من الفيلم! وماذا أتوقع منها غير الانصياع لرأي أخيها.. وآتتها وأبيها.. وصاحتها.. وقبيلتها التي تشويها!

سؤال:

هل تعرف ما الفرق بين حبيبة سابقة لم تظفر بها لأسباب تتعلق بسلوكك وحبيبة أصبحت زوجتك؟

الإجابة:

لا فرق.. إنه عُشب الضفة المقابلة الذي سيديو «دائماً وأبداً» أكثر اخضراراً طالما لم تطأ قدماك..

إذا لم أستطع أن أكون قدّوة حسنة.. فلأكُن عفريتاً لحكايات الأطفال!

قاطعت تقريري الشخصي كشافات سيارتها الآتية من بعيد، متأخرة نصف ساعة كعادتها، شعرها يهفو على وجهها ليزيد إثارة، كعادتها، سلمت عليّ وعيناها تتأملان المكان في فضول، دعوتها إلى دكة تتوسط حديقة تحت عمود إنارة حتى لا تلعب الخيالات بالزملاء المتحفزين، أمّا خيالاتي فسأتتكلّل أنا بها..

استوت لبني ولفت خصلة خلف أذنها:

- لو حدّ قال لي من تلات شهور إني هاقعد السّاعة حداشر بالليل في مستشفى المجانين ما كتش هاصدقه.

- إيش عرفك إن همّا اللي مجانيين؟ ما يمكن إحنا ومش دريانين.

ابتسمت ونظرت في عيني لثوانٍ ثم ابتسمت..

- ما اتغيرتش يا يحيى!

- بيهيا لك.. اتغيرت كتير.. للأسوأ.

- تجربة زي اللي مررت بيتك أكيد لازم تهزّك.

- تشربي قهوة؟

نظرت للفراغ من حولها:

- هو فيه حدّ صاحي في المستشفى؟

- عندي سخان وحاجة ساقعة في التلاجة.. فيه كمان عصير بتاع العيانين.

- أنا كده كده مش قادرة.. فتحت تليفون شريف؟

حكت لها ما رأيت في التليفون ثم مهدت لها الصدمة قبل أن يتورّد وجهها وهي تتأمل الصور بحرج أسرع خديها أحمراء..

- أنا مش فاهمة! الصور دي تعتبر دليل براءة.. ولا إدانة؟

- الاحتمالات فوق ما تخيلي.

- لو قلنا إننا بنواجه شخصيتين.. ممكن تكون شخصية بتحب بسمة والشخصية الثانية بتكرهها..

- حتى لو افترضنا إن فيه «Multiple Personality» وده احتمال مالوش أي وزن في تقسيم اللجنة بالمناسبة لأنها مش معترفة بيها، لازم يكون فيه سبب للكُره اللي يوصله يقتل.

- أنت شايف إيه؟

سؤالها كان أصعب من مُعادلة خوارزمية..

أخذت نفساً من السيجارة استزافاً للحقيقة أستجمع فيها نفسي ثم سلّكت حلقاً حشرت فيه الكلمات:

- خلينا منطقين، بوعي أو بغير وعي مش هنقدر نهرب من إن شريف قتل، ده بعد ما اعتدى عليها زي ما حكتي لي وزي ما قال تقرير الطب الشرعي، حتى لو عنده فصام اللجنة مش هتنفي المسئولية عنه وقت الجريمة، خلينا نتفق على ده، مرِيض الفصام بيقى واعني يا لُبّنى، كمان الصور وتعبيره فيها بتأكّد إنه شخصية وراها كتير، شريف بيستعرض، بيسجل لحظة انتصار، بسمة يا غلطت فيه، يا مع غيره، مافيش احتمال تالت.

هل تعرف الجزار الذي غرز سكينه «غير المسنون» في رقبة ذبيحته وأكمل كلامه؟

- اللي زود الطين بلة موضوع الشخصيتين.. ده هيجر جرنا ببساطة لأعراض أفلام سينما.

- اللجنـة شاكة في شـريف!

- اللجنـة مهمتها تشـك في شـريف.. وتحـلل.. بـس كـده كـده تـقـرـيرـها استـشارـي مش مـلـزم لـلـقاـضـي.. أـتـتوـ المـحـاـمـيـ الليـ مـعاـكـوـ كـويـسـ؟

هل تعرف الجزار الذي ذبح ثم مسح العرق من على جبين ذبيحته بمـندـيل وـرقـيـ؟

رمـقـتنـيـ بـيـأسـ رـقـرقـ حـدـقـتـهاـ عـتـابـاـ عـلـىـ صـراـحتـيـ الصـادـمـةـ..

- المـحـاـمـيـ كـويـسـ.. إـيـهـ أـجـمـلـ نـهـاـيـةـ مـمـكـنـ تـحـصـلـ؟ـ سـأـلـتـنيـ:

- نـلـاقـيـ إـثـبـاتـ عـلـىـ مـرـضـ عـقـلـيـ مشـ نـفـسيـ يـنـفـيـ مـسـؤـلـيـتـهـ.

- يـطـلـعـ عـيـانـ أـحـسـنـ مـاـ يـتـعـدـمـ.

- هـيـتـحـطـ فـيـ «ـالـخـانـكـةـ»ـ لـغـاـيـةـ مـاـ يـخـفـ..ـ وـمـمـكـنـ يـخـرـجـ.

- وـأـسـوـأـ حـاجـةـ؟ـ

- إنـ أـخـوـكـيـ يـكـونـ عـنـدـهـ سـرـ مـشـ نـاوـيـ يـقـولـهـ..ـ رـسـومـاتـهـ الليـ لـقـيـتـهاـ وـرـاـ الدـوـلـابـ خـلـتـنـيـ أـفـكـرـ..ـ شـرـيفـ نـاقـصـهـ حـاجـةـ..ـ يـمـكـنـ مـوـضـوـعـ الـخـلـفـةـ..ـ يـمـكـنـ أـدـاؤـهـ الـجـنـسـيـ ماـ كـانـشـ عـلـىـ الـمـسـتـوـيـ!ـ وـدـيـ مـشـكـلـةـ الـكـلـ بـيـخـافـ يـتـكـلمـ فـيـهـاـ!ـ وـوارـدـ تـكـونـ بـسـمـةـ قـالـتـ كـلامـ مـشـ المـفـروـضـ تـقـولـهـ لـمـاـ اـتـأـخـرـ الـحـمـلـ..ـ الـمـوـضـوـعـ دـهـ يـجـرـحـ أـيـ

راجل.. حتى لو بالنظره.. خصوصاً لو عنده عقدة معينة في الطفولة
ما كانتش ظاهرة.. وده خلاه يعمل اللي عمله في الصور ويسجله..
تعويض نفسى يساعده على الاتزان.. كل واحد فينا يدور على نوع
من أنواع الاتزان.

- مش متخيّلة إن اللي بتكلّم عنّه ده شريف! شريف أكثر واحد
يحب الناس ومش منطوي و...

- أنا عارف.. عارف.. بس كل حاجة واردة.. فيه حاجة كمان..
هو شريف كان يعرف مكانى قبل ما تحصل الحادثة؟

- شريف ما عرفش حاجة عنك من ساعة ما... آخر مرّة يعني كنا
مع بعض..

- الجواب اللي جالي قبل ما أرجع المستشفى فيه نفس الرسم اللي
رسمه شريف ولقيناه ورا المكتبة.. والمتحف الإسلامي؟ القميص
اللي لابسه في الصورة! شريف كان غاوي أنتيكات؟ بيشتري؟ كل
دي أسئلة ظهرت فجأة.

- مش عارفة.. ومش فاكرة إنه عمره اهتم بالأنتيكات أصلاً!!
سكتت لما التقطرت أفكارى وخمنت أين تتجه بي..
- وأكيد مش هيكون سرقه؟

- أنا ما قلتتش ده.. بس دي قصة تانية مش قادر أفهمها.. صور
المتحف! هو في إيه ولا في إيه! وصوره مع بسمة في نفس الوقت
تقريباً.. وصورته في المرايا من معلومات الصورة ساعة الحادثة
بالضبط.. شريف كان موجود يا لبني.. ووسط اللي هو فيه ده بيتفزّل

في مراته وبيصور متحف ومصور نفسه في الحمام بقميص أثري..
فسري لي أي حاجة لو تقدري!

أغمضت عينيها حزناً ثم أردفت:

- هتوّدي الصور دي للمباحث؟

سؤالها عن عدد شعر رأسى كان ليبدو أوقع.. طلت منها نظرة
شكٌّ فرأتها إجبارياً..

- أنا مش بانتقم من أخوكِي عشان موقف مات وانتهي.

- أنا ما قلتش كده.

- قلته بعينيكِ.

- أنت ما تعرفش حاجة عنّي.

- لسه أعرف أقرا عينيكِ.

- عينياً اتغيرت يا يحيى.

- هافضل أعرفك أكثر ما أي حد تاني يعرفك يا لبني.. غصٌّ عنِّي
وعنّك.. أنت نسيتي إحنا كُنا إزاي؟! نسيتي يا لبني؟

صمت الشجر بعدما سعلت الرياح واحتضر القمر، أشاحت
بوجهها بعيداً وارتعدت أناملها، سحبت دمعة من أطراف رموشها
دفتها في راحتها ثم رفعت رأسها للسماء وأغمضت عينيها، كان علىّ
أن أفعل شيئاً حيال الخنجر الذي غرزته في كبدها..

- الصور هتفضل معايا.. لغاية ما نشوف ها عمل إيه.. لستة قدّامنا
خمسة وأربعين يوم.. تعالى معايا.

أَحْرَكَنَا تَحْتَ الْأَشْجَارِ فِي سِيَارَتِهَا حَتَّى اقْتَرَبَنَا مِنْ ٨ غَربَ،
الْمَبْنَى سَاكِنُ وَالْحَرْسُ يَتَعَبَّدُونَ فِي خَشْوَعِ أَمَامِ تَلْفِزِيُونَ يَعْرَضُ
فِيلِمَا قَدِيمًا وَمَرْوَحَةٌ تَشُرُّ النَّسَمَاتِ، طَلَّبَتْ مِنْهَا الْإِنْتَظَارَ وَتَرَجَّلَتْ
حَتَّى عَبَرَتِ الْبَوَابَةَ الْمُسْلَسَلَةَ، عَثَرَتْ عَلَى مُمَرِّضٍ هَائِمٍ عَلَى وَجْهِهِ
نَاعِسٌ فَطَلَبَتْ مِنْهُ اسْتِدْعَاءَ شَرِيفٍ، لَمَّا دَلَّفَ الْأَخِيرَ غُرْفَتِي أَغْلَقَتِ
الْبَابَ، جَلَسَ فَأَخْرَجَتْ تَلْفِيُونَهُ مِنْ جِيَّبيِ، رَمَقَهُ بَيْنَ أَصَابِعِي بِتَوْتَرِ
هَرْشٍ مِنْ أَجْلِهِ رَقْبَتِهِ حَتَّى كَادَ يُدْمِيَهَا، فَتَحَتَ صُورَتِهِ وَوَضَعَتِ
الشَّاشَةَ الْمَشْرُوَخَةَ أَمَامَ عَيْنِيهِ..

- عندِي كلام كَثِيرٌ يا شَرِيفٌ عَنِ الصُّورَةِ دِي.. بَسْ بَعْدِينَ.

طَلَبَتْ رَقْمَ لَبْنَى وَانْتَظَرَتْ حَتَّى أَتَانِي صُوتُهَا ثُمَّ نَاوَلَتْهُ التَّلْفِيُونُ،
نَظَرَ لِي فِي صَمْتٍ وَلَمْ تَمْتَدِ يَدُهُ، صُوتُهَا مِنَ السَّمَاعَةِ يَنْادِي اسْمَهُ
مَتْلِهَفًا..

- أَخْتَكَ وَاقْفَةَ بَرَّهُ رُدَّ عَلَيْهَا !!

نَقْلَ بَصْرَهُ بَيْنَ الْمَحْمُولِ وَعَيْنِي قَبْلَ أَنْ يَمْدَدَ يَدَهُ إِلَى التَّلْفِيُونِ،
بِبَطْءٍ وَضَعْهُ عَلَى أَذْنِهِ، لَمْ أَسْمَعْ مَا قَالَتْهُ لَكُنْ مَلَامِحَهُ ظَلَّتْ جَامِدَةً
لَا تَوْحِي بِشَيْءٍ، دَقِيقَةٌ وَبِدَأَ يَجْزُّ أَسْنَانَهُ فِي عَصِيبَةِ، مَا تَبَثَّ أَخْتَهُ لَهُ
فَعْلَ نَقَاطِ مِيَاهِ رَتِيَّةٍ تَشَرَّخُ صَخْرَةً، شَفَتَاهُ ارْتَعَشَتَا بِابْتِسَامَةِ رَاحَةِ،
فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَكَعَادَتِهِ وَبِدُونَ أَنْ يَقْرَعَ الْبَابَ دَخَلَ خَيْرَةُ أَطْبَاءِ
النَّفْسِ فِي الْعَالَمِ..

سامِحْ زِيدَانَ !!

لَمْ تَكُنْ نُوبَتِهِ وَلَا مِيعَادُ عُودَتِهِ وَلَا كَافِيَّتِهِ الْمُفْضَلَةُ وَلَا مُلْتَقِي
أَصْدِقَائِهِ، فَقَطْ أَتَى فِي الْوَقْتِ الْمَنَاسِبِ..

رَمَقَ التليفون في يد شريف قبل أن يُغلق الباب على ثلاثة
وَسَحَبَ كُرْسِيًّا أصَدَرَ صَرِيرًا مَتَعَمِّدًا عَلَى الْأَرْضِيَّةِ وَهُوَ يَجْذِبُه
ثُمَّ جَلَسَ لِيَتَابِعَ الْمَشْهَدَ بِتَشْفُّ مَغْمُوسٌ فِي ابْتِزَازٍ، شَرِيفٌ يَسْتَمِعُ
لِكَلْمَاتِ أخْتِهِ وَعَيْنَاهُ لَمْ تُعْدَا تَفَارِقَانِ سَامِحٍ، يَرْمِقُهُ بِابْتِسَامَةِ تَسْعِ
وَبِرِيقٍ فِي عَيْنِيهِ يَزْدَادُ تَالِقًا، ثَوَانٍ وَأَنْزَلَ التليفونَ مِنْ فَوْقِ أَذْنِهِ وَصَوْتُ
لُبْنَى مَا زَالَ يَتَحَدَّثُ، كَانَ عَلَيَّ إِرْجَاعُ شَرِيفٍ لِغَرْفَتِهِ تَقْليلاً لِلْمُخْسَانِ
قَبْلَ أَنْ يَفْرُشَ سَامِحَ مَلَاءَتِهِ الْلَّفْ، دَسَسَتِ التليفونَ فِي جَيْبيِ ثُمَّ
فَتَحَتَ الْبَابَ وَخَرَجَتْ أَنَادِيٌّ مُمْرَضًا لِيَصْبِحَ شَرِيفٌ حَتَّى غَرْفَةِ
الْعَزْلِ، أَينَ ذَهَبَ اللَّعِينُ؟

- أَنْتَ يَا مُتَخَلَّفٌ إِيَّهُ الَّذِي بِتَعْمِلِهِ دَهْ؟

ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَنَا، صَوْتُ سَامِحٍ صَدَحَ فِي الغَرْفَةِ بِالشَّتِيمَةِ، رَجَعَتْ
وَكَانَ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ، سَامِحٌ وَاقِفٌ وَظَهُورٌ لِلْحَائِطِ فِي مَوَاجِهَةِ شَرِيفٍ
الَّذِي فَتَحَ زَرْ بِنَطْلُونَهُ وَسَقَى بِاسْتِمْتَاعٍ قَدْمِي سَامِحٍ بِوَلَّا سَاخِنَّاً،
جَذَبَتْ شَرِيفٌ مُحاوِلًا تَجْنِبَ نَافُورَتِهِ، مُسْتَمْتَعًا بِمَظَاهِرِ سَامِحٍ وَهُوَ
يَقْفَزُ مُتَجَنِّبًا لِلْفَيْضِ الْأَصْفَرِ حِينَ دَخَلَ الْمُمْرَضُ وَجْذَبَ شَرِيفًا،
خَرَجَ مَعَهُ وَرَمَى سَامِحًا بِابْتِسَامَةٍ، لَطَالَمَا كَانَ شَرِيفٌ مُبْتَكِرًا! سَكَّ
سَامِحٌ عَلَى قَدْمِيهِ زَجاَجَةً مِيَاهٌ وَهُوَ يَعْثِرُ عَلَى الْوَعِيدِ وَالسَّبَابِ بِصَوْتٍ عَالٍ
لِيَسْتَفْزِنِي قَبْلَ أَنْ أَجْلِسَ فِي مَوَاجِهَتِهِ وَرَائِحةُ الْبَوْلِ تَفُوحُ مِنْهُ..

سَامِحٌ فِي الْمُعْجَمِ:

شُورِيَّةُ الْخَضَارِ الْمُضْرُوبَةُ فِي الْخَلَاطِ.. بلا ملحوظ..

- «Fake».. بَايْنَ أُويِّ إِنَهُ «Fake».. بَسْ مش هِيشْتَغِلُنِي.. يَشْتَغِلُ
أَيْ حد إِلا سَامِحٌ زِيدَان.. جَالِي زَيْهُ هَنَا مِيتٌ وَاحِدٌ سَابِكِينَهَا أَحْسَنٌ

منه.. ومن أول قعدة بيتفقسو.. ولا مرّة خيّبت معايا.. ولا مرّة.. من
بُكرة هاقدم تقرير أستلم فيه حالته.. يا أنا يا هو.. أنا...

- قصر يا سامح.

- أنت طبعاً رجعت المستشفى علشانه؟

- ما تلخبطش في الكلام.. دكتورة صفاء نزلتني ٨ غرب صدفة..
أنا ما كتش جاي غير لما الشنوں القانونية بعت.

- كان فيه مكان في قسم «سابع حريم» ورفضته.. صدفة! وزميلك
في الدفعة اللي مش صاحبك وتسلم حالته.. صدفة.. والعربية اللي
واقفة برة ٨ غرب فيها وزّة بتكلّم البيه في التليفون.. صدقة برضه؟

أعطيته صدمتي ليفرغ ما في جوفه ويستمتع بوضععي تحت ضرسه..

مقطع من كتاب «الله القيل في استزاف الزميل الفضيل»..

تعريف «استزاف الزميل الفضيل»: هي اللحظة التي ترك فيها
خصمك ليطلق هرمون ذكورته في عروقه ليتشي كطاووس في
موسم التزاوج..

· وتنميّز تلك اللحظة بأربعة أعراض:

اتساع بؤبؤ العين..

تطاير اللّعب من الفم..

شماتة مفروطة تُطل من العينين..

وضع الجلوس يتخذ شكلاً هجومياً متحفزاً «يداه على فخذيه
المتصقتين»..

بحماس أخذ سامح يلوّك العظمة التي انتزعها من ضلعي بعد عَناء، ورقم لُبْنِي أثناء هرائه يُضيئ شاشتي فأغلق الخط في وجهها انتظاراً للسمج الهلامي عَلَه ينهي ابتسازه بلا مقدمات ممَلة، إيقاعه متراهن ككرشه حتى حين ينفعل! أنظر إليه وكلماته تخفت في أذني مقارنة بصوت أفخاري الذي يدوّي لإيجاد حل معه، كان ذلك حين طرح السؤال نفسه: «كيف وصلنا لتلك النقطة؟».

الإجابة: الفتاة التي ظنَّ يوماً أنها تنظر له ولم تُكُن..

نرمين؛ زميلتنا في المستشفى، وزوجني الراحلة، الفتاة التي خطب ودّها من قبلي ولم ترض به لأنني كنت أجول في قلبها وكان هو جوال بطاطاً، تلك الشفافة الرقيقة التي تُزاملك في العمل فتحصل على نصيب الأسد من نظراتك طوال النهار حتى تُصبح «عنوة» فتاة أحلامك، ذلك الضغط الذي يحوّلها إلى أجمل كائن على وجه الأرض بعد أن يُخفي بـ«التشبع والتعود» كل اختلاف بينكما، أنت لن تقاوم جمالها المتنامي يوماً بعد يوم، لن تقاوم اختلاسك النظارات لكل تفصيلة فيها خاصة ملمس يدها في السلام الصباحي، كما لن تقاوم المثالية في الارتباط بها، كل ذلك يبدو منطقياً حتى تبدأ الحياة الحقيقة..

هنا تُشَعِّب حدقَة عينيك، بغتة!

من هذه «السيدة» التي تُجاورني على الوسادة؟

أنت لن تعرف كيف تزوجتها، كيف حملت في طفلك، كما لن تعرف كيف تحولت تدريجياً إلى جُزء «متميّز» من أثاث البيت؛ بيتنا الذي لم يكن في حاجة لزلزال بذلك الحجم لتسقط حوائطه

الهشة، فمنذ سنتنا الأولى أدركت نرمين أن قلبي يحمل نكهة أنسى أخرى، بُقعة لم يصلح معها مسحوق ولا جاز أو حتى تنر ليزيلها، كما أن ماسورة الكحول التي كنت قد أغلقتها من أجلها ما لبست أن ضعفت قبل أن تنكسر «عمدًا» بسبب بُعد عالمنا! كان ذلك بعد فوات الأوان، فابتتنا نور كانت في شهرها الثالث! سرنا بقوة الدفع نزف الحياة تحت أرجلنا، ندهسها ولا نترك فيها علامات، ازدادت المسافات بُعدًا واتساعًا حتى بَتْ أحتج نظارة مُقرّبة لأراها، أطول مُحادثة يتناولها تعدد ثلاث جُمل قبل أن تتحول لتراثق بالنظارات يليه إظلام مسرحي تدريجي، لم أكرهها يومًا، هي فقط.. أصبحت...!! أصبحت درس حساب المثلثات اليومي من مُدرس أكبره، مُدرس مُمل فاقد للإيقاع، صوته مزعج وواجباته ثقيلة، ستان من الرتابة والتناثر والنفور حتى جاء يوم وسافرنا، علّ هواء البحر يتکفل بتبريد الاحتكاك قليلاً، يومها تعاركنا، وما الجديد! فالزواج نصف الكفر! آخر ما ذكره كان رائحة كحول في فمي وعدد سرعة يشير إلى ١٦٠ كم/س على طريق وادي النطرون ثم إطار سيارة ينفجر، لا ذكر آني اتخذت ردّة فعل، لا ذكر حتى محاولتي السيطرة على المقود، فقط طرنا إلى السماء جميعًا نلتوي كراقصة باليه تستعرض، لأنزل بعد ذلك.. وحدى..

لم أفهم!! وربما لم أرد أن أفهم وقتها، فقط المشهد لا يُمحى من رأسي، أراه الآن كأنه يحدُث، مشهد بلا مُوسِقى، فقط صوت طنين نحل رَتَيب يُدغدغ أذني! صحوت في عرض الطريق غير المأهول، كان الوقت غروباً والريح ساخنة تنفس الرمال في وجهي، تأمّلت عَظمة كاجلي التي خرجت عن مسارها بلا ألم، ستطقطق

بعد تلك اللحظة إلى الأبد، أنظر للجمي الأبيض كل حوم الطير هاربة منه الدماء، مخصوص، وشريحة زجاج تخترق أسفل رتني اليسرى عرفت بعد ذلك أنها لم تكون تقصدني، ظلمتها، كانت في الأصل تستهدف طحافاً. على بُعد أمتار كانت ابنتي على الأسفلت نائمة في هدوء، تغطّ في ملوكوت أعلى، حذاؤها الأيسر مفقود ورأسها يستند على بركة دماء لا تتوقف عن الاتساع رغم زرقة الموت التي علت شفتيها، فقدت الإحساس باللامي دفعه واحدة، سليم معافى هرعت إليها زحفاً، لامست أنفها وشفتيها، لا شيء! وضفت يدي على قلبها، لم يكن هناك أحد، داعبت ضلوعها لتضحك، هزّتها كأنها تستجيب للحاجي قبل أن يدهمني بكاء لم يدهمني من قبل، سالت دموعي واحتلّت بمُخاطي ودمائي، سجّدت بجهتي على الأسفلت أبتهل، أنا ديه وأعرف أني لم أصالحه يوماً، أتأملها ولا أكاد أتصوّر أنها رحلت بتلك البساطة، بدون أن تقبل خدي كما كانت تفعل، بدون أن تخبي مني خلف حوض السمك الميتزعني منها سوى صوت نرمين تئن، راقدة في السيارة المعجونة على جانب الطريق، لما اقتربت كانت الروح تنسلّ من بين شفتيها دخاناً، أكاد أراها، تَغيب، تَلاشى، تابعت عينيها تُنقلب وسبابتها ترتعش: ما تسيينيش! خرجت يومها من قلبي، فقط تلك المرة كنت أعنيها بحقّ، أمسكت بدها للحظات حتى توقفت الرعشة..

تلك كانت أول مرة أموت..

أقيت ظهري على الرمال ورمقت الشفَقَ ينحسر.. حل السلام.. لا كُوه.. لا حُب.. لا شيء.. فقط الخواء والفناء والعدم.. ثم سقط الليل فوقني في لحظة..

من يومها تركت الدنيا كما تركتها ابتي، وزوجتي التي كان سامح دائمًا وأبدًا من مُریديها، ومبتحي الأرض تحت قدميها، وكبير «مستخسرها» في شخصي، بعدها طلب ودها قبلي مرتين ورفضت لمنطقية رفض مثل ذلك الكيان السمع.. :

سطران آخران وسأبدأ في التعاطف معه..

لما خرجت عن شرودي كان قد تقىأ كثيرًا من كلامه، أفقت في جملة:

- وأمانة الصحة لو عرفت إن فيه علاقة بين المتهم والدكتور...

قاطعته:

- أنت ليه بتكلّم أكني اللي باحدد إذا كان بريء ولا لأ! الرأي رأي اللجنـة.

- الكلام ده تقوله لدكتورة صفاء.. أنا الوحـيد اللي عارـف أنت هنا ليه.

- إيه شغل ابتدائي اللي أنت بتعمله ده!

- ابتدائي !! أنت لسه ما شفتش شغل ابتدائي.

- مش ناوي تبطل غـل.

ارتفعت نبرة صوته رغبة في إيقاظ شهود..

- غـل ؟! أنت مدخل تليفون لمتهم يا دكتور في ٨ غـرب وينقول لي غـل !! إيه يا دكتـوروور ما تفوق.

قررت قلب المنضدة في وجهه اختصاراً لعجب الفلاحة الذي
لا يجيد خبزه، اقتربت منه وهمست:

- مش ناوي تنسى في يوم أنها كانت مراتي هه؟ مش قادر تخيل
أنها حبتني أنا؟ ومش قادر تخيل إنك اترفضت؟

- أنا مش فاهم حبتك على إيه؟

- أنا اللي مش فاهم كنت عاوزها تحبّك أنت على إيه!!

- العيب مش عليك.. العيب عليها.. مش فاهم إزاي مشيت ورا
واحد زيك !!

- اسألها؟

- لا.. أنا هاسأل بنتك.

مقطع آخر من كتاب «الله الفيل في استنزاف الزميل الفصيل» ..
«.. هناك شخص تعي تماماً أنه - بلا جدال - سيمزقك غالباً بعد
طعنك، ثم يضع في زهو بصمات كفه ملطخة بدمائك على حائط
بطولاته، ولن يكتفي حتى يسلّحك حياً بسكين خشبي قبل أن يفرش
جلدك على الأرض سجادة لضيوفه، سيوضع نابك فخرًا في سلسلة
على صدره ويصنع من ججمجتك منفضة لسجائره...».

لِمَ تعطيه فرصة الاستمتاع بكل تلك الـ«Options» مجاناً؟

لم لا تغلق عينيه بيصقتك أو تحشر في حلقه نعل حذائك؟

مع حرف الكاف في آخر كلمة «بنتك» عانقت قبضتي أنف سامِح
بزاوية صاعدة، زلزلت اتزانه، أصدر نعرة عظيمة قبل أن يُلقى أرضاً

بمائة وخمسة عشر كيلوجراماً نصفهم دهون، استقر بين قدميّ وقد
تبغث شعره ونسى اسمه لثوانٍ كانت كافية كي أعبر فوقه..

هل تعرف الجزار الذي ترك السكين في رقبة ضحيته وهي ترفس
الهواء ورحل؟

خرجت للراقدة في سيارتها أدلك عظام قبضتي من أنف سامح
الذي لكمها..

- وشك بيقول إني عملت مشكلة!

- اطلعـي .. نتكلـم بعيد عن هنا.

انزلقت في الكرسي بجانب لبني وابتعدنا عن المستشفى، أو قفتها
قرب «درينكـيز» فرع هليوبوليس ودخلت أستجدي علبة بيرة أستبدل
بها دمي الذي غلى وتبخر، تجرّعتها في المحل في رفعـة واحدة وسط
دهشـة الـبـاعـة والـزـبـائـن قبل أن أعود إليها، جلست وأشعلت سـيـجـارـة
هي الأـمـعـ منـذ الصـبـاحـ، قبل نـصـفـهـا قـاطـعـتـ صـمـتـيـ بـفـضـولـ الأـنـشـيـ
لـسـأـلـ عـمـاـ حـدـثـ، حـكـيـتـ لهاـ ماـ تـقـيـأـ سـامـحـ قـبـلـ أنـ يـلـكـمـ قـبـضـتـيـ،
وـجـمـتـ وـعـلـامـاتـ تـعـجـبـ كـبـيرـةـ تـزـحـمـ المـسـافـةـ بـيـنـنـاـ، وجـهـهاـ الجـائـعـ
لاـسـكـمالـ الصـورـةـ اـضـطـرـرـيـ لـلـرـجـوعـ بـذـاـكـرـتـيـ خـمـسـ سـنـوـاتـ لـأـحـكـيـ
قـبـضـتـيـ وـاسـتـمـعـتـ هـيـ بـإـنـصـاتـ..

- أنت فعلـاـ كنتـ...؟

- كنتـ شـارـبـ «Jack» زـفـتـ «Daniel's» وـسـايـقـ عـلـىـ ١٦٠ـ ..
وـبـاتـخـانـقـ مـعـاهـاـ.

الدهشة والاستكثار تقابلًا في وجهها.. ولا أعرف لم أصررت
على إكمال ما بدأت!

- كنت ناوي أقضّي عمري كُله معاها عشان خاطر نور رغم إن
ما كانش فيه أي أرض نتكلّم عليها.. غلطة.. والمفروض أعيش
وأواجه إني كنت السبب في موتها.. وموت بستي.

- ليه؟ ليه وصلتو الكده؟

- ليه؟ سؤال صعب ليه ده!

حاولت التزام الصمت الذي أجده، بيتي القديم الذي جاهدت
منذ سنين في ترميم أحجاره كي لا ينهار، حتى إنتي نكسته ودست
بين ضلوعه القوائم الخشبية وطردت سكانه، ما عدنا أنا،وها أنا أسمع
صوت الطقطقات، وأرى التراب يتسرّب من السقف فوق رأسي، ثم
حدث الانفجار..

- ليه ضعفي من إيدي قبل كده؟ ليه شريف رفضني لما اتقدّمت
لك؟ فاكرة ليه؟ عشان صبغت أنا وهو مع بعض.. شربنا وحشتنا
وعاكسنا مع بعض.. عشان حبيتك من وراء؛ مشيت معاكي زي
ما قال.. فاكرة عمل إيه لما عِرف؟ قطع عني المية والنور.. بصرامة
هو عنده حق.. الصحوبية حاجة والنسب حاجة تانية.. أنا لو شريف
ما كتش جوزتني أختي.

سكتت وتركت صمتها يتكلّم بعد ما ألقيت ما في عقلي بلا إنذار،
كلامي يومها كان أشبه بالصفة الأساسية في التبؤ اللامارادي..

لا إرادي !!

ظللنا على تلك الحالة دقائق حتى رميت حجراً في الماء الرايد
ليخرج التمساح ويأكلني:

- أنا آسف.. مش عارف إيه اللي خلاني...

قاطعني:

- حبّتها؟

- حبّتها.. زي مراتي.

- ما فكرتش ترتبط تاني؟

- أنا معها ما قدرتش أنساكي يوم.. مش هاكرر غلطتي تاني.

حان وقت التورّد واضطراب الملامح، كلماتي جعلتها تسحب سجارة من علبتها، مرت دقيقة لعنت فيها نفسي عشر مرات وركلت حجراً في روحي لستورٍ..

حصيلة يومين فقط بالمستشفى:

حققت مع صديق عمر أصبح متهمًا، طاردني كلب أسود في أحلامي وخارجها، لكمت زميلًا سمعًا كان يستحق اللهم على أي حال، وفتحت تابوتًا ترقد فيه قصة حبّ ماتت من عشر سنين..

- ولا أنا نسيتك!

استدركتني في اللحظة التي أوشكـت فيها على ركل خصيـتي إـنـهـاءـ لـمـسـتـقـبـلـيـ..

- أنا عـشتـ فـترةـ زيـ الزـفتـ عـلـىـ ماـ قـدـرـتـ أـصـدـقـ إـنـكـ اـخـفـيـتـ
منـ حـيـاتـيـ،ـ اـنـتـحـرـتـ مـرـةـ وـلـحـقـونـيـ بـالـعـافـيـةـ،ـ وـماـ سـاـمـحـتـشـ شـرـيفـ

ولا ماما على اللي حصل لغاية النهاردة، ولا سامحتك، فيه لحظات
كنت حاسة إني لو شفتك كنت هاضربك بالقلم.. أنا.. أنا..

اخنق صوتها قبل أن تتمالك نفسها.

- إوعى تفكير إنك لوحدي اللي تالمت.. بس أنت مش عارف
يعني إيه بنت يبقى عندها تسعه وعشرين سنة في البلد دي.. لما كل
اللي حواليك فجأة بيصوا لك أكنك عار ولازم يدفن.. جحيم.

- تخيلي أنا لسته باحبك..

ابتلعت ريقها واختلجمت عينها فأدركت مدى سخافتي.. أنا
المحامي الذي ما زال يترافع في قضية تلقى موكله فيها الإعدام
ونفذ الحكم فيه منذ أعوام.. انتابتني رغبة عارمة في الحصول على
كأس شيفاز!

وجهها وكلمة «أنتي متزوجة» على ظهر بطاقتها الشخصية لن
يتحملها ما وسّرت به نفسى تجاهها، قاومت رغبة عارمة في لمس
يدها، أغمضت عيني وعددت من عشرة إلى واحد بالمقلوب.. ولم
أصل للواحد..

- أنا لازم أرجع المستشفى عشان أشوف المصيبة اللي هناك.

- ورّطتك؟

- كده كده كنت هاضرب سامح في يوم من الأيام.. أشوفك
على خير.

تركتها وابتعدت محاولاً تناسي ما قلت.. «أنا لسته باحبك»..

يالسخافة المراهقين ذوي حبّ الشباب والشنب الخفيف.. وللعجب
فلست رومانسيًا.. هكذا قالت مايا ومن قبلها زوجتي.. لكن إذا كانت
في روحي فجوة بحجم نيزك عملاق..
فاسمها لبني..

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

حين وصلت «الغرب» علمت أن سامح قد غادر وأنفه تنزف
بدون أن يلفظ الكلمة، أقيمت نظرة على شريف الراقد على جنبه نائماً
في آخر العبر، لا أعرف إن كنت سأظل عوناً له أم س أجبر على تركه
يواجه مصيره بعد ما فلتت أعصابي، أعرف نفسي، أو هكذا أظن! لن
أتحمل سخافات سامح ثانية، سأقدم استقالتي قبل أن تتفوه صفاء
بكلمة عن وجهه الذي لكم يدي..

مررت على «اللورد» قبل البيت؛ محل خمور صغير يملك صاحبه
مُعجزات من الحياة في ثلاجته، التقطت منه زجاجة «Jack Daniel's»
ستحتسيني للنصف قبل أنأشعر بالارتفاع، تحلق قريب من الأرض
لن يلتقطه رادار..

حين وصلت البيت غسلت كوبًا زجاجياً طويلاً واستخرجت
مكعبات ثلج حتى امتلأ حوض الاستحمام، استلقىت في المياه وعلى
يميني تبغي، كحولي، تليفوني، ومشغل أسطوانات عتيق يحتضن كل
أغانيات فريق «Doors»، يقتلني «جيم موريسون» في رائعته «Break
on through to the other side»، ضغطت زر التشغيل وأغمضت
عيني واسترخت..

You know the day destroys the night

Night divides the day

Tried to run

Tried to hide

Break on through to the other side

لا أعرف كم ساعة مرّت..

ضوء الشمس كان يتخيل زجاج الحمام حين سمعت نغمة التليفون المكتومة، جلست نصف جلسة محاولاً تحديد اتجاه الصوت إن كان داخل شقتي أم من الشارع، قمت ولم أجد منشفة فسقيت الأرض بمايبي حتى الصالة، الانبعاث كان من الكتبة الملقبى عليها بنطلوني، تذكرت تليفون شريف، مسحت يدي المبلولة والتقطته من الجيب، الرقم على الشاشة المشروحة لم يظهر، ترددت لثوانٍ كانت كافية ليغلق المتصل الخط ملأاً، تنهدت ووضعت التليفون على المنضدة، ما إن استدرت حتى رن الجرس ثانية! حسمت أمري وضغطت زر الرد..

- ألو.. ألو!

لم أتلق إجابة.. فقط صوت أشبه بدوران ريح في إناء أجوف، أغلقت الخط واتجهت للغرفة أبحث عن فوطة، فتحت الدولاب أستجدي واحدة حين رن الجرسثالثة، أين الفوطة اللعينة؟! ارتديت «بوكسر» على بللي ثم التقطت التليفون:

- ألو!

- أـ... وـ... شـ... يـ...

الصوت معدني متقطّع صادر من منطقة تغطيتها ضعيفة، أو أن العيب في تليفون شريف المتهالك، اقتربت من النافذة ليتماسك الإرسال:

- مين معاي؟

- نسيت صوتي!

- أنا مش شريف.. ده تليفونه.. أنا...

- أنا عارف إنك مش شريف.

- مين اللي بيتكلّم؟

- شفت بسمة كانت جميلة إزاي في الصور مع صاحبك؟
لا يعرف بأمر تلك الصور غير لبني! أو ربما زوجها الآن بخاصية الانتقال الحراري.

- مين معاي؟!

- مش ممكن تكون نسيت صورها.. ما تتنسيش.. «Goddess»
زي أفروديت.. ما تعملتش قبل كده.

- أنا مش عارف أنت بتتكلّم عن إيه؟

- دي كدبة!

- أنا ما باكدبش..

- قلت لك.. مافيشبني آدم ما بيكتبش!
الإجابة جعلتني أنتفض.. من أين حصل على تليفون؟

- شريف!! أنت بتتكلّم منين؟

- برضه شريف! أنت ليه مش قادر تفهم؟!

- أفهم إيه؟ إنك عاوز تتحرّ، نفسك على إيديا!

- أنت مش عاوز ترّيحه؟

- ده إحساس بالذنب؟

- من قتل يقتل.

- وما فكرتش تقتله أنت ليه؟

- أقنعته مرة في الحمام.. واتلحق.. بس فين المتعة في ده! أنا عاوزه يعملها بيأيده.

- بسمة عملت إيه عشان تموت؟

- حبّتني.. خدّها مني...

- شريف...

صرخ في بصوت خرق طبلة أذني..

- أنا مش شريف...

صفعة من الصمت لطمتي قبل أن يردد بهدوء:

- ومش صعب أقنعك.

انغلق الخطّا! قفزت في ملابسي ثم في تاكسي لفظني أمام المستشفى، رَكضت حتى ابتلعت لسانِي، حين وصلت ٨ غرب كان الهدوء مُسيطرًا، ضابطا الشرطة على مكتبيهما يجتران ملأا،

الممَّرضون يتجلولون في رتابة نحلات شغالَة، والأطباء يسكنون حجراتهم في خشوع الرهبان، أسرعت الخطأ إلى العنبر حتى حصلت على زاوية تكشف النُّزلاء، جُلت بنظري وسطهم أبحث، شريف غير موجود! سألت مُمَّرضاً عنه فأخبرني أنه لا بد في الحمام، طلبت منه فتح العنبر ومصاحبي مع عسكري إلى الداخل، اصطكَّت مفاتيحيه وأسنانِي قبل أن نخوض وسط النُّزلاء لنصل الحمام، حار رَطْب رَائحته نَفحة من الجَحِيم، كُلَّ الستائر الزرقاء مكشوفة عدا واحدة، اقتربت منها وناديت شريف فلم يجب، ناديت مرة أخرى ولم يجب فتوَّر العسكري وهو بكشف الستارة ففرملته بيدي حين سمعت سعال شريف..

- شريف.. أنت كويِّس؟

تركني ثوانٍ قبل أن يُجيب:

- كويِّس.

- الحمد لله.

صَرَفت المُمَّرض والعسكري بهزَّة رأس مطمئنة واقتربت من الستارة:

- خَلَّص عشان عاوزك.

- قابلت لبني؟

- ومش هاتتخيل حالتها النفسيَّة عاملة إزاى.

- جوز لبني أكبر منها باتناشر سنة.

!....

- عضمة كبيرة.. أفكار مختلفة.. وضعيف.. مش قد المотор
اللي تحت إيده.

ذلك لم يكن شريف..

. حاولت العثور على رد لكنني فشلت حين أردف:

- تفتكر لو مات لبنى هتعيش إزاي؟ ما تخيلتش؟

- ما تخيلتش.. وما أتمنالهاش ده!

- التفاحة المستعملة ريحتها مختلفة.. زي رحة النبيت المعتق..
فيها لسعة كده.. وصحي النبيت.. يقولوا كاس في الشهر يعني عن
المرض.. بيطهر الكبد.

- كفاية يا شريف.

- الخيال مش عيب يا دكتور.. العيب إنك تخبيه.. وتطلعه
لما تشرب بس.. مش جراءة دي! عارف.. لو رجع الزمن برضه
ما أجوزكش منها.

- ليه؟

- ما كتش هتشتاقلها زي دلوقي.. كان زمانها بقت زي مراتك..
مملة وسخيفة..

- لبني طلعت من دماغي يا شريف.

- أراهين إنك في وقت فراغك بتخيلها في السرير..

- كفاية يا شريف.

- الحياة مش مضمونة يا صديقي .. لازم نطلب الحلو قبل الأكل
احتياطي.

- قلت لك لبني طلعت من دماغي خلاص يا شريف.
- تعالى نقول نفس الكلام ده بعد كاسين شيفاز.. لسه بتحب
الشيفاز مش كده؟

قالها وضحك، ضحك كما لم أسمعه يضحك من قبل، ثم صمت،
انتظرته ليفرغ «نداء طبيعته» مُتَحْمِلاً رائحة كريهة رطبة نافست إيط
إبليس، دقائق من الملل جعلتني أستعجله، ناديته مرتين فلم يجب،
هممت بجذب الستارة حين عَبَرَ المد الأحمر من تحتها، موجة لزجة
لامعة رأيت فيها انعكاس لِمَبَاتِ السَّقْفِ ووجهي، توسعَتْ بشقة حتى
لامست نَعْلَ حذائي، رَدَّ فعلِي تأْخِرَ ثانيتين لاستوعب المشهد، أفقَتْ
فجذبَ الستارة، شريف كان جالساً بجانب المِرْחَاضِ عاريَا، شاحباً
كبطل فيلم أبيض وأسود ورأسه مُطأطاً فوق صدره، فارجاً ساقيه في
زاوية واسعة والدماء تتدفق من مُلتقاهما في نَبْضٍ متظِّمٍ يُفرغ بترنيه
سَاخِنَاً على البلاط !!

ركضنا به إلى مُسْتَشْفِي عين شمس التخصصي وباطن يَدِي يعتصر
الجَرِحُ الْمُتَفَجَّرُ، وَضَعَنَاهُ على طاولة وشرعنافي إقناع نزيفه المُنْهَمِر
بالتوقف، آخر ما لمحته قبل أن يبدأ البنج عمله كانت عينيه، رغم
الذبول والاختلاج كان يرمي ..

بسخرية !!

لن أحكي عن صوتي الذي راح صرخاً في الممرّضين والزملاء،
ولا عن ملابسي التي خضبت بدمائه، ولا عن كتفي الذي مُلِّغ وأنا
أجاهد في حمله..

لن أحكي عن الوشم المُمتد حتى أعضائه التناصيلية كشجر
البلاب، ولا عن شبقي لكأس ويسكي مثلّج، ولا عن بقايا دمائه
التي لم أستطع إزالتها من تحت أظافري..

تقرير المستشفى كان نزيقاً حاداً نتيجة قطع في الشريان الفخذي
تم باستعمال آلة حادة، محاولة انتشار كادت تنجح لو لا هزاله الذي
جفف فخذه فسهّل على الجراح العثور على الشريان الغاطس وغلق
القطع فيه! غيّبه بعدها صناعياً ولم أرحل إلا حين استقرت معدلاته
الحيوية، رجعت بعدها ٨ غرب وطلبت فنطاس فهوة، حمله لي
محسن المُمّرض حين أمرته بغلق الباب وسألته:

- محسن من غير لف ولا دوران أنت عارفني ما باحبش أشم
الكدب في حدّ باعزم.. شريف اتكلّم معاكِ عنِي؟ حكّيت له حاجة
يعني عن... الحادثة؟

- أنا! أنا يا دكتور!! هو أنا تلميذ.. طب وعهد الله...

قاطعت أيمانه:

- مين اللي اتكلّم معاه غيرك؟ ما هو لازم حد قال له.. أتال
هيعرف منين !!

- يادكتور شريف ده من ساعة ما جه وهو أخرس.. المرة الوحيدة
اللي عمل حاجة كانت لما ضرب فوكس.. خلاف كده قاعد لوحدة
على طول..

- سامح ما كلمهوش في النباتية؟

- ما شفتش.. يمكن..

- مين اللي دخل تليفون لشريف في العنبر النهاردة الصبح؟

- تليفون !!! إزاي يادكتور أنت عارف إن ده مايحصلش.. العسكري
قاعد على الباب م الصبح اسأله.. ماحدش دخل والкуبة الشريفة..

- سامح كان فين؟

- كان موجود بس ما دخلش..

- شريف كلمني الصبح قبل ما يعور نفسه يا محسن.. أنا لو
ما عرفتش مين اللي دخل له التليفون هاجيب جزاً للقسم كله.. روح
عسّ لي وظبط واعرف لي.. مفهوم؟

قاطعني جرس التليفون برقم صفاء المُديرة، استدعتني بثلاث
كلمات مقتضبة إلى مكتبها، صرفت مُحسن ودفت سيجارتي في
تنورة قهوة متبقية في الكوب قبل أن أَتَخَذْ طريقي لمبني الإدارية، أَشَحَّدْ
في رأسي كلمات «قرن غزال» سأغرزها بين ضلوعها لو بدأت في
التحقيق معِي..

في المكتب كانت دكتورة صفاء على كُرسيها، والمجني عليه
جالساً إلى يمينها وأنفه التي لکمت قبضتي تفترش وجهه كفطيرة حارة،
ابتسم تحدياً ببرودة تكيف ٨ حصان حين أشارت لي صفاء:

- اقعد يا يحيى ..

قعدت في مواجهة اللزج أرتفع أول غيث التحقيق، دقيقة مُملة
قبل أن تترك أوراقها وتلتفت لي:

- أحكي لي يا يحيى عن الحالة اللي معاك؟ شريف الكردي ..
بداية غريبة لم أتوقعها.. اتخد الأمر مني ثواني تابعت فيها وجه
سامح قبل أن أجيبها:

- شريف الكردي عنده أعراض مركبة يا دكتور، سكيزوفرينيا،
«OCD»، سكيزوجرافيا، وفي آخر يومين لاحظت ...

- ازدواج! د. كيلاني حكى لي عن آخر كلام دار بينكم.. طبعاً آخر
حاجة دي مش محتاجة أقول لك إنها عاوزة قاعدة يا يحيى ..

- يا دكتورة، شريف بقاله يومين بيتكلّم معايا بشخصيتين
مفصولتين.. أنا عارف إن ده صعب.. بس ده اللي حصل ..

- شريف يقدر يتكلّم بشخصيتين في أي وقت لو حب يا يحيى ..
ده دكتور ..

- أنا عارف يا دكتور إن الا زدواج نظري، بس شريف لو يمثل
ما كانش حاول يستحر، أنا شفت شخصيتين، وبينهم خناقة ..

- مُحاولة الانتحار دي تدخله في خانة الكتاب، لا سكيز ولا
ازدواج يا يحيى، وده ما يغيفهوش من المسئولية ..

- أنا ما بحاولش أعفيه من حاجة.. بس إحنا قدام حالة حقيقة..

- مش هاطلع تقرير من المستشفى يا يحبي يقول للمحكمة إن المتهم بشخصيتين.. أنت عاوز تضحك عليا الناس.. الحالة صعبة شوية.. بس مش ازدواج.. دكتور كيلاني راجع الأسبوع الجاي وهو اللي هيحسن الموضوع.. وهاتابع شريف معاك أنت وسامح من النهاردة..

- سامح؟!!

نظرت له في امتحان أم لابنها:

- سامح طلب يتابع معاك الحالة دي عشان تبقى تحت المراقبة طول اليوم رغم اللي حصل في وشه، وقع على السلم إمبارح زي ما أنت شايف..

- أنا مش محتاج حد يساعدني.. هاجي بالليل أتابع..

- سبحان الله! ده أنت ماكتش طايق ترجع، وبعدين هتشتغل على الرسالة إمتي وإزاي؟! سامح هيساعدك في الحالة يا شريف، بصراحة مش جديدة عليه، سامح طول عمره صاحب واجب..

كِش ملك!!

حاصرني «أنف الكلب» ببيادقه وطابتيه وزيره العاجز جنسياً،
إما أن أرفض عرضه الخبيث وأترك شريف بين يديه لقمة سائفة
وأنسحب، وإما أواافق على دس زلّومته المفلطحة في القضية وأورطه
في المسئولة عن سلامة شريف.. الأمر أشبه بلعبة البوكر..

ولم تعودني «البوك» يوماً على الانسحاب..

خرجنا من مكتب صفاء والطرة كانت خالية، لم أتمالك لسعة فنديل
البحر التي ألهبت صدري، جذبته من قميصه وصفعت العايط بظهره:

- أنت فيه منك رجال؟

خوفه امتزج بشففي مغلول، وضع ذيله بين رجليه وبدأ يرفع
صوته..

- اضرب.. خلبي المستشفى كلها تنفرج عليك..

ضغطت على صدره:

- أنت بتخلّي شريف يكلّمني على المحمول؟

أفلت يدي:

- وأنا اللي خلّيته يتكلّم فيه إمبارح برضه؟ أنت مجرم زيّك زيّه..
وفيّه لعبه وسخة بتلّعب..

- أنت مش رخم.. أنت حاجة أوسع من كده بكتير.. عارف لو
قربت له هاعمل فيك إيه؟

رمقني باستهتار مُصطنع لا يخلو من رغبة في التعجيز..

- إيه؟

«تم حذف الإجابة لاحتوائها على تلميح جنسي لا يليق بالذوق العام».
قلتها وتركته مُبعثراً يلملم قميصه داخل بنطلونه.. قبل أن أصل
إلى آخر الطرقة استوقفني وأشار إلى أنفه:

- وحِيَاةٌ دِي لَافْرَجُك ..

تركته يعوي واتجهت لمُستشفى عين شمس التخصصي، حيث
الحارس الرابض على باب شريف ودخلت، الغرفة صغيرة والزمن
فيها لا يتحرك، خالية إلا من سرير يرقد فوقه شريف مرتخي الأعضاء
وطاولة عليها جهاز رسم قلب منحنياته تئن برتابة، بجانب أنبوب
محاليل يسقيه الجلوکوز تقططاً، صوت نفسيه بطيء متحشرج
وساقه مكبلة في السرير بأصفاد حديدية، ساحت كرسياً غير مريح
وجلست بجانبه، شريف يرقد في سبات صناعي حقنه الطيب في
أوردته ليعبر مرحلة الصدمة العصبية، لفاقة شاش كبيرة تحيط فخذه
المهتوك، جفونه نسي أحدهم غلقها جيداً وبشرته صفراء ذابلة نافرة
العروق ..

كوكيل من الألم.. بلا ثلج !

دقائق لم أحصها جلست أراقبه قبل أن يثبت السكون في جسدي
خدراً شجعني أن أنزلق في الكرسي، جفوني اكتسبت وزناً زائداً
وتهيأت بالفعل لغلق أبوابها قبل أن يُداعب عيني وشم ذراعه، قمت
واقتربت منه بفضول قطّ، الرسم بدا سمرة مطبوعة في بشرته البيضاء
أقرب منها وشما دخيلاً، كان دولة زنجية من «الميلانين» أعلنت
استقلالها على سطح جلد بلا ثورة، مددت مبابتي أتحسس الفارق
بين اللّونين حين اضطرب إيقاع نبضاته، سرعة مطردة في ضربات
القلب ستقذفه خارج ضلوعه، اقتربت من شاشة جهاز القياس أتابع
إحداثيات الزلزال العنيف، قلبه يركض بسرعة ١٣٠ نبضة في الدقيقة،

ركلت ذِرَّ الاستدعاء أطلب استغاثة، ١٩٠ نبضة، سُرعة تلفظ الدم من غرف القلب قبل أن يدخل، سيختاج صدمة تُوقِف تهوره قبل أن ينقلب به قلبه على الطريق، الجهاز يقرأ ٢٢٠ نبضة، لم أختبر تلك السرعة حتى في يوم الحادثة، وَضَعْت كَفَّيْ على صَدْرِه أَحَاوَلْ تَهَدِّئَةً تَشَنجَ يَرْجَه حين بدأَتِ الْزُّرْقَةَ تَصْبِغُ جَلْدَه وَشَفَتِيهِ، نَقْصُ الْأَكْسِجِينَ بَلْغَ مَرْحَلَةَ حَرْجَةٍ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَمَا فَتَحَ عَيْنِيهِ بَغْتَةً وَقَبَضَ عَلَى يَدِي بِمَلَامِحِ اسْتُولِي عَلَيْهَا الْأَلْمُ، وَيَدِهِ الْأُخْرَى تَعْتَصِرُ كَتْفَهُ الْبِسْرِيِّ، نَفَرَتِ شَعِيرَاتِ عَيْنِيهِ وَتَشَنَّجَتِ رَقْبَتِهِ فِي صَرَخَةٍ مَكْتُومَةٍ تَسْتَجِدِي هَوَاءً، انْفَتَحَ الْبَابُ عَنْ طَبِيعَةِ وَمَمْرَضِينَ وَجَهَازَ صَدَمَاتِ كَهْرِيَّةِ مَجْرُورٍ عَلَى عَجَلَاتٍ، قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ الْجَهَازُ بِالْكَهْرِيَّاءِ سَكَنَتْ حَرْكَتِهِ، خَمْدَ بَيْنَ يَدَيِّيْ مُنْقَطِعَ الأنفَاسِ، تَحَوَّلَنِي جَانِبًا وَتَزَعَّمُوا دَاءَهُ، وَضَعْتُ الطَّبِيعَةَ سَمَاعَتِهَا عَلَى صَدْرِهِ فِي عَدَّةِ مَوَاضِعٍ تَبْحَثُ عَنْ نَاجٍ يَسْتَغِيثُ فَلَمْ تَجِدْ، سَكَبَتِ الْمُمْرَضَةُ عَلَى صَدْرِهِ مُلْطَفًا قَبْلَ أَنْ تَمْسِكَ الطَّبِيعَةَ بِالقطبيَّينِ وَتَصْكِّهِما، وَضَعْتُ وَاحِدًا فَوْقَ صَدْرِهِ الْأَيْمَنِ وَالثَّانِي تَحْتَ الْقَلْبِ، ابْتَعَدْتُ عَنِ السَّرِيرِ سَتِيمْتَرَاتٍ حِينَ سَرَّتِ الشُّحْنَةُ فِي جَسْدِهِ، انتَفَضَ وَتَقْلَصَ ظَهَرَهُ فَطَقْطَقَتِ الْفَقَرَاتُ ثُمَّ خَمْدَ، الْجَهَازُ صَفَرَ فِي رَتَابَةِ مُعْلَنَّا غَيَابَ الْحَيَاةِ، شَحَنَتِ الطَّبِيعَةُ قَطْبِيهَا ثَانِيَّةً بَعْدَ أَنْ رَفَعَتِ الْفَوْلَتُ، رَاقَبَتِ الْجَهَازُ لِلْحَاظَةِ قَبْلَ أَنْ تَكُبَسِ الْأَقْطَابُ، انتَفَضَ جَسْدُ شَرِيفٍ، كَادَ يَنْكَسِرُ مِنَ التَّقْوِسِ، أَصْدَرَ صَرَخَةً هَائِلَةً أَفْزَعَتِ الطَّبِيعَةَ قَبْلَ أَنْ يَنْتَفَضَ، قَبَضَتِهِ اعْتَصَرَتِ يَاقةَ قَمِيصِي فَأَيْقَظَتِنِي مِنَ الْذَهَولِ، جَذْبُ وَجْهِي إِلَى فَمِهِ وَهَمْسٌ :

- القميص.. القميص يا يحيى !!

قالها ونظر في عيني لحظة قبل أن تخور قواه وتغور حدقته
لি�سقط بين يدي رخواً كأن عموده الفقري قد انسلّ منه، لم لمناه
وأسجيناه على السرير، طعن بالحُقن وعلقت له المحاليل وخيط
جرحه الذي انفجر ثانية حتى انتظمت معدّاته الحيوية، سيختاج إلى
أربع وعشرين ساعة إضافية يمارس فيها الغِياب عن عالمنا «اغنة»
مُكبلًا في سريره حتى يستقر عالمه!

احتاج إلى ثلات كتوس ويسكي وطبق ترمس مملح ..

في طريقي للحصول على وجبة الكُحول أو قفتني كاميرا مُراقبة
لاسلكية في حجم سبّابتي، معروضة في فاترينة «RadioShack»،
تبث إرسالها إلى مُستقبل بلوتوث في نطاق مائة وخمسين متراً
حولها، يُخزن في لقطات مُتقاربة بفارق ثانية واحدة مائة وعشرين
ساعة أستطيع تفريغها على كمبيوتر، كما اشتريت جهاز تسجيل
صوتي في حجم الشوكولاتة، يُسجل مائة ساعة بلا توقف على
كارت ذاكرة متحرك، كلّفني ثمنهما محصول ليلة من ليالي عوني،
سأتابع شريف في العبر على مدار أربع وعشرين ساعة، كما يجب
أن أعرف ما يفعله سامع معه حين أكون غائباً..

حين وصلت البيت أقيتها على كنبي وارتديت بجانبهما أتأمل
كتالوجاتهما مُحاولاً تخيل الخطوة التالية، أغرفت خلايائي في
الكحول حتى تشبتت وكدت أحترق لما أشعلت سيجارة، لقد نجح
شريف في إفساد التسلسل المنطقي لدراما حياتي الرخيصة الرتيبة
التي يستطيع طفل صغير أن يتبنّاً بِمُستقبلها.. فالأنسطورة تقول:

صديق قديم يظهر من العدم.. متهم بجريمة قتل ..

إما أنه فعلها وما يلبث أن أكتشفه فيعرض عليّ مبلغًا مُغريًّا
من المال نظير تحديد رأي اللجنة في قضيته.. فأرفض وأكون من
الجاهلين! أو أافق، وأدفع بمرضه المزيف إلى منصة القضاء ليخرج
كل أطراف القضية سُعداء..

وإما أنه لم يفعلها حقًا فأساعدوه وأنا مرتاح البال ويخرج الكل
سعداء! أو أفشل، فأكون من الجاهلين..

وفي كل الحالات لن أفوز بالبطلة في النهاية..

شريف كان الدراما الثالثة التي لم تكتب من قبل، دراما ترقص
فوق السلم ما بين نصاب محترف وحالة مستحبة، دارت رأسياً
حول نفسها حتى نفذ الوقود منها، ألعب لعبة أزلية ليس فيها «Game
Over»، استدعيت رقم لبني على تليفوني ثلاث مرات حتى حفظته،
لن يُقيدها معرفة حالة شريف الآن، بحثت عن حجّة أخرى ثُبر
اتصالٍ بها فلم أجده، كما لم أجده تعريفاً لما أفعله سوى:

«اقتراحات مُراهن لرؤيه الفتاة التي شاركه الدرس الخصوصي
بدون أن يبدو سائل اللعاب!».

رائحة لبني لا تغادر أنفي كما لا يغادرني وصف التفاحة
المُستعملة، شجرة الجنة المختمرة، أصبّ الكحول على أفكاري
فتزداد وزنًا، كأساً خلف كأس.. أنسحب وراء ندأة إلى قاع بركة
مليئة بالتماسيع النيلية، عمودي الفقرى انغرز في الكتبة حتى لا مس
البلاط، ولبني جالسة إلى يميني وطفلتى «نور» تقف بجانب كلب
أحلامي الأسود، أنا نائم! لا، أنا مستيقظ وأخرّف، السجارة صارت
ركاماً من الرماد، اعتدلت ونظرت للعقب، سُت ساعات سقطت

سهوا، قُمت إلى الشلاجة العزيزة أجنبي ثمرات ثلجها، تجرّعت كأساً
إضافية واجتررت أفكاري على الكتبة لأتفحصها حتى أعرف سبب
بُطء الفهم الذي أصابني، بعد كأسين أظلمت الدنيا!! حانت اللحظة
التي توقّتها منذ زمن، لحظة ضرب الكحول المغشوش لعصبي
البصري، بصمة الميثانول!

هل الخمر «المضروب» حرام!!

لم أقو على القيام، رفعت يدي أمام وجهي فلم أرها، انطلق
الأدرينالين في دمي فقمت أبحث بيدي عن أي شيء يُضيء حين
تذكّرت الولاعة على المنضدة، رجعت فأسقطت الزجاجة ولم
أكثّر - على غير العادة - بالكحول المُراق قبل أن أغثّر على الولاعة،
فركت حجريها فلسلعت نارها حدقتي، أنا حي أرى، تنفست فالقطّعت
الزجاجة أنعي كحولي الذي شربته السجادة وارتسمت على الكتبة،
لحظات وهاجمني الضحك على فزعِي قبل أن أعي أنني قد أفقت
من سكري في ثانية، كان ذلك حين باعثني الفكرة! لما انقطعت
الكهرباء عنّي تغيّرت كيميائي في لحظة، تبعّر الكحول من دمي
كأنني شربت كوزاً من القهوة ليفصّلني! هذا ما حدث مع شريف،
انقطعت كهرباؤه بعد زيادة ضربات القلب قبل أن يتلقّى شحنة كانت
كافية ليفيق، شريف لما تكلّم كان شريف الذي أعرفه؛ صوته ونبرته،
والقميص!! فتحت الكمبيوتر أبحث عن صورته! لماذا يهتم شريف
بذلك القميص؟

قررت الصورة ولم أتعجب في تحصيل الصلة الوحيدة بين شريف
والقميص، الأرقام، كلّهما يقدّس الأرقام، شريف ينقشها في كل

مكان والقميص ممزخرف بها كورق حائط مكرر، إما أنني قد وجدت
خيطاً، وإما أن إراقة نصف زجاجة (Jack Daniel's) على السجادة
قد لسع عقلي، الخلايا التي حررها الكحول في رأسي ربّت أحجار
الدومينو المُبعثرة، شريف كان ينوي «لهاجس ما» سرقة قميص
المتحف الإسلامي، ذهب إلى هناك ليعاين المكان والتقط صوراً
لنظام الإنذار وشكل القاعة ومكان الفاتورة، لكن تأتي الرياح أحياناً
بما تشتهي السفن، حدث كل شيء يوم الانفلات الأمني، هرع شريف
فيمن عاثوا في الأرض فساداً وانتزع غنيمته، بأقل مجهد..

أما لماذا؟ فسيظل ذلك لغزاً حتى يفيق سيادته، وجهه وهو يصرخ
في لا يُغادر عيني، يمنعني من التفكير، وشمُّه الغريب أيضاً يصيّبني
بع bian لا أعلم سببه، الوشم! بحثت عن محفظتي لأستخرج الكارت
الشخصي الذي وجدته في الزهرية بالشقة، محل رسم الوشم بمصر
الجديدة، مواعيده مكتوبة على الظهر بجانب العنوان..

لم أملك سوى أن أنطلق إلى هناك..

في شارع هادئ ميت متخم بالأشجار عثرت على المحل؛
واجهة زجاجية ضيقه عليها رسم لبوذا في هيشه البدينة، جالسا
ويدها مُخضبان بالنقش ومن خلفه ستارة فضية متلائمه فوقها اسم
«Buddha» مكتوب بلمسات نيون تضيء وتنطفئ برتابة، دفعت
الباب فاصطكَت الأجراس، صالة المحل من الداخل كانت ضيقه،
حيطانه مزدحمة بنماذج وشوم لكل من يبحث عن هوية، جمامج،
موتوسيكلات وحيوانات مفترسة لأذرع الذكور، فراشات، قلوب
معدنه وورود تُضفي على جسد الإناث ما يُضفيه الليمون على
الأفيون، جنون مضاعف! في ركن وراء مكتب جلس شاب رَخْو
كفنديل بحر، قرط في الأذن اليمنى، قميص خرج للتو من فم كلب،
ووشم يحتل ذراعه وآخر يتمشى على رقبته:

- مساء الخير..

- مساء النور.. فيه معاد ولا أول مرّة تشرفنا؟

- أول مرّة..

- لازم نحدد معاد لأن الشغل هنا بالحجز.. فيه تاتو معين...؟

قاطعته:

- أنت صاحب المكان؟

- مدام «ديجا» هي الـ «Owner».. بس عندها «Session» رسم
دلوقت..

- ديجا! أجنبية؟

- ديجا.. خديجة.. «Nickname» ..

- آه.. هاستناها..

جلست قُربه وأذناني تلتقطان أزيز آلة رسم وشم ربيب يشوش
المُوسيقى الهندية المنبعثة في المكان، كسرَ اللوقت تصفحت كتابوج
وشوم كان على المِنضدة، دقائق وتوقف صوت الماكينة قبل أن تخرج
من خلف الستائر فتاة أجبرني وشمها الذي يتوسط أسفل الظهر «بين
النجزتين» على متابعته حين انحنت لتلتقط حقيبتها، قلب أحمر مغروز
فيه سيف مسنون وعبارة لم أقرأها بسبب الالتهاب الوردي، يجب أن
تأتي مايا معي يوماً، سأدعوها لoshem بعض مزاراتها التاريخية العريقة!
تابعت الفتاة الموسومة حتى رحلت حين اختفى الشاب الخر ع خلف
الستائر ثم عاد يدعوني للدخول..

الغرفة كانت واسعة نسبياً، رائحتها بخور مُسكري، غنية بتماثيل
لبوذا بأحجام مختلفة، من عقلة الأصبع لمتر فوق الأرض المكسوة
بسجاد شيرازي مزخرف، ونじفة خافتة تُضيء بالكاد العائط المُزين
بلوحات أبيض وأسود مُبهرة لجلود آدمية وشمَّت بعنایة، بجانب
مكتبة تصل للسقف عامرة بالكتب، وفي المنتصف مِنضدة عليها
مُسدس الحقن والمطهرات وبعض الألوان في أووعية زجاجية،

حين دخلت كانت السيدة على كرسيها المنخفض ترتب أدواتها، «ديجا»، أنشى في العقد السادس من عمرها حاضرت التجاعيد عينيها وافتشرت أفرعها بين ثدييها اليابسين اللذين طلا من فستانها الأخضر المكتوم، جاذبيتها فارسية كزجاجة نبيذ أحمر تعتيق ١٩٤٤، عاشت جميلة في وقت ما، ولم تأس، يحيط برسغيها كمية لا بأس بها من الأحجار الكريمة مغروسة في أساور فضية، في أصابعها خواتم كبيرة متوجة بالعقيق، تعقص شعرها الأبيض الخشن على جانبي رأسها بيايشارب أحمر قان، وتضع في أذنيها قرطين واسعين كأطواق الهولاهوب، لما رأته ابتسمت بصف أنسان اسودت شفوفه ثم أشارت إلى كرسي جلدي مريح أمامها لأقعد وقدمت نفسها بصوت أرهقته السجائر:

- ديجا..

- يحيى..

- برجك إيه يا يحيى..

- برج إيفيل..

ضحكـت..

- ماشي.. شاي أخضر؟

لم تنتظـر إجابـتي.. سـحبـت الإـبرـيق من فوق سـخـان كـهـربـي وصـبـت في كـوب زـجاجـي صـغـير ثم نـاولـتـي.. التـقطـتـ الكـوب فـشـمـمـته حين أردـفتـ:

- دـهـ شـايـ أـخـضـرـ.. مـنـ الـمـغـرـبـ..

- ريحته حلوة..

نطقتها رباء وبالكاد ابتلعته، فأنا لم أذق السوائل غير المُخمرة
منذ زمن..

- أول مرة تعمل ناتو؟

- لا.. أنا جاي...

فاطعنتي:

- استنى ما تقولش..

نظرت في وجهي بتركيز شديد ثم أغمضت عينيها:

- أنت تحتاج.. تحتاج جارح.. رسمة صقر بمخالب كبيرة ورقبته
 مليانة.. وممكن راس ثور بقرون و...

- الحقيقة أنا جاي أسألك على رسمة معينة.. هي معايا..

ناولتها صورة من ملف شريف تبرز وشم ذراعه، حملقت فيها من
وراء نظارتها قبل أن تنقلب ملامحها فجأة، رفعت عينيها إلى بغضب
وقامت مفروعة، دست يدها في حقيتها الشخصية وأخرجت عبوة
«Self Defense» ووجهتها نحوه:

- أنت تبعه.. هو باعترك؟!

- ثانية واحدة.. فيه سوء تفاهم.. أنا...

حقيقة أنا لم أقل كلمة إضافية، فقط تلقيت السائل الحارق
في وجهي لأتشنّج كدجاجة اغتصبها اثنا عشر ديكًا دفعه واحدة،
فلفلة حمراء هُرست بين أنفي وحلقي، ماء نار حَفَرَ حَدْقَتِي وسَالَ

مُخاطي أنهاراً على ذقني، هذا بجانب كُحّة متحجّرة شققت رتني،
كان ذلك حين دخل الشاب الرخو العامل عندها، رَكْلُ خُصيَّتي
بحرفية «كريستيانو رونالدو»؛ لاعب ريال مدريد، بدون أن يسأل
ماذا حدث، تكَوَّمت المَّا لا أدرِي أُمسك بمعدتي التي انقبضت من
الركلة الحَّرَّة المُباشِرة أم أكَحَّ لاستجدي الهواء!

جاهدت لأخرج المحفظة من جيبي فرَكَل الرخو يدي والتقط
بطاقتِي قبل أن ينالها لدِيجا، كانت تمْسَك تليفونها باليد الأخرى
تبحث عن رقم أو هكذا خَبِيل لي ..

- أنا حالفة لو قرب هنا تاني مش هيروح بيته.. معاون مباحث
النُّزَهَة مدينِي رقمه...

بترت كلماتها لما نظرت للبطاقة ورأت صفتِي كطبيب
فأنزلت التليفون:

- أنت مين؟

سؤال متأخر لم أستطع الرد عليه، لكنني أقسمت إني سأقتل تلك
الولية يوماً ما قبل أن أندِّسُ مُساعدتها وأدِّبنات الجاهلية في الصحراء،
أكملت احتضارِي حين أمرت عبدها الأملس برشُّ كوب ماء علي
قبل أن يُساعداني في دخول الحمام، نصف ساعة وبدأت أتمالك
نفسِي نسبياً بعدما تجرّعت لتر لبين واستحمدت تقريباً، أغرقني
الولية أسفاقاً قبل أن أستطيع الكلام، حكَّيت لها عن طبيعة عملي كمقيم
لحالة شريف وعن الجريمة، سقط فكها السفلي على حِجرها صدمة
وخرجلاً من تسرُّعها معي قبل أن أسأّلها:

- أنت اللي رسمي التاتو ده؟

- لأ.. أنا اللي حاولت أشيله.. وما عرفتش!

- أحكي لي..

الشخص ده بمجرد ما قعد قدامي حسيت إنه مش طبيعي،
مجنون رسمي، نظراته غريبة وبيقول كلام كثير بصوت واطي
مش مفهوم، اللي فهمته منه إنه عاوز يشيل تاتو، شرحت له إن فيه
كريمات بتحقن تطلع التاتو لطبقة الجلد المكسوفة ويعمل قشرة
زي الجرح ويتثال، رفض لما عرف إن ده بيأخذ About شهرین،
كان عاوز يشيل التاتو في ساعتها، الحل الثاني إنه يتثال بالليزر
وده مؤلم شوية، وافق، حطيت له كريم بنج موضعی على دراعه
واستنينا ربع ساعة لغاية ما الكريمة عمل مفعوله، بمجرد ما شغلت
الليزر وقربت لقيته بيصل لي وبيضحك وفجأة مسک إيدي، ضغط
عليها لغاية ما كسرها كسر مضاعف.. بُص..

كشفت عن رسغها فوجدت فيه أثراً داكناً والتواء يُلاحظ بصعوبة..

تراجعت في تلك اللحظة عن فكرة قتل تلك الولية، لكن وأد
عبدها الرخو لا تفاوض فيه..

ارتشفت شايها الأخضر تهدئة لأعصابها التي توترت ثم
أكملت:

- كتم بقى عشان ما أصرخش وسحلني لغاية الرُّكن وقعد فوقِي،
فيصل على ده الحال يمكن خمس دقائق، آخر حاجة قالها لي إنه
هيبيت صديق يخلص عليا، ده اللي قدرت أفتكره لأن بعد كده أغنم

عليا من الـ «Pain».. ده يفسر رد فعلي معاك.. أنا آسفة.. أنت مش متخيّل.. بس أنا اتبهدلت..

- الرسم اللي على دراعه ده ليه معنى؟

التقطت الصورة ورمقتها ثوانٍ:

- مش فاكرة إني شفت حاجة بالـ «Finish» ده قبل كده..
الـ «Style» شرقي بس I'm sure إنه معمول بره مصر.. للأسف
ما عندناش المَكْنَن ده..

- أي معلومة توصلني لحاجة؟

- أنا آسفة.. كان نفسي أساعدك..

قمت مستأذنًا حين تذكّرت صورة شريف وبسمة على الشاطئ،
أخرجتها من محفظتي:

- شفتني البنت دي قبل كده؟

التقطت مني الصورة وسجّلت نظارتها المدللة على صدرها بحبل
رفيع ودققت النظر..

- لا..

- متأكدة..

.. «Sure» -

- التاتو اللي على الفخذ ده... .

- في الغالب ده حنة مش تاتو.. وممش قادره أشوف الرسمة..

تركتها ورحلت بعدها رميت عبداله الهزيل بنظرة وعيدي.. اللغز
يزداد وضوحاً.. أو إعتاباً! لم أعد أعرف!

حادثة ديجا تؤكّد أن شريف قد يكون أول حالة ازدواج حية
أصادفها في حياتي..

سجّبته قدماء للمستشفى، كان الوقت ليلاً حين وصلت،
مِيعاد مُناسب لسرقة شجرة بجذورها إذا أردت، تمثّلت في الطرفة
حتّى أصبحت أمام غرفة التمريض، مظلمة كانت، يملؤها المُمْرض
النوباتشي بشخيره ورائحة قدميه، لما اطمأنّت أنّه ميّت بسلام
أخرجت كاميرا المراقبة، بحثت لها عن مرقد في مواجهة الزجاج
فوق دولاب يطل على العنبر، وجهتها إلى حيث تكشف الأسرة
كلها بعدها أخفيتها في زاوية لن تراها عين، ثم اتجهت إلى غرفتي
وفتحت مُستقبل الإرسال حتّى التقط الإشارة، جربتها على كمبيوتر
المستشفى فوجدت النتيجة مرضية، صورة تُلقط للعنبر كل ثانية
توضّح خط سير النزلاء وكل حركة يأتونها، ستكون عيني على
شريف في حالة غيابي، وضعّت المُستقبل في درج أخذت مفتاحه
معي قبل أن أرحل..

لما وصلت أمام البيت كانت النوافذ مُضاءة، لا يجرؤ على تلك
الفعلة سوى الوحيدة التي تملك مفاتحي؛ مايا، زيارتها الأسبوعية
التي تعني لي الكثير! ما إن تدخل حتّى تُبعثر هرموناتها الأنثوية في
كل ركن، فالمسكينة لديها موسم تزاوج محدود، فقط اثنا عشر شهرًا
في السنة! تأتي كيّفماشاء، وقتماشاء، تشر أغنياتها في سَمَاعاتي
وتطلب طعامها جاهزًا من مطعم إيطالي قريب! أحياناً تُعيد ترتيب

البيت بعد الفوضى التي أعيش فيها، أو تُحدث فوضى أكثر مما أصنع،
لا يهم، ما يهم هو كسرها روتيني، وتغييرها هواء شفقي ورئي،
تجلس في مكانها المفضل أمام منضدة غرفة المعيشة، تفتح قناة أفلام
أجنبية على فيلم رومانسي، أو رعب، ثم تُخرج عدّتها؛ زجاجة فودكا
«ID»، حبات الـ «Acid» المقدّسة عند قبيلتها، وسجائرها المحسوسة
بخيرة الحشيش المغربي..

مايا في المعجم: إلهة الخصب والربيع عند الرومان، وعنديونان
أم «هرمس» من كبير الآلهة «زيوس»..

لما دخلت لمحت ساقيها متقتني الرسم متشابكتين فوق الكتبة،
لعن الله من اخترع الكعب العالي لينحت السمانة مع المشي بذلك
الشكل، أصابعها الدقيقة مطلية بلون لبني فاقع والدخان يتتصاعد
إلى السقف فوقها، لما سمعت صوت مفتاحي انتفضت كمن رأت
فأراها، جريث نحوى لترشق في صدرى احتضاناً وتلف ساقيها حول
ظهرى، كعهدنا دائماً، خفيفة كحمامه، غضة كمخدات صدمات
السيارة الفارهة، وناعمة كرخام إيطالي مصقول..

- يا نهار اسود.. حلقت دنقك !!

- معلش.. الجو بقى حر..

- يا تعان! أنت عارف إني باحب دنقك !!

- هتطلع تاني يا مايا! هو أنا قلت إني عملت ليزر!

قبلتني قبلة تبادلنا أثناءها الأنفاس واللّعاب ولبانة بنكهة الفراولة..

- إياك تحلقها تاني .. أنت فين؟ ما جيتش «Deals»! ومش بترد
عليا.. فلقتني !!

- أنا كويٍس ..

أجلستني على الكنبة وجلست فوقى، ثمانية وخمسون كيلو
من الرفاهية:

- مالك؟

- مافيش .. فيلم أجنبى كده ..

- أحكى ..

- رجعت الشغل .. في المستشفى ..

- رجعت المستشفى !! أنت عاوز فلوس؟

- لا ..

- عاوزة أسمع ..

- مايا أنا تعان ..

- جايبة النهاردة «Stuff» هيطلع الهرم جري ..

- أنا مأفور من غير «Stuff» ..

- وفيه مفاجأة !!

قالتها وأخرجت من حقيبتها زجاجة أعرفها، متوسطة الحجم
مرسوماً عليها عين حدقتها خضراء ورموشها من الفضة تشعّ حولها
كأشعة الشمس، تحوي سائلًا أخضر رائقاً وتحمل اسم «La Fee
Verte - Absinthe

الجنيّة الخضراء.. نكهة اليانسون + ٦٨٪ كحول..

لم أفقد خالتى رحمها الله مثلما افتقدت تلك الزجاجة..

- جات لي من بره.. قلت مش هافتتحها من غيرك..

مايا.. لا دين لها..

الشبق فوق شفتيها أشعّل حماسي، ناولتني كأسين فوضعت فوق
أولاًهما مصفاة صغيرة أتت بها من المطبخ وألقيت فيها قالب سكر،
فتحت الزجاجة وصَبَّيت السائل الأخضر على القالب فتخلله، رُبع
الكأس كان كافياً، التقطت ولاعنة وأضرمت النار في القالب المشبع
بالكحول، ارتفع اللهب الأزرق وترافق قبل أن يتحول السكر إلى
«كراميل» يتسرّب من الفتحات الضيقة إلى القاع، ثوانٍ وأسقطت بقايا
القالب في السائل الأخضر فاشتعل، قبل أن أضيف ببطء بعض تونيك
الليمون حتى امتلأت الكأس وناولتها، احتضنته براحتها واشتمت
طرفه ثم تجرّعت ستيمرات الجنون بعينيه، أغمضت عينيها وارتخت
على الكتبة مُبعثرة ساقيها شرقاً وغرباً:

- فتني ؟!

صنعت لنفسي كأساً آخرى وارتميت بجانبها فنظرت تجاهي..

- فيه إيه أحكي لي ؟!

سألت مايا.. ولم يكن لإنسان على وجه الأرض من بعد أبينا آدم
أن يُوقِّف إلحادي مايا إذا بدأ..

مايا في بعض المعاجم الفينيقية القديمة: إلحادي مُراببي يهودي
على ماله + فائدة مُجحِّفة..

حين أنهيت قضتي حول صديقي وأخته العائدَيْن من الظلمات
كانت هي قد جحظت عينها والتهمت سجارة محسوسة واحتضنت
كأسها الثانية..

- أقول لك على حاجة بس ما تفهميش صَح.. أنا عاوزة أنام
معاك دلوقتي حالاً..

- تصدقني أنت فصلتني..

- مش قصدي والله.. بس وأنت بتحكي شفافيك تجنّ.. ومن
كتر ما أنا متوترة جَت معايا على نوم.. اللي فاصلني منك بس الهران
اللي عمرك ما حكى لي عنها..

- الموضوع ده انتهى أصلًا قبل ما يبدأ..

- طريقة كلامك عنها بيقول إنه ما انتهاش.. أنت مش شايف
نفسك..

- مايا أنت سكرانة..

- أنا مش سكرانة..

- سكرانة.. بس مش هاكتب عليكِ لما شفتها اتلخبطت
شوية..

- دوتها؟

- مايا!!

- مافيش حد بيتلخبط كده غير لما يكون داق اللي بيجبه..
»At least« بوستها؟

- وافرضي !!

- تبقى بوستها.. وطعم شفافيفها لسه في بُقك.. لسه بتحبها؟

- حُبّا بخلاف إن الكلمة دي مدارس أوي.. بس بتلخص رغبات وسخة مكسوفين نقولها.. ما فيش حاجة اسمها حب.

- ده كلام خطير !

- يا بنتي لو قعدنا نحب في بعض أسبوع ومفيش «Sex»، هتف في بُق بعض.

. «Disgusting» -

- العلاقة رغبة.. إعجاب.. مطاردة.. صيد.. «Sex».

اتسعت حدقة عينيها شبقاً..

- طب وأنا وأنت في أي مرحلة دلوقي؟

- في الشقة.

- بطل رخامة أنا مش عيانة من بتوعك ما تلاعبنيش.

- إحنا عدّينا المراحل دي كلها.

- يحيى.. عارف.. أنت عمرك ما قلت إنك بتحبني.

- لأنّي ما بحبكيش.

رفعت شفتيها باشمئاز قبل أن أتداركها..

- أنا جعانيك.

- هييجي يوم وتشبع.

بشرود خرجت مني ولم أقصد..

- يمكن.

زمنت شفتيها ولقت شعرها بعصبية كحكة فوق رأسها ثم أردفت:
- أنا فلت لك إني باحبك تاني يوم نمنا مع بعض.. وجودك معايا
فارق.. عارفة إنك رافض تتجوز بس مين عاوز.. *May be أنا أتجوز..*
بس *Sure* مش عاوزة «Kids».. ما باقدرش أقعد معاهم أكثر من عشر
دقائق! ولو إني مش هلاقي حد زيك.. وغالباً هاجيلك أزورك.. أنت
عارفني أنا آخرى تلات شهر مع أي حد.. ساعات باستغرب أنا ليه مش
عارفة أزمق منك.

- مش عارف.. مع إن أنا زهقت مني!

- أنا عارفة مش بازهق ليه.. عشان أنت مش طبيعي.

- إيه؟ بتلات رجالين؟

ضحكـت في غـنـج فـاستـدرـكتـها:

- ده أنت دماغـك وـسـخـة.

- أجمل حاجة فيك إنك فاهمني.. وده عمرـي ما قـابلـته.. أنتو
أغلـبـكـو أصلـكـو دـمـاغـه مـحـدـودـه.

- ده شغـلي.. أفهم الناس.

- بـسـ؟ يعني أنا بالـنـسـبة لـكـ شـغـلـ؟

صورة لبني في مخيـلـتي أـفـقـدـتـني حـسـنـ الدـعـابـةـ.. كـلـ شـعـورـ ظـنـنـتهـ
صادـقاـ اـخـتلـ وـدـبـ فيـهـ الشـكـ بـعـدـ عـثـورـيـ عـلـيـهـاـ.. فـقـدـتـ قـدـرـتـيـ عـلـىـ

مُغازلة مايا.. مُمثل نسي نصه.. وحتى تملّقها بكلمات من وراء قلبي
لأستبقيها؛ صار حجراً كثيراً على صدرني لا أستطيع زحزحته..
ظننتني يوماً أحبها.. ظننتني يوماً نسيت لبني!

- لا.. أنت مايا.. مش شغل.. بارتاح وأنا معاكي وأنت عارفة..

خرجت بصعوبة..

- طيب ومعاه؟ لبني؟

- ما فيش.. صدرني اتحرق بس لما شفتها عشان.. عشان يعني..

حرفان!!

- لو بتحبك بعد كانت حاربت عشانك.. لو مطرحها كنت لميت
هدومي وجيست عشت معاك..

- يا بنتي أنت فاقدة أصلًا.. لبني لو حاربت أكيد ما كتتش أنا
هاتجوزها من ورا شريف.. ده غير إن شريف اعتبرني خاين لما
عرف علاقتي بيها..

- ومن ساعتها...؟

- من ساعتها ما عرفتش أمشي.. الحياة ببساطة.. عطلت..
آآآ.. اتشليت.. فقدت حاسة الشّم.. مش عارف.. عطلت.. أنا مش
رومانسي.. بس اتكلبت على ضوري زي أي صرصار محترم..
اتجوزت لأن المفروض أتجوز.. زي ما بتاكلني عشان جسمك عاوز
غذا.. بس نفسيك مش عاوزة..

- ولغاية دلو قتي عطلان؟

- دلوقت أنا خلاص.. ظبّطت حياتي.. بشكل ما.. مش عارف إيه أم اللي جابها تاني.. مش وقتها.. مش ساعات كده فيه حاجات صحّ بييجي في وقت غلط؟ صح؟

- كان نفسك تكون جاية لك «Single»؟

تجرّعت كأسي الثانية ولم أجب.. ثم قررت أن أجوابها:

- يمكن..

- يمكن؟

- يمكن رد اعتبار..

- انتقام؟

- أنا مسامحها..

- أنت هايج!

- مش كده يا مایا.. مش بافکر كده..

ـ أنت اللي قلت إن ما فيش حُب..

ـ آه.. بس.. ده حاجة تانية..

ضاقت حدقة عينيها غضباً..

- تبقى لستة بتحبها!

- أنت سكرانة..

- لو فايقة كنت اتخانقت معاك.. إحنا متعودين على الصراحة
ـ صح؟ جاوب..

- هي بس.. بـّر جلتني.. عادي.. عمرك ما اتبر جلتني لما قابلتي واد
كتني ماشية معاه أيام الكلية!

- ممكن.. وإيه اللي كان عجبك فيها؟

- دماغها.. عاقلة.. بتفهمني..

- لو كانت وحشة كنت هتقول نفس الكلام؟

- وعودها حلو.. باحب عينيها أوي.. ودمها خفيف..

- ها وإيه كمان؟ ده أنت محروق موت!

- محروق عشان في يوم من الأيام.. كنت فاكرها هي.. هي اللي
ممكِن تقف الحياة عشانها.. بس طلعت مش هيّ..

الجملة الأخيرة كانت الكذب بنفسه حين يمشي على قدمين..
لكنه نجحت في إسكات مايا..

- مashi.. هتكتب فعلًا الدكتوراه؟

- دكتوراه! أنا مشحتاج الدكتوراه.. زماله من أي نيلة بـّره تكفيوني
لما أبقى عاوز أكمل الشغلانة المهيبة دي.. أنا قاعد لغاية ما موضوع
شريف يخلص.

- أنا مش مصدقة صاحبك ده!! حاسة إن فيه حاجة غلط..
بيشتغلوك.. بيشتغلوك.. بيشتغلني أنا كمان.. ممكن تكون لبني
كمان بيشتغلوك!

- لبني لأ.. لبني أنا أعرفها زي كف إيدى.. فف.. أنا دماغي
وقفت.

نظرت لي بابتسامة خبيثة..

- طب يله.

- الله يخرب بيت دماغك!! باقول لك تعان.

لم أكمل الجملة، قفزت فوقني وقبلتني عَضًّا، سرت الكهرباء في جسدي فابتسمت:

- بطل غلاسة.. «Relax».

أجمل ما بيني وبين مايا أنها لا نصل لمرحلة العراك.. سبعة أمتار قبلها ونتوقف أوتوماتيكياً.. بتصالح مع النفس اتفقنا «بدون أن نتفق» على أن تكون علاقتنا فريدة من نوعها.. نسيح في الحياة كيف نشاء.. وحين نلتقي:

العشق كما ينبغي أن يكون.. وكل أمر متاح حتى أبعد الحدود.. قبل أن نعود ثانية لحياتنا..

لا غيرة..

لا تليفونات أطمئنان كل ست ساعات..

لا عتاب على توافه..

لا التزام..

لا حديث عن المستقبل..

نساء الأرض عادة يحتاجن سبيلاً لإقامة علاقة مثل تلك.. مايا تحتاج فقط..

شقة حالية!

مايا في مُعجمي: كوكيل من ويسيكي، نيد، عرقى، فودكا،
كامباري، سيدار، B52، ساكي، براوندي، كونياك يوناني، روم، تيكلا،
بيرة، شامبانيا، آيرش كريم، وحتى بوظة بلدي بالفول النابت !!

اتزنت على رُكتبي ونشرت شعرها في وجهي ثم أخرجت من
حقيتها علبة شفافة صغيرة التقطت منها قرصاً لون العاج، عليه
رسم لفيل أزرق بأربع أذرع، رافعاً خُرطومه إلى أعلى ويُمسك بيده
 شيئاً لَمْ أَمِيزْهُ ..

- إيه ده؟

- ده الفيل الأزرق.. «Stuff» مش هاتصدقه.. أول مرة ينزل مصر..
جيته من «Dealer» جنبك هنا في المعادي..

- ماليش في الكيمايا..

- دي مش كيمايا.. دي تذكرة لعالم البرزخ.. تذكرة رايح جاي..

- البرزخ!

- البرزخ..

- البرزخ اللي هو بعد الموت! ده «LSD»؟

- الـ «LSD» ده لعب عيال.. ده اسمه «DMT»..

- أية يعني بيعمل إيه؟

- دي مادة اكتشفوا إنها بتفرز في الإنسان وهو يموت.. بتساعده
بـ «Relax» وهو بيستقبل العالم الآخر عشان ما يتصلدش.. رحلة
مدىتها ساعة واحدة.. ت Shawf فيها اللي ما تحلمش تشوفه.

- ما باحبش أبلجع حاجة ما أعرفهاش.

- أنت مش بتقول إن حياتك عَطْلَانَة.. هتخسر إيه؟

جميل أن تأتي الفلسفة والمنطق من فم مايا..

- أشوف فيها كُل اللي نفسي أشوفه..

- كُل اللي أخدوها حياتهم اتغيرت.

قالتها وغضّت على شفتها غنجاً، قد يكون ذلك ما دفعني يومها لتركها تضع الفيل الأزرق «بِرْلُومْتَه» فوق لسانِي قبل أن أبتلعه بكأس الـ «Absinthe» الثالثة..

هل تابعت برنامج «أسبوع القرش» على قناة «National Geographic»؟

استرخت في الكتبة تاركاً نفسي بين يديها، وساقيها! تلك الليلة كان عليها الكثير من الواجبات سأتجاوز أدباً عن شرحها، يكفيوني يقيني أنها تستحق دكتوراه مع مرتبة الشرف في تخصصها وتكريمها من الملكة الأم في إنجلترا ولقب دوقة، أسللت جُفونِي وحاولت الاندماج فيها حتى أذنِي مُجاهداً للطرد الأيام الماضية من رأسي..

وربما مَحُوا وجه لُبْنِي التي التَّصَقَت صُورتها في بَطْنِ جُفونِي، كلما أغمضت عيني رأيتها..

هل لاحظت أن مقلوب كلمة قِرْش.. «Shark» !!..

بعد ثلث ساعة كان الفيل الأزرق قد تولى الدفة، عَرِفت ذلك حين بدأت الغرفة تنسع، قبل أن يبدأ كل شيء حولي ينبض، بانتظام،

يتنفس انقباضاً وانبساطاً في إيقاع ثابت كأنني في قاع بحر، الأثاث
 يتعد ببطء نحو الحوائط، الرسم على السجادة يتلوى كأنه الثعابين،
 وورق الحائط المنقوش بدأت أغصانه تصعد «لبلائيَا» إلى السقف!
 هلوسة مُقنعة راسخة مُطمئنة كجبل على الأرض!! الذي كتب «ألف
 ليلة وليلة» يعرف ما أقصده، التفاصيل أصبحت حادة والألوان
 ازدادت زهواً كأنني في معرض زهور يابانية، قبل أن تنحصر الحياة في
 منطقة ضيقة بين البنفسجي والأزرق، ثم غزا العشب الأخضر أرض
 الغرفة تدريجياً، الأخضر له نعومة خرير شلال كاريبي، البنفسجي
 له رائحة البخور الهندي الذي اشتمنته في محل الوشم، أما الأزرق
 فصوته يشبه صفاراة قطار متظاهرة تأتي من بعيد! مقارنة بعهد ما قبل
 القرص كنت أعيش في فيلم أبيض وأسود مخربيش، على ذكر الأفلام
 القديمة عبر أمامي أنور وجدي وليلي مراد، مرا في طريقهما للحمام
 وابتسمت لي ليلي بصف أستانها البراق، تبدو أقصر مما تظهر في
 الأفلام، لكنها فاتنة! تفاديا بالكاد ساقي مايا المنفرجتين ولمبات
 النيون التي تلوّت مثل الحيات تُبغ كهرباءها قرب رأسيهما فوق باب
 الحمام، متى ركبت تلك اللعبات؟ كتفا مايا الناصعتين انسابتا مثل
 الشمع على صدرِي، نمشها المتشوّر كالنجوم فوقهما عبق الكاكاو،
 وثديان مقاس «34C» مثاليان يدوران كما تدور الأرض حول نفسها،
 ٤٦٤٤ كم / ساعة، عرقها تبع نكهته فانيليا، وشعرها شديد الحمراء
 يموج في وجهي، شعرها أسود! لا إنه شديد الحمرة، لم ألحظ أنها
 صبغته!! باتت تُشبه معشوقتي الفرنسيَّة «Eva Green» في فيلم «The
 Dreamers»! من النساء من هن جبنة «روكفور»، ومنهن من هن
 القشدة والزبدة والحليب كامل الدسم، كم أنا محظوظ! لم ألحظ

ذلك من قبل، ولم الحظ الوشم فوق فخذها اليسرى، وشم على شكل كلمات.. لا.. أرقام ! ٩٠١١٠٢٠٠٤، أحد عشر رقماً مكتوبًا بحبر غير ثابت ما إن لمستها بأناملِي حتى استحالَت حشرات صغيرة وانسَلت من بين أصابع قدميها التوْه في العشب الأخضر الذي كان قدِيماً.. سجادة..

هل تابعت برنامج «الحشرات» على قناة National Geographic؟

هل لاحظت أن مقلوب كلمة «حشرات».. لا تُمْتَّ بصلة!؟! Bugs!

أين نظارتي؟ لم أصنعها بعد.. لكنني أستطيع رؤية السقف بوضوح والحشرات الصغيرة تجتمع في أركانه، كما أرى بوضوح الأبواب التي أحاطتنا! اللعنة على صاحب البيت! رجل بلا ضمير.. ثلاثة أبواب يخفيها عنّي! ثلاثة أبواب مغلقة بمقابض فضية، عدّا واحداً بدا مُواربًا يتسلل منه ضوء أصفر باهت، تَجرَعَت باقي كأسى ترطيباً لريقي الذي جف على عنق مايا ثم أنزلت ساقيهَا من فوق كتفي بعدما أنهت صراخها وكفت عن نداء اسمى كالثالثة وَخَمَدَت كفَشَرَة موز..

- لم تُعد تُشبه Eva Green !!

أزحتها برفق ثم قمت للباب الموارب، أشعر بالبرد رغم الجوّ الحار! بصعوبة أمسكت المقابض الذي يَطِنَّ كعش دبابير مزدحم ودفعت الباب ودلفت.. تلك الغرفة!! تلك الغرفة أعرفها جيداً.. إنها لا تنتهي لهذا البيت، تسمى لشقة شريف المعادي، غرفته بالدور الثالثين !!

«Mother Fucker» بالإنجليزية تعني «تبًا» بالعربية..

كُل شيء في الغرفة كان كما هو، الحوائط المتتسخة، الكنبة المُغتصبة، المكتبة ووراءها الأرقام، وصوت الهواء يصرخ في النافذة المفتوحة كامرأة فقدت ثديها الأيسر للتو، نَظَرَتْ خلفي لأنَا تابع مَا يَا فوجدتها على الكنبة نائمة وأطرافها الستة مُرْتَخِيَة بـعِجَانِهَا! لَعْنَ اللَّهِ الشَّعْرِ الْأَحْمَرِ وَطِلَاءِ الْأَظَافِرِ الْلَّبَنِيِّ حين يجتمعان مع ذلك الصدر! اتجهت إلى النافذة لأغلقها، أتحرّك ببطء كأنني في قاع بحر، كأنني فيل أزرق، وصلت للنافذة بعد رُبْع ساعة وألقيت نظرة، مياه النهر العتيق كانت تناسب ببطء الزيت، يشقّها صندل صَدَئ يَحْمِل على ظهره شُحنة قَصَبٍ، يُصْدِرُ مُحرَّكه زَمْجَرَة رَتِيبة أزعجت الغَرِيَان ففترت إلى الضَّباب الذي افترش أرض جزيرة الذهب، أمسكت المقبض لأغلق النافذة حين أوقفني حفيض الخطوات، يبطئي الـلـاـإـرـادـي استدرت فرأيتها قرب بـابـ الغـرـفة.. بـسـمـة.. رـحـمـهـاـ اللـهـ!

لـعـنـ اللـهـ «ـمـاـيـاـ» إـلـهـةـ الـكـيـمـيـاءـ!

لم أكن لأخطئها رغم علاقتي بها القائمة على صور الجريمة فقط، عارية كما ولدت، كما تريدها أن تبقى وتدوم! مُتناسقة كمامسة في خاتم، جذابة كـإـلـهـةـ روـمـانـيـةـ منحوـتـةـ في رُخـامـ، حتـىـ جـرـوحـ الغـلـ البنفسجية التي قرأتها في تقرير الطب الشرعي لم تزدها إلا فـتـنةـ، يـبـدوـ أنـ سـادـيـتـيـ دـخـلـتـ في طـورـ المـرـضـ!ـ المـفـاجـأـةـ أـنـهـاـ لاـ تـشـبـهـ «Eva Green»، بل أـجـمـلـ، لـؤـمـيـ لـشـرـيفـ على تصـوـيرـهـاـ يـعـدـ هـرـ طـقةـ وـتـجـدـيـفـاـ،ـ لوـ اـمـتـلـكـتـ كـامـيرـاـ الآـنـ لـقـتـلـتـهـاـ فـلـاشـاتـيـ حرـقـاـ،ـ اـقـرـبـتـ،ـ عـيـنـاهـاـ ذـاهـلـتـانـ وـكـحـلـهـماـ سـائـلـ عـلـىـ وجـتـيـهـاـ فـيـ يـأسـ،ـ مـلـامـحـ الـأـلـمـ

تتجول في وجهها، ونهر دموي رفيع ينساب من بين فخذيها في نبضات تخضب خطواتها على الأرض، ونهر آخر يخرج من مفرق شعرها إلى جيئتها، احتضنت أسفل بطنها ألمًا وكادت تهوي فلم أتمالك نفسي، ركضت إليها فلم تتحرك قدماي، عمودا خرسانة دُقَّا في الأرض، تمالكت نفسها وشفتها ترتعشان في وَهْن، حاولت أن أناديها، ازدحمت الكلمات في حلقي فأغلقته، وازداد الشلل وطأة حتى نسيت أن أتنفس! اقتربت، لامس شعرها المتطاير رُسْغِي وهي تمر، تلاقت عينانا للحظة، لحظة فريدة جمعت الجمال والألم، لا أعرف هل رأيت استجداه أم ابتسامة مكسورة! عند النافذة لَطَم الهواء شعرها الغجري فتبعثر على صدرها وكشف عن كتفيها البديعين؛ قبل أن تصعد فوق إطار الشبّاك الذي انغرس في فخذها، نبضات قلبي ازدادت اضطراباً لما أصبح ظهرها للهواء وساقاها في الغرفة قبل أن تتنزّن وتَسْكُن، الدَّمْ نَيَّذ أحمر ينسال من بين فخذيها على الحائط في فيضان ضعيف لا يتوقف، ناديتها ولا أتذكر بماذا ناديت! ولا أذكر أني حتى سمعت صوتي يخرج، نظرت خلفي أستجدي مايا أو ألغت انتباها فوجدها واقفاً خلفي! شريف!! هيشه كما رأيته في صورة المرأة، ذاهلاً شاحباً، صدره عاري والقميص في يده، يده الخالية من الوشم!! لا أثر للرسم على ذراعه التي اعتصرت القميص بغل كأنه سيهرب! اقترب منها وابتسمت له! نظر لها بحنان وحزن وحواجب مُشفقة، الغرفة ازدادت وسعاً كملعب كرة بلا مُدرجات! يجب أن أفيق، أن أستيقظ، لا أستطيع أن أراه وهو يلقيها.. هل قلت يلقيها؟ كلما اقترب شريف منها صارت الغرفة أكثر زرقة.. أزرق دم غزال.. وصارت ملامحه أكثر صرامة وتصميماً..

قدماي تنهار ان من تحتي .. بسمة تنظر إلي .. تستغيث .. قالت كلمة
لم أسمعها .. كررتها فقرأت شفتيها .. أكاد أجزم أنها قالت اهرب ..
تأمرني .. في تلك اللحظة لامسها شريف .. بات بين ساقيها .. تركتني
ونظرت في وجهه .. قبلها فانصهرت بين يديه .. ثم انصرفا في عيني ..
لم أعد قادرًا على المقاومة ! فقط ترتحت كمكواة وسقطت ..

بجانب قدم فيل أزرق ..

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الابتسامة

الفيل هو أكبر حيوان بري يدب على الأرض، نباتي؛ يتغذى على الجذور والأعشاب والفواكه، يمكن للفيل البالغ أن يستهلك ما يصل إلى ١٣٦ كيلوجراماً من الغذاء في يوم واحد، هذا الحيوان لا ينام كثيراً، من الجوع، يتجول لمسافات كبيرة تطلاعاً لغذاء يكفي جسمه الضخم، أثني الفيل لديها أطول فترة حمل، تصل إلى اثنين وعشرين شهراً، خطم الفيل الطويل يستخدم للتنفس، الصراخ، والشرب، ويحتوي وحده على حوالي مائة ألف عضلة مختلفة..

حِرَصًا وتقديرًا، والتقطت حَمَالَة الصدر التي أحسدها على وظيفتها الإنسانية، وجدت في كفتها اليسرى بقايا قِرش الحشيش فدسته في اليوكسن ! ما يَا لا تعرف أيها حين يتعلّق الأمر بالحشيش !

۱۰۰

دلفت المطبخ أبحث عنها حين التقطرت صَوت دُش الحمّام،
مَايا تغسل خطايا البشرية جماء، صَنعت لنفسي كوب قهوة «دوبل»
واستقررت فوق منضدة المطبخ أنتظر صفارة الغليان حين داهمني
وجه بسمة، على بُعد سنتيمترات من وجهي تصرخ:

اہر ب..

سرى في جسدي تيار كهربى فسقطت من فوق المنضدة! قبل أن أصل للأرض تداركت الحلم فجأة، كان منسيًا في ركن من أركان عقلي، لقد رأيتها، رأيتها ولمستني! ورأيت شريف، أغمضت عيني مُحاولاً الحفاظ على بقايا الرؤية التي شاهدتها، كتمت أنفاسي وغطيت أذني بيدي حتى لا تهرب التفاصيل، استجمعت المشهد كاملاً في لحظة:

اہر ب

لِمَ نصَحُو دَائِمًا قَبْلَ النَّهَايَةِ؟! قَبْلَ سُقُوطِنَا مِنْ سَلَّمٍ وَقَبْلَ حَرِيقَنَا
فِي فَرْن.. وَقَبْلَ أَنْ يَمْزُقَنَا وَحْشٌ ..

وقبل أن تموت «بسمة»!

هل ألقاها؟ أم ألقت نفسها؟ فتحت عينيّ لما ظهرت كلمة النهاية
في جفوني، اختفى اللون الأزرق وكفت الحوائط عن النبض!

لم أعد في المطبخ !!

أنا مُستلِقٌ على كنبة الصالة، وبحاجبي مايا توليني ظهرها الموشوم، متى رسمته؟ وجه «جَدي» كبير مُشعر مُتقن الرسم، قُرونِه طويلة تصل حتى كتفيها، جدي !! اللعنة على ذوقها، عَقرب ساعة الحائط يَسِير بشكل جيد! عَكس اتجاهه!! والكلب الأسود رابض أمامي يحرس مدخل الغرفة، يَرْمِقني بمحجرِيه الدمويين وصاحبِه من ورائه، صاحبه الذي زارني منذ أيام، غارقاً في ظلام الغرفة لم أتبين ملامحه، فقط أعرف أنه ينظر لي، يتخللني، ينهشني، نظرت لمايا فرأيت الجدي الموشوم يتنفس على ظهرها فلم أشأ أن أزعجه، حاولت القيام فتأهّب الكلب، غَرَّزْ برائته في عشب الصالة الأخضر وزَمْجر، نظرت لصاحبِه فلمحت ابتسامة..

ابتسامة سخرية..

كان ذلك حين فتحت عيني ..

صَاحِبَا!

بالطبع ذهبت لشركة النصب التي تعمل بها، رجعت للصالحة ووقفت
أتأمل الكتبة، مايا ذهبت لعملها وتركت حشيشها، زجاجتها، حمالة
صدرها «المحظوظة» ولباسها الأرجوانى المقدس! مُحال!! أمسكت
تليفونى وضررت اسمها فلم أسمع نغمتها!! مايا!!! دُرْت في الشقة
مرّتين قبل أن أخرج للشارع، وقفـت «عيطًا» لا أعرف أين أذهب،
أجول بعيني بحثاً يميناً ويساراً، وعند أقرب كشك، قبل أن أنتبه
لجارتي المسنة التي وقفت ترمقنى؛ مدام كوثر، تكرهـنى تلك السيدة
منذ ماتت زوجـتـي، كانت صديقتـها وأمـا ثانية لها، وبالطبع حـكت
لها عنـي وكيف كانت الحياة «مثالية» بينـنا، فكيف حين تـرانـي واقـفاً
بالبوكسـر في عـرضـ الشـارـعـ!

المحة كلها..

- صباح الفل يا مدام كوثر ...

حرقتني بنظراتها وانسحبت للداخل.. فلتذهبى للجحيم
على حسابي..
أين مايا؟

لابد للأقراص اللعينة التي بذرتها فوق لسانينا أن تكون لها يد في اختفائها! هذا بخلاف الـ «Absinthe»، كوكتيل الجنون، ربما فررت مايا أن تتمشى على الكورنيش بتلك «الدماغ»، اللعنة! ما نوع ذلك القرص؟ قرص الفيل الذي فتح لي ثلاثة أبواب لم أتفقد منها إلا واحداً، لكنه باب بآلف باب! قلبت حقيبة مايا حتى عثرت على العلبة، كانت فارغة لا أفيال فيها، أحتاج قهوة، لا، بيرة مثلجة، اتجهت للمطبخ ورفعت زجاجة نسيت أن أضيفها الهرم الزجاجات، يطاردني

ها جس أن المجنونة قد تكون ركبت ميكروباص إلى دار السلام! لا أستطيع تخيل ذلك الكابوس، غسلت أفكاري ووجهي في حوض الحمام حين لاحظت الدماء في يدي، نثرات خفيفة حول قبضتي وقرب رُسغي، دماء جافة مرّ عليها ساعات بجانب ورم خفيف في متصرف البنصر!! غسلت يدي بالقلق والتوتر قبل أن أرتدي ملابسي لأبحث عنها، في الطُّرقة أو قفي بباب الغرفة، غرفة ابتي نور، بابها الذي لم يُفتح منذ ماتت، كان مواريًا! فتحته، الظلام كان مُسيطرًا رغم النهار، ستائر الغُرفة القرمزية ضربتها الشَّمس فسكت نبيذها على الدولاب والسرير وصور ابتي التي غطّت الجدران، كُلّ شيء في مكانه كما هو منذ خمس سنين، لعبها، دولابها الوردي، وبيجامتها المفضلة، فقط تفصيلة واحدة كانت غريبة على الغرفة، مايا! كانت راقدة متكونة في متصرف الغُرفة، تَضُم ساقيها إلى صدرها وجبهتها مدفونة بين ركبتيها، ذراعاها مُرْتختان بجانبها وشعرها مسجى فوقها ناموسية تُخفي ملامحها، تهزّ جسدها إلى الأمام وللوراء في رتابة.. أسطوانة مشروخة..

- مايا !!

توقفت عن الاهتزاز وإن لم تجب، اقتربت منها وجوهت على ركبتي، ما إن لامست كتفها حتى صرخت مُمزقة طبلة أذني قبل أن تتفضض واقفة وتنظر لموضع لمساتي كأنني الطاعون ذاته..

مايا لم تكن على ما يرام..

لم تكن مايا التي أعرفها إذا صَحَّ التعبير..

عينان حمراءان مُحتقنان، أنف ينِزف، وكسر في متصرف رسغها

الأيسر جعله لبنا كالعجبين مُتدلياً تكاد أنامله تلامس الكوع لورفت
يدها..

- مايا!! إيه اللي... !!

لم أُكمل جُملتي، تراجعت المِسْكينة هلعاً حتى اصطدمت
بالحائط، رُعبها مني فاق إحساس ألمها الجسدي، اقتربت منها
محاولاً احتواها..

- مايا.. فهميني إيه اللي... .

- كلب..

- ليه؟ مايا!!

- كلب..

لامست ذراعها السليمة أقربها مني، وكأنني الكهرباء ذاتها
صَرَختُ ألمًا، نظرت في وجهي للحظة، لحظة شعرتها ساعة، عيناها
كانتا تحملان كلمات أو شُكّلت على قراءتها قبل أن تدفعني فتعثرت
في السجادة ووَقَعَتْ، خَرَجَتْ من الغرفة رَكضًا وأغلقت الباب
وراءها بالمفتاح، تَمَالَكتْ نفسِي وقُمتْ، شدَّدت الباب جذبًا لثلاث
دقائق حتى انخلع المقبض فالتفت للنافذة، تَزَعَّت العوارض الخشبية
التي أغلقت بها الشيش منذ خمس سنوات، انفتحت بفرقة شديدة
بعد تَبَيَّس قبل أن أتَدَلَّل على العُشب، مَسَحَتْ الحديقة الجرداء
فلم أجدها، ركضت يميناً ويساراً على الرصيف ولا أثر لها، ثوانٍ
ولاحظت زحام الناس يتكتل حول نقطة على بعد ثلاثة متر..

طاووس، قرد، أسد ثم خنزير..

طبقاً لكتاب «حلب الكَمْبِت»، المَرْجُعُ الْأَقْدَمُ فِي الْخَمُورِ، جاءَتْ
تَلْكَ الْفَقْرَةُ وَصَفَا لِمَرَاحِلِ الشُّرُبِ:

بعد أول كأس سنتشني وتزدهر ألوانك كالطاووس.. مع الكأس
الثانية كالقرد سينجاتحك اللعب والتصفيق والرقص.. بعد الثالثة
ستُعرِيدُ وتعيش في المكان حولك «أسداً» لا مُكافئ لك، قبل أن تتفوّهُ
بما لا فائدة منه.. وبعد الكأس الرابعة ستُنطفيء كالختنir السَّمِينِ..
ستُرقد مكانك مفكوك القُوى تطلب النوم فيدهشك دهساً كما
دُهشت.. مايا..

لم يكن لكتاب من الكتب أن يتكلّم عن المرحلة الخامسة..

مرحلة أنا..

فقدت مايا ذلك الصباح..

فقدتها كما فقدت زوجتي وابتي.. وتنفسني.. بسهولة شديدة جداً
لمن لا يعرف..

اللحظة التي سحقتها فيها السيارة حُفِرت بسُكّين ساخن على
تعاريج مخي بجانب النصب التذكاري لزوجتي وابتي..

لن أحكى عن دمائها التي تمشت بجانب الرصيف قبل أن تجلط
قرب قدمي ..

لن أحكى عن شعرها المبعثر ولا عن فستانها الذي طيره الهواء
فتعزّت ..

لن أحكى عن الشاب الذي وقف ينظر لجسدها باشتئاء حتى وجدوا
لها جريدة تُداريها، ولا عن وجهها الذي طبع ملامحها بالدماء على
الجريدة ..

لن أحكى عن رائحتها التي لم تغادر صدري بعد.. ولا عن إنكاري
معرفتي بها لما سألا عنها الواقفين ..

لكني قد أحكى عن خذلاني لها كما خذلت كل من حولي من قبل ..
ولا زلت ..

ساعتان قضيتهما أتابع من بين المارة الجَسَدُ الْمُسْجِي على
الأرض حتى أنهت الشرطة عملها وحملتها سيارة إسعاف إلى
المشرحة، ما هي إلا ساعات ويَعْبُثُون بجسدها ليفكوا شفترها،
كسر رُسْغها الحديث في الأغلب سيضمونه لكسور الحادث، ونزيف
أنفها لا شيء بجانب ما نزفته على الأسفلت، سيعثرون على بصماتي
ولعابي ولن يجدوا لها مرجعاً، أمّا حيواناتي، فآمنة لم تتجول مرّة في
جنة مايا، لم تكن تحب الأطفال لكنها دائمًا ما كانت تقول إنها تتمشى
طفلاً يحمل ملامحي ..

كم أنا حقير أن يمتد تفكيري لذلك وجسدها لم يبرد بعد!! لكنني
اعتقدت منذ زمن قسوة خواطري.. حادة متحجّرة لا مشاعر فيها..

أستطيع القول بأنني لم أعدأشعر بذنب.. تجمدت.. باتت الأحداث
سيان عندي.. حسناًتي كسيئاتي.. طبيخ مسلوق بلا ملح.. حتى
عيناي نسيتا البكاء.. ما الذي يحملني على الاستغراب ودَين البُكاء
على ابتي وزوجتي لم أسدده حتى الآن؟!

بعد ثلات ساعات دُرّت فيها كالثائه أمسح الشوارع، وجدتني
في بلكونة عوني أستنشق دخاني وأحتسي نفسي، مذاقي مُخمر
متعرّفن ككأس نيد مغشوش، وألف فِكرة في رأسي تزاحمت على
باب ضيق لتخريج منه قبل أن تموت معظمها من التدافع، أغمضت
عيني على أفق فأجد مايا بجانبي، لعل مفعول القرص ما زال مُمتدًا،
لعل الحلم كابوس وسيأتيبني الفيل الأزرق طائرا بجناحين، أمسكت
بسجارتى وفتحت راحة يدي قبل أن أدفن النار فيها، انتفضت حرقا
لما تأكّدت أنّي لا أحلم، لقد ماتت مايا يا يحيى، صدق، ماتت أم
قتلتها؟ سؤال لا إجابة له عندي، اللعنة، لم لا أذكر ما حدث!! فقط
بُداهمني منظر الدماء على يدي وأنا واقف في الحمام فأنقبض، هل
اقرّص أن يكون له مثل هذا المفعول؟ أقتلها بدون أن أدرك! أم أنها
زجاجة الـ «Absinthe»؟ ربما الاثنان معاً؟ هل تعرض شريف لمثل
هذه المؤامرة على نفسه؟ قاطعت «نيجوزي» الخادمة قيئي النفسي
لما نقرت كتفي، سألتني بإنجليزية إفريقية إذا كنت على ما يرام فقد
سمعتني أصرخ، شكرتها بهزة رأس فنظرت لكتفي التي اعتصرها
يدى، التقطتها وأزاحت أصابعى فلمحت الحرق..

ـ نيجوزي.. أنا كويـس..

نظرت في عيني مُدققة قبل أن تبدل ملامحها إلى أَسْى وقلق..

.. «Come please» -

سجّبتي من يدي كخروف لقيط وتركتُ نفسي، دخلنا المطبخ
فأغلقت الباب وراءنا، أقعدتني على كرسي عالي وأخرجت مُظهراً
وقطناً كبسته على يدي قبل أن تنظر في عيني..

..(There is something.. not good)_

- أنا كويں پانیجوزی.. صدیق عزیز مات النهاردة..

ثم تذكرت أنها لا تجيد العربية فترجمت بالإنجليزية ولم تسمع
ترجمتي ..

..«Please wait» -

ضغط على الحرق وهي تتأمل وجهي بتركيز شديد قبل أن
تنزع شعرة من رأسي !

- آئی.. ایه یا ست ده؟!

دفنت الشارة في كفّها وأغمضت عينيها ثم رتلت شيئاً ما بلغتها
قبل أن تفتح عينيها وتردف:

- «You had been touched.. Something no good.. It's a warning.. Only a warning»..

لم أكن لأتحمل هذا الهراء، نظرت لها ممتناً قبل أن أقوم، أمسكت برسغى تستيقيني، فتحت راحتى اليسرى ثعain الخطوط الغائره ثم

أمسكت بالخنصر والإبهام واعتصرت اليد عَكْسِيًّا حتى لامست
حدود الألم وأصبحت الخطوط واضحة جلية، دققت في الخط
الأخير الخارج من الكف إلى اليمين ثم نظرت في عيني..

ـ (Can you give me 50 pound?) ..

ـ يا نهارك أسود.. والله أنا ما ناقصك..

أخرجت من جيبي عشرين جنيهًا لأجل خاطر عوني وناولتها
حين أصررت:

ـ «50 pound» ..

أخرجتهم من جيبي ودستهم في كفها محاوًلاً كتم غيظي..
ـ يا سُتُّي ما حدّش قالك أقري الكف ولا عزمي.. أنا مش ناقصك..
ـ فلت لك كويٍس..

تركتها وخرجت أعن البيت وأصحابه، تبعتي نيجوزي ترطن
شيء لم أدركه وعند الباب استوقفني عوني.

ـ مالك يا «Man» مش في المودا فيه حاجة؟ أنت مرّوح؟

ـ حَدِجَتْ نيجوزي بشر..

ـ مرّوح.. تعان شوية.

ـ لمع عوني نيجوزي التي تراقبنا..

ـ البت دى زعلتك؟

ـ الولية دى مجنونة.

- عملت إيه؟

- قررت لي الكف وبخرتني من غير ما أقولها وطلبت
خمسين جنية..

- «Bitch!! Sorry ya Man» -
طلب فلوس، هاكلم المكتب بتاعها بكرة...

- بس بس سيبها خلاص ما تكبرش الموضوع.. هما في
إفريقيا عايشين على الشغل ده.. أنا مسامح..

- وقالت لك إيه بقه؟

- أنت مش عارف إيه.. وخد بالك ويتاع.. وآخر إنذار.. كلام
في الحمام..

- يا دكتور يعني تشتعل تراييزه باللي عليها وتجي بث من رواندا
تشتغلك !!

- اللي حصل..

- مش هتلعب النهاردة؟

- مش في المود..

أخرج من جيئه قطعة حشيش صغيرة تكفي ليلة..

- طب خُد دي.. «Cadeau» مني.. بدل نصب..

- مش النهاردة يا عوني.. مش النهاردة..

رحلت وسط استنكاره وشجبه ومعارضته التامة لرفضي الحشيش.

أول مرة أرفض فيها نبتي المقدّسة! كنت أحتاج لذهن خالٍ من أي تدخلات أجنبية..

تمشيت حتى البيت، عند البقعة التي تركتها مايا على الأسفلت توقفت أتأمل ولم يطل وقوفي، انهارت ركبتي فقعدت على الرصيف أنزف الصمت حتى تقىأت، اللعنة عليّ، وعلى كل من حولي واجبة، وعلى لمستي السحرية التي تذهب بهم للجانب الآخر، الجانب الذي لن أكون فيه حين أموت، أكادأشعر ببهoot السكر يحاصرني، يتلعني، في لحظة بلل العرق جلدي وبدأ نفسي يتهدج، قمت إلى البيت والنبضات تطرق أعلى صدرني بيضاء، أخرجت جهاز قياس السكر الذي لم أستعمله منذ زمن، ثقبت إيهامي ووضعت قطرة على طرف مسطرته، ٥٠ جاءت القراءة، رسميًا سأسقط ميتاً بعد دقيقة من الآن، أو أني بدأت بالفعل، تساندت إلى الحوائط حتى المطبخ وفتحت الثلاجة، لا شيء فيها سوى جبنة وترمس وخيارتين تالفتين، لعن الله مرات الخمر ولعن الوحيدة، بدأت عيناي تخبوان وأنفاسي تسلق الجبال،لامست رُكبتاي الأرض لا إرادياً، تمشيت عليهما حتى علبة السكر فوق الرخام، كانت على بعد ساعة من مكاني، وصلت فمددت يدًا صفراء باهتهة ترتجف، بالكاد التقطت العلبة، ثانت تزن مائة كيلوجرام، رفعتها بصعوبة قبل أن نسقط سوية على الأرض، بما تبقى لي من شحن في بطارتي فتحت غطاء بثقل غطاء بلاعة، دار فرأيت السكر، رفعته فوق فمي وحشوت، كان ذلك قبل أن يهبط سقف المطبخ تدريجياً ويمتلئ نجوماً صغيرة..

لم يتزعّني سوى جرس المحمول، لم أُمْتَ بعد، مددت يدي إلى جنبي و Mizt بالكاد ساعة الشاشة، كانت تشير لنصف ساعة

من الغرق بعيداً عن السكر، الجرس لم يكن منبعثاً من تليفوني، كان آتياً من تليفون شريف، أخرجته من جيبي ونظرت للشاشة التي لم تُظهر الرقم..

- ألو..

- عامل إيه دلوقتي؟

نفضت السكر الذي امترج بالعرق على وجهي قبل أن أجلس محاولاً استيعاب الصوت..

- أنت بتكلم منين؟

- فاكر آخر حاجة قلتها لك؟

اجتررت سريعاً آخر كلماته في المكالمة السابقة..

- قلت مش صعب أقنعك!

- ذاكرتك ممتازة.. واقتنعت؟

- بيايه بالظبط؟

- إني مش شريف..

- مين اللي اداك تليفون؟

- مين اللي قتل مايا يا يحيى؟

ساد الصمت لدقيقة لزجة ابتلعت فيها لساني وانتفضت خلايا جسدي، قمت أفرُك وجهي وأبحث عن شيء أستند عليه حين كسر السكون بأدأه حادة..

- الإنسان ده غريب.. إزاي هان عليك تسيهها تخرج
بالمنظر ده؟

- أنا ما المستهاش..

- متأكد؟

- متأكد!

- الصور اللي في تليفونها بتقول حاجة غير كده..
مجنونا خرجت للصالحة أبحث في متعلقاتها عن تليفونها.. اللعنة..
أين اخفي!!

- صور إيه يا شريف؟

قاطعني:

- تاني شريف!

صرخت فيه:

- تحب أنه أنت إيه؟

- ما تفقدش أعصابك.. أنت تحتاج لها.. قول لي.. مايا
ولا لبني؟

أفرغت حقيتها على الأرض.. كراكب لا حصر لها ولا أثر
للتليفون..

- مايا ولا لبني إيه؟

- أطعم..

انحنىت تحت الكتبة أبحث.. لا أثر..

- لو فيك جرأة قول الكلام ده قدامي لما أشوفك.

- متهيأ لي دلوقت هتفوق للبني.

دخلت الغرفة أبحث عن التليفون.. لا أثر له..

- زي ما أنت قتلت بسمة عشان واحدة تانية؟ صح؟

- لسه بخلط ما بيني وبين صاحبك.

- شريف ما بقتلش.

- كل اللي قتلوا كان بيقال عليهم كده.

- أنت اللي أجبرته.

- للأسف دائمًا أنا كبس الفدال كل نزوة.

أخيرًا عشت على التليفون في أرض الحمام..

- أنا جاي لك دلوقت.

- تيجي ليه.. أنا معاك في الشقة.

انقطع الخط وركضت ضربات قلبي، كما شُلّ عقلي عن التفكير، التفت حول نفسي كضرير فقد عصاه، اللعين يُلاعبني! تعرقت في لحظة فرجعت بظيري للحائط أفتح فمي كي يتسع مجال أذني في التقاط أي صوت، نافذة الحمام خلفي كانت تطل على أغصان الشجرة التي تتوسط الحديقة، استللت عصاة الممسحة وخرجت ببطء أمسح الشقة، لم أترك حتى الدواليب وأسفل السرير، لا شيء،

كان ذلك قبل أن أسمع الخطوات، وقعاها خافت مُتنظم آت من السقف، لا شيء يدعو للقلق سوى أن الشقة من فوق لا يسكنها أحد! أخذت الخطوات تقترب حتى باتت فوقي، دقيقة من الصمت قبل أن أسمع خبطة عالية كأنها فيل تعثر وما يلبث أن ينزل مع السقف فوق رأسي ثم ساد صمت مُطبق، فقط ضربات قلبي تهتزني وصوت نفسي يُصفر في صدري، لحظات ووقيع خبطة ثانية أعنف من الأولى، زَلَّت النَّجْفَة المَرِيضة فاصطكَّت كريستالاتها، لم أعد أستطيع الانتظار، رَكضت سريعاً إلى باب الشقة وخرجت أنظر إلى شبابيك شقة الدور الأول، كانت مُظلمة، ناديت الباب فلم يجني، التقطت حجرًا صغيرًا وألقيته على النافذة فانكسرت بصوت مدوٍ، ثوانٍ وأضيء النور، قبل أن يقترب ظل من النافذة، ظل لرأس أكبر من حجمه الطبيعي، بمرتين، ثم امتدت يدان وفتحا الشباك..

- إيه ده؟ يا باشا!! شفتش حد حَدَف حاجة؟

ذلك كان عوض البواب، ورئيس المتحف بالعمامة الصعيدية
الكبيرة..

لَا يَأْعُضُ

- يا ولاد الكاااالب.. لِسَاتِهِمْ أَمْبَارِحْ كَا سَرِينْ إِزَازْ عَرَبِيَّةِ مَدَامْ
كُوئِيرْ...

لو تركته للحظة يتأملني بممسحة الحمام والبوكسر لأدرك أنني قد اختلت نفسيًا وأنني بالتأكيد من ألقى الطوبية فباغته مقاطعاً:

- هو فيه حد هيسكن الشقة؟

- الجماعة جاين من الكويت أول الشهر إن شاء الله ..

رجعت شقتي وأغلقت الباب، اللعين زاولني ونجمح، التقطت تليفون مايا وفتحته، بملف الصور كان هناك أكثر من عشرين صورة أجبرتني أن أراها بوضوح أكبر، أخرجت شريحة الذاكرة بأصابع مرتعشة من بقايا الهبوط وفتحت الصور على الكمبيوتر العتيق أستوضح التفاصيل، الألبوم يُشبه مجموعة صور شريف وزوجته التي عثرت عليها في كاميرا تليفونه، صور لا أتذكر أنني التقطتها؛ مايا وهي نائمة، غارقة بين عبق الـ «Absinthe» وأقدام الفيل الأزرق، كل تفصيلة أحبتها موجودة، لم تغفل الصور واحدة، حتى أصابع قدميها المنمقة، تلتها مجموعة فاسية تُسجل ملامح وجه يتألم وعيين جاحظتين تستجديان النجاة، ويدى تأخذ صورة تذكارية فوق عنقها! نعم يدي! تلك الصور كانت في غرفة ابتي! مع آخر صورة شمت رائحة حريق تصاعدت من قدمي إلى رتبي قبل أن تصنع بقعة داكنة في السقف من فوقي ..

مبروك.. لقد قتلت مايا!!

تنافست الديدان في التهام رأسي من الداخل، انتابني صداع شديد أطلق النبض في مؤخرة رأسي، لم أدر بمنفي إلا وأنا أتعامل، أتعامل كما يتعامل أي قاتل مأجور يُكون نفسه ليتزوج وينجب، جَمعَت أغراض مايا في كيس كبير، ملابسها وحقيتها بمحتوياتها وحذائتها والقبلات التي تركتها على رقبتي، لم أستبق سوى صور تليفونها على الكمبيوتر في ملفٍ مخفي، صورنا التذكارية الأخيرة، ثم وضعت الكيس في البانيو..

عزيزي مایا.. أرجوك لا تغفر لي!

شربت نصف زجاجة بيرة وأفرغت النصف الآخر على الكيس ثم
أشعلت النار، دقائق وصارت ذكرياتها رماداً ودخاناً خانقاً، اتصلت
بالمستشفى أسأل عن شريف، لم يغادر اللعين سريره!!

كيف عرف بأمر مایا؟

سقطت مني ثلث ساعة قبل أن أجده نفسي في تاكسي، طريق
المُستشفى كان مزدحماً، أحرقت عشر سجائر وجزءاً من الكتبة التي
جلس عليها قبل أن أصل، حين أصبحت أمام باب الغرفة كان أمين
الشرطة المُكلف بحراسة شريف ملقى على كرسيه البلاستيك يضع
راديو «ترانزيستور» على أذنه، أبرزت له كارنيه المستشفى ثم نظرت
في عينيه وسألته بهدوء:

- إزّاي تخلي حد يخش للتهم بالتلفون؟

تكنيك سريع لكشف الكذب، تباغت فيه الخصم بسؤال مُحرج
لن يجد جسده مفرّاً من إرسال إشارة كذب بشأنه..

- نعم!!!

إجابته كانت تكفيبي.. لغة جسد الرجل صادقة.. تركته غارقاً
في استنكاره ودخلت.. شريف كان مكتلاً من قدمه كما تركته..
مستيقظاً شاحضاً بيصره للحائط قبل أن يلتقط لي ويبيسم.. أغلقت
الباب واتجهت لسريره:

- فين التليفون اللي معاك؟

لم أنتظر إجابة، فتشت الغرفة وكدت أخلع الأرضية ودهان
الحيطان قبل أن أزبح شريف من فوق السرير..

انزل.. انزل...

لم أتمالك أعصابي وهو يرمي بابتسامته الباردة، بغلظة قبضت
على عضده وأنزلته على الأرض، لم أستطع إقصاءه إلى ركن بعيد
بسُبُّ قدمه المكبلة بالسرير، نفخت المرتبة والمخدّة، لا شيء،
انقضضت عليه أفتّش ملابسه، بعثرته وكدت أنبش الشاش الملفوف
حول جرح فخذه، تراخي واستسلم حتى انتهيت بلا شيء، أخرجت
تلفون شريف من جيبي!

ها أنا بدأت أتكلّم عن شريف كأنه غائب!

شخص آخر غير شريف الجاثم على الأرض تحت قدمي !!
على طريقة برايل ضغطت على قائمة المكالمات وتلمسَت ضريراً
آخر رقم اتصل بي، ضغطت زر «Call» الأخضر وانتظرت، ثوانٍ
وسمعت جرساً، نغمة أعرفها، نغمة تليفوني !!! آخر جته من جيبي
ونظرت في شاشته، كانت تنبع من رقم مجهول!
ألو، ألو..

لم أسمع سوى صوتي في سماعة التليفون والصدى الآتي من
حيطان الغرفة، أغلقت الخط وأغمضت عيني للحظات مُحاولاً
الاتزان، لم أملك غير جذبه من ياقته وإصاقه بالأرض قبل أن أجثم
فوقه وأنظر في عينيه بحثاً عن الشخص القائم بأعمال تلك اللحظة،
هل هو شريف؟ أم صديقه المزعوم نائل؟ لم يُيد مقاومة تذكر، رمقي
بثبات انفعالي يُحسد عليه..

- كُلْمَتِي مِنْ تَلِيفُونِ مَيْنَ؟

الصمت والسخرية على جانبي شفتيه عَرْفَانِي مَنْ أَكْلَمَ..

- رُدُّ.. عَرَفْتَ مَنِينَ؟ مَا يَا؟

- المُراقبة بـتخلّي الوقت يمر أسرع.

- إِيهِ الْمُتَعَةِ إِنْكَ تَلَاعِبِنِي؟ أَنَا الْوَحِيدُ الَّذِي يَحْاولُ يَسْاعِدُكَ هَنَا!!

- المُتَعَّنِ نَسْبِيَّة.. فِيهِ نَاسٌ بـتَأْكُلُ عَنَّاكِبِ فِي الصِّينِ.

- فَهَمَنِي؟

- خَدْمَةُ قَصَادُ خَدْمَة.. الْجَرْحُ بِيَنْزِفُ.

مَلَامِحُ وِجْهِهِ وَابْتِسَامَتِهِ قَالَتَا إِنَّ التَّهْدِيدَ مَعَهُ لَنْ يَكُونَ مَجْدِيًّا..

كَانَ عَلَيَّ فَتْحُ بَابِ التَّفَاوُضِ.. تَرَكَتِهِ يَقْوُمُ وَيَجْلِسُ فَوْقَ سَرِيرِهِ..

مَكَانُ جَرْحِهِ نَشَعَ نَقَاطًا دَمْوِيَّةً مِنْ عَنْفِي مَعَهُ.. اسْتَوَى وَنَظَرَ لِفَخْذِهِ
وَتَلَمَّسَهَا قَبْلَ أَنْ يَبْتَسِم..

- جَرْحٌ كَبِيرٌ.. مَا كَانَشِ الْمُفْرُوضُ يَعْدِي.

- اتَّكَلْمُ.

- عَاوَزُ أَعْمَلُ مَعَاكَ جَلْسَةً.

- جَلْسَةً؟

- بـقَالِي كَتِيرٌ مَا اشْتَغَلْتُش.. إِيْدِي بـتَتَّقُلُ وَهَانِسِي الشُّغْلُ.. وَحَشِنِي

دور الـ«Psychiatrist»..

- أنا مش فاضي للتهريج.. مين اللي جاب لك التليفون؟

- أحكي لك بعد الجلسة..

- ماشي.

- ورقة وقلم؟

أخرجت مفكري التي أحملها دائمًا.. انتزعت منها ورقة وناولته
قلمي..

- استريح.. عاوزك تكون «Relax» على الآخر.. خُد نفس عميق..
فكّر في مكان لطيف تكون بترتاح فيه.. أو حَدّ تكون بتحبّه.. مايا
مثلاً..

قالها بقسوة ساخرة.. وباحترافية طبيب نفسي حقيقي.. جلست
على الكرسي المقابل للسرير مُحاوِلًا الحفاظ على أعصابي..

- افرد رجلك.. وفُك دراعاتك من فوق صدرك..

بجزءٍ على أسنانني قاربت كسرها صبرت..

- الأول قبل مانتكلم تتفق.. ما فيش كدب.. ده مهم عشان الجلسة
تمشي صح..

....

- وما فيش سؤال مالوش إجابة.

- ماشي.

- أحكي لي..

- أحكى عن إيه بالظبط !!
- أحكى لي عن أسود حاجة فيك ..
- أنت مجنون !!
- فضفض .. خُد راحتك .. صعب؟ طيب .. أسهلها عليك .. إيه شعورك لما شفتها بعد السنين دي؟ لبني.
- زي شعوري لما شفتكم بالظبط.
- إيه! عاوز تمارس معايا أنا كمان !!
- استغراب.. مفاجأة..
- لسه شايل لشريف رفضه إنه يجوزك أخته؟
- الحوار ده بقى ماسخ.
- نظر في وجهي جيداً ثم ابتسם ..
- عشان بيلمس عندك حاجة؟
- حاجة خلصت.
- اتفقنا بلاش كدب .. عارف إنك لسه جواها؟
- أيا كان .. مش مهم.
- عارف مين أجمل أنشى؟
- ... -
- الأنشى اللي لسه ما دوقتهاش .. الأنشى المحرمة .. سكوتكم يعني باتكلم صح ..

- لُبْنِي مَتْجُوزَةِ يَا شَرِيف.. أَوْ أَيَا كَانَ اسْمُك.

- دَيْ بِدَائِيَةِ تَفَاوَضَ.

لَمْ أَعْدْ أَطْبِقْ مُحَاصِرَتَه.. بَعْثَرَةَ أَكْثَرِ أَفْكَارِي تَطَرَّفَ عَلَى أَرْضِ
الْغُرْفَةِ لِيَسْتَ بِالشَّيْءِ الْلَّطِيفِ.. اقْتِحَامُ قَبْوِيِ الْمُظْلَمِ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ
لُبْنِي.. حَيَّة.. الْقَبْوُ الَّذِي يَحْوِي أَحْلَامًا وَرَغْبَاتٍ جَاهَدَتْ لِأَخْفِيَهَا..
وَلَمْ أَفْلُح..

- أَعْتَدْ إِنْ فَرَصَتِكَ جَتَ.

- فَرَصَةُ إِيَّهُ؟

- فَرَصَةُ إِنْكَ تَرْجَعُ لِلْحَيَاةِ تَانِي.. يَحْسِنُ.. إِنْتَ بِدَائِتِ سِكَّةَ
الْجُنُونِ.. شَهُورٌ وَهَتِيجَيِ الْمُسْتَشْفَى زَيْكَ زَيِّ المَرْضِيِ بِتَوْعُكِ..
مَعْقُولٌ هَتَسِبِ نَفْسَكَ!! خَلِينِي أَسْاعِدُكَ..

- أَنْتَ بِتَخَرَّفِ.. سَاعِدْ نَفْسَكَ.

- مش مُصَدِّقِنِي!

- مش مُهْتَمْ.

- لو مش مُهْتَمْ بِنَفْسِكَ.. اهْتَمْ بِيَهَا.. لُبْنِي مَحْتَاجَةُ لَكَ.

- كَفَايَةٌ تَهْرِيجُ لِغَايَةِ هَنَا.

قَمْتُ إِلَيْهِ وَسَحَبْتُ الْوَرْقَةَ الَّتِي لَمْ يَتَوَقَّفْ لِلحَظَةِ عَنِ الْكِتَابَةِ
فِيهَا وَهُوَ يَتَكَلَّمُ مَعِي.. كَوْرَتَهَا وَأَلْقَيَهَا وَوَقَفَتْ أَتَأْمَلُ بِرُودِهِ
اللَّامِتَنَاهِي..

- سُؤَالٌ وَاحِدٌ عَاوِزٌ إِجَابَتِهِ دَلْوَقْتِي.. كَلَمْتَنِي مَنِينِ؟

ابتسم ولم يجب..

- مين اللي بيراقبني؟

- كل واحد بيراقب نفسه.. لو خربشت نفسك كنت هتلافقني جوة.

- ايه؟ جن؟

- خيالك واسع.

- مش خايف على نفسك لو شريف اتعدم ت وعدم معاه!!

- شريف غلط ولازم ياخذ جزاءه.. ح ترضاه؟ ترضى إنه يقتل

ويطلع بريء؟

- مش هيتعدم لو عندكو... أقصد عندك ازدواج.

- الا زدواج مش معترف بيها.

- كل حالة ليها استثناء.

- لو كلّمت الله هتقول عليّا باصلي، لكن لو هو كلامي! تسمّيها

ازدواج!!

- ربنا بيكلّمك!!!

- طبعاً.. ده السميع البصير.. لا يخفى عليه شيء.

- أنت بتخرّف.

- مش موضوعنا.. الجلسة جلستك.. خليك «Professional»

يا دكتور.. سيب شريف يواجه مصيره اللي مكتوب له قبل ما يتولد..

مش غريبة دي!! إن مصيره يتكتب قبل ما يتولد! مسكين شريف.

- شريف مش هيموت ..

- شريف قتل .. ولازم يموت .. دراما الحياة هي اللي بتقول كده ..

- إذا كان فيه حد هيموت فهو أنت ..

التفت حول السرير والتقطت قطبيّ جهاز الصدمات الكهربائية
بعدما تأكّدت من غلق الباب جيداً.. نظر لي بقلق وأنا أسحب الأقطاب
وأصكّها.. جزار يسن سكاكيته.. لم أمهله ليفكر.. ضغطت زر الشحن
وانقضضت عليه دافناً الأقطاب في صدره.. غمدتها فانتفض بقوّة
وضرب ظهره السرير قبل أن يخمد.. مررت ثانيةان حداداً.. توقف
قلبه بدأ يرتسם على ملامحه.. تراخي وسكن كما تسُكُن السمكة
خارج الماء.. قتلة أخرى في أقل من ٢٤ ساعة! رقم قياسي لسفاح!
لبثت ثانية أتأمله قبل أن أتمالك نفسي وأدفع زر الشحن ثم صَكَكت
الأقطاب وغمدتها في صدره..

.. «Restart» -

انتفض ثانية وتقوّس ظهره قبل أن يفتح عينيه أخيرين غير اللتين
تحدّثا معي منذ دقائق، أمسك يدي واعتصرها فاقربت منه.. همّس
في أذني بحشارة ميّزت منها:

- قميص مأمون.. معاك؟

- مأمون مين؟ القميص ده إيه قصته؟

- بسمة..

- مالها؟

ترقرقت عیناه و اختلنج صدره..

بسمة ماتت؟

- آیوہ یا شریف ..

نظر لي بعينين غير مُصدّقتين فعاجلته بسؤال خوفاً من ضيق
وقت انفصاله عن الصديق الذي يزاحم عقله.. سيعيد السيطرة
في أي وقت..

- مالها بسمة؟ احكي لي.. فهمني أي حاجة؟

三

حُشرت الحروف في حلقة ففتح فمه حتى كاد يتقيأً..

الشقة.. فـ فـ في الـ...

- فین؟

أعتقد أن ما قاله كان يقصد به مكان القميص إلا أن لسانه قد خانه،
دلله من بين فكيه كلسان ضفدعه تلتقط حشرة طائرة، ثم نطق جملة
طويلة حروفها مبعثرة غير مرتبة، وبلا ترجمة أسفل ذقنه !! ليست لغة
أخرى، هي فقط سلطة من الحروف لم أفهم منها شيئاً، نظر لي بعدها
بعينين صامتتين لا معنى فيهما..

— شریف.. مش قادر تتكلم؟

أشار إلى زوره إشارة اختناق.. فتحت قميصه وضغطت زر استدعاء التمريض وأمسكت الورقة والقلم.. دستهما في يده..

- اكتب أي حاجة مش عارف تقولها.. أي حاجة.

أمسك بطنه وتهذّج نفّسه بشدّة وبوهن شديد رسم مرحاضاً..
- إيه.. عاوز تخشن الحمام؟.. ماشي بس كمّل.. ركّز يا شريف
الله يبارك لك.

دخلت الممرضات في اللحظة التي أفرغ فيها معدته، على صدرِي
ولم يَبْخُل! ليتني استجبت لرسمة المرحاض! لم يكن قد أكل شيئاً
غير الجلوکوز، لكنه صبغ قميصي برايحة القبر، كان ذلك قبل أن
تُنزَع بطاريته ويغرق في إغماءة، انسحبَت تاركاً طبيباً وممرضين
يفحصانه حين لمحت على الأرض الورقة التي كان يخطّ فيها بالقلم
أثناء حواره معى.. فتحتها فوجدت فيها رسماً.. رسمًا دقيقاً لجسد
أنثى عارية شعرها طويل! بلا وجه! رسمًا يشبه رسوماته التي وجدتها
وراء المكتبة في الشقة..

لعت اليوم الذي عاد فيه شريف إلى حياتي..

لعت اليوم الذي عادت فيه لبني..

وللعت اليوم الذي وطأت فيه المستشفى..

شريف سيظل تحت الملاحظة منوماً إجبارياً حتى يُرْجَح إلى
العباسية وسيبقى في غرفة العزل حتى يُشفى جرح فخذله..

في طريقي للبيت اشتريت زجاجة «Jack Daniels»، ككل
سّكّير محترم لا يستطيع أن يشتري الشيفاز، أخفيتها في كيس أسود
مثلاً يُخفي المراهقون أفلام السكس تحت مسمى «سيكو سيكو»
تمويها!! لم أدخل الشقة، حاولت إقناع نفسي لكنني فشلت، فقط
خلعت القميص وغسلته بماء خرطوم الحديقة قبل أن أنشره على

الشجرة ونزعـت حذائي ، لامست العُشب الضـامر في الحديـمة أبحث
بعيني عن رـكن لن تزوره شـمس الغـد ، على صـوت صـراصير الغـيط
الرـتـيب ، أـسـتـندـتـ على الشـجـرةـ المـحـتـضـرـةـ وـشـربـتـ منـ الزـجاـجـةـ حـتـىـ
لمـحـتـ ماـيـاـ قـادـمـةـ مـنـ بـعـيدـ..

كـنـتـ أـحـتـاجـهاـ بـشـدـةـ..

** مـعـرـفـتـيـ **
www.ibtesama.com
مـتـدـيـاتـ مـجـلـةـ الـإـبـتـسـامـةـ

حين استيقظت كانت ترمقني بقُرف واسمئراز، كأنها تتبع
صرصار يحضر، لوت شفتتها في كراهية ممزوجة بقيء وهزة قدم
رتيبة نافد صبرها، جلست نصف جلسة أحمي عيني من الشمس
قبل أن أحىّها:

- صباح الفل يا مدام كوثر..

لم تجني جاري التي تكرهني كُره الراعي للذئاب.. ظلت ترمقني
من وراء نظارتها قبل أن تقترب بدون أن تخطى حدود حديقتها..
هذا بخلاف أنها كانت تمسك بمقص عشب كبير..

- مش مكسوف من نفسك!!

- يا مدام.. أنا مش عارف إنت بتتكلمي عن إيه؟

- نِجس!

- ليه كده يا حاجة كوثر..

- الله يرحمها.. رحمها منك..

ألقتها ودخلت شقتها ترمي بنظرة توعد، الحاجة دائمًا على حق،
رغم أنها مُصابة بهوس أحادي، وفobia الجيران، وملازمة «تردد»

ما تراه في التلفزيون».. هذا بخلاف بعض التبُول اللاإرادي ومدى تأثيره على الواقع الافتراضي من منظور هذيان الااضطهاد! إلا أنها على حق بشأنى..

لم يتزعنِي من شرودي في كلماتها سوى جرس تليفوني، المستشفى كانت تتصل، لهم عندي يومان لم أظهر فيها..

- عيـان.. اعمل لي إجازة عارضة.. راجع بكرة..

ظهر رقم لبني على قائمة الانتظار فأغلقت مكالمة المستشفى وتلقيتها..

- ما بتردش بقالك يومين !!

- كنت هاكلمك.. حصل مشكلة.. أنا رايح شقة شريف دلوت.. لا خليـكي بلاش تيجي.. خلينا نتقابل بالليل.. ما تقلقيش.. هافهمك بعدين.. حاضر.

«طب خلـي بالك من نفسك» في المعجم المُحيط:

كلمة لم تسمعها منذ أمد.. لها فعل السحر في النفوس..

وقوفي تحت البروج المشيدة كان مُقپضاً رغم نور النهار، الهواء يهيم كتنين أسطوري طائر بين جنبات الأبراج الشاهقة فارد جناحيه بيت الرُّعب والصرىخ، في المدخل لمحت إعلاناً صغيراً يفيد بيع شقة بالدور الثلاثين بسعر مُغـير، لم أحتاج مجهدًا لأنخـن، صـعدت الطوابق الثلاثين يتلوـي قولوني توـتاً قبل أن أقف أمام باب الشقة المفتوح، اقتربت، الحركة كانت متـنظمة، سيدة مُسـنة بـمؤخرة سـمينة راكـعة على الأرض تمـسـح، ورـجـل لم يكن ليـكون غير والـدـ بـسـمة،

جالس بأسى على كرسي يتأمل صورتها بين يديه، اللعنة، تقهقرت خطوتين محاولاً حساب المعطيات الجديدة للحظ السيئ قبل أن أعود مدفوعاً بأمل العثور على القميس، فرعت الباب!

- أوّل مرّ يا ابني.

.. با حاج.. الشقة دي للبيع.

- أيوة يا ابني إن شاء الله.

- مساحتها قد إيه؟

- طب اتفضل.. اعملني شاي يا أم شيماء.

جلسنا وتبادلنا الحديث حول مميزات الشقة وموقعها، ولم يذكر الرجل أنها كانت مسرحَّاً لجريمة! فقط ابتلع ريقه بقلق بعد أن سكت عن المعلومة، سأله تمويهًّا عن السعر وأجابني بشمن بخس بالنسبة لموقع على النيل.. طلبت التجول فيها فقام لمرافقني:

- خليك يا حاج مش عاوز أتعبك.

رفض السماح وأصرّ وأقسم بالأيمان، تعني ليحيطني بجنبات الشقة إرشاداً، اصطنعت الجهل وتبعته لا أعرف ماذا أفعل، مرّ بالطরقة والمطبخ والحمام ثم غرفة الجريمة التي اختفت كل معالمها، حتى الكتابة التي كانت على الحائط مساحتها الخادمة المسنة، اللعنة على المؤخرات العريضة! تبعته بعد ذلك إلى غرفة نوم شريف وبسمة، آخر أمل لي، تأملتها فحصاً ثم سأله:

- لو حبيت أشتري العفش؟

- يا ريت يا ابني .. ده والله عفش جديـد ما عداـش عليه سـنة ..
«زان» مستورـد.

فتحـت الدـولـاب أـتصـنـع فـحـص خـشـبـه .. وـدـمـسـت عـيـنـي بـيـنـ
الـمـلـابـسـ الـمـكـدـسـةـ فـوـقـ الشـمـاعـاتـ أـبـحـثـ عـنـ القـمـيـصـ ..

- طـبـ وـيـالـنـسـبـةـ لـلـهـدـومـ ؟

- هـنـشـيلـهاـ طـبـعاـ ياـ اـبـنيـ ..ـ مـاـ تـقـلـقـشـ .

- لاـ ..ـ أـنـاـ كـنـتـ أـقـصـدـ لـوـ حـبـيـتـ أـشـرـيـهـ .

؟؟...-

- أـصـلـيـ مشـتـرـكـ فيـ جـمـعـيـةـ خـيـرـيـةـ وـمـمـكـنـ أـتـبـرـعـ وـكـدـهـ ..ـ الـأـبـاتـامـ ..
والـ ..ـ ثـوـابـ يـعـنـيـ .

- ياـ بـنـيـ !!ـ مـاـ يـغـلـوـشـ عـلـىـ رـبـنـاـ ..ـ نـخـلـصـ بـسـ فـيـ الشـقـةـ وـنـتـكـلـمـ
فـيـ الـمـوـضـوـعـ دـهـ .

- مـمـكـنـ كـبـاـيـةـ مـيـةـ ؟

- تـشـرـبـ بـقـىـ شـايـ .

- زـيـ الـفـلـ .

ترـكـنـيـ الرـجـلـ فـفـتـحـتـ الـأـدـرـاجـ بـسـرـعـةـ أـفـتـشـ مـُـحتـويـاتـهـ ..ـ أـنـهـيـتـ
دوـلـابـ شـرـيفـ ثـمـ فـحـصـتـ دـوـلـابـ بـسـمـةـ الـمـلاـصـقـ ..ـ لـاـ أـثـرـ لـلـقـمـيـصـ ..
نـظـرـتـ تـحـتـ السـرـيرـ وـفـيـ الشـوـفـنـيـرـ ..ـ لـاـ شـيـءـ ..ـ التـقـطـتـ كـرـسـيـاـ صـغـيـرـاـ
وـصـعـدـتـ لـأـفـتحـ أـعـلـىـ دـوـلـابـ ..ـ الـبـلـاكـارـ كانـ مـلـيـئـاـ بـالـبـطـانـيـاتـ
وـالـمـلـابـسـ الـشـتوـيـةـ ..ـ باـعـدـتـ مـاـ يـنـهـاـ حـينـ انـهـارـ الجـبـلـ فـوـقـيـ فـيـ

اللحظة التي عاد فيها والد بسمة.. وقف الرجل يتأملني والملابس
الشتوية مبعثرة بجانبي.. لم أمهله ليرجع فـَكَه المتداول إلى مكانه..

- البلاكـار دـُرـفـه ما أعتقدـش زـان بـرضـه يا حـاجـ؟

ابتلعها الرجل واقترب يلملم الملابس معـي ويدافع عن الدـولـاب
وأخـشـابـه.. الوقت أصبح ضيقـاـ ونـفـدتـ حـجـجـ وجودـي.. أـسـتعـيدـ
كلـمـاتـ شـرـيفـ الأـخـيرـةـ معـيـ عـلـىـ أـجـدـ بـهـ ماـ أـسـتـرـشـدـ بـهـ عنـ
مـكـانـ الـقـميـصـ.. اللـعـينـ لمـ يـقـلـ شـيـئـاـ وـلـمـ يـرـسـمـ فـيـ الـورـقةـ سـوىـ..
مرـحـاضـ !!

- أـسـتأـذـنـكـ ياـ حـاجـ أـخـشـ الحـمـامـ..

استـأـذـنـتـ وجـهـ المـمـلـوـءـ أـلـمـاـ وأـغـلـقـتـ عـلـىـ نـفـسيـ الـبـابـ
وـوـقـفتـ أـنـظـرـ حـوـلـيـ.. لـمـ يـكـنـ العـثـورـ عـلـىـ قـمـيـصـ فـيـ حـمـامـ مـعـاـدـلـةـ
لـوـغـارـيـتـمـيـةـ.. سـبـتـ الغـسـيلـ فـارـغـ.. لـاـ شـيـءـ مـعـلـقـ وـرـاءـ الـبـابـ.. وـلـاـ
فـيـ دـوـلـابـ الـمـرـأـةـ التـيـ تـمـ تـفـريـغـهـاـ مـنـ دـوـاءـ الـأـمـلاحـ وـبـقـيـةـ الـمـتـعـلـقـاتـ!
نـيـبـتـ دـقـائقـ مـشـلـوـلـ التـفـكـيرـ.. اـنـتـظـارـيـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ دـاـخـلـ الـحـمـامـ
سـيـشـرـ الرـيـةـ.. يـأـسـاـ أـمـسـكـتـ المـزـلاـجـ لـأـفـتـحـ الـبـابـ حـيـنـ اـسـتـعـدـتـ
رـسـمـةـ شـرـيفـ فـيـ مـخـيـلـتـيـ.. يـاـ لـلـغـباءـ! لـقـدـ رـسـمـ شـرـيفـ مـرـحـاضـاـ!
نـظـرـتـ لـلـمـرـحـاضـ ثـمـ لـمـحـتـ مـجـبـسـ السـيـفـونـ المـكـسـورـ.. عـمـداـ!
سـرـيـعاـ مـدـدـتـ يـدـيـ وـرـفـعـتـ الـغـطـاءـ.. خـالـيـاـ مـنـ الـمـاءـ كـانـ.. وـبـالـدـاخـلـ
كـانـ يـرـقـدـ قـمـيـصـ.. مـطـوـيـاـ فـيـ كـيـسـ بلاـسـتـيـكـيـ مـغـلـقـ بـإـحـكـامـ وـمـحـشـورـ
وـسـطـ الـمـوـاسـيـرـ الرـفـيـعـةـ وـبـالـلـوـنـ الـبـلـاـسـتـيـكـيـةـ.. مـدـدـتـ يـدـيـ وـسـحـبـتـهـ
بـرـفقـ.. الـأـرـقـامـ عـلـيـهـ كـمـاـ رـأـيـتـهـ فـيـ الصـورـ.. قـمـاشـهـ سـمـنـيـ يـاـ بـسـ رـقـيقـ
يـُـشـبـهـ الـكـتـانـ.. وـهـنـ يـسـعـيـ جـاهـدـاـ لـيـتـمـّـقـ.. سـحـبـتـهـ وـأـرـجـعـتـ الـغـطـاءـ

مكانه ثم بحثت عن شيء أخفى القميص فيه.. طبقته برفق وحشرته بين بنطلوني وقميصي قبل أن أخرج متوجباً مواجهة والد بسمة.. بادلته حديثاً سريعاً ورقم تليفون وهمي قبل أن يلتهمني المصعد..

في البيت فردهه فوق السرير.. وقفتأتتأمل النعش فيه لا أكاد أفهم شيئاً غير آيات قرآنية وحروف مقطعة ودوائر وأوراق شجر مرسومة بحبربني داكن.. القميص كان مقاسه «XL».. لم أجده مكتوبأ على الياقة لكنني استتجته حين وضعته برفق فوق كفيفي وتدللي قليلاً.. لم تواتني الجراءة لارتدائه.. النسيج وهن لدرجة التحلل.. سيسير تراباً قبل أن أخلعه!

تحديث لحالي بعد خمسة أيام من رجوعي المستشفى:
يحمل بيتي قميصاً أثرياً مسروقاً من متحف الدولة..
بقياها جريمة قتل لا أعرف عن تفاصيلها سوى أنني مساهم أساسى
فيها..

لم تكن زجاجتا فودكا «Sec» بعراجهما المبهج أن يفعلا شيئاً
حيال ذلك الشعور بالتبه! فتحت الإنترنت لا أدرى ما أكتب، بحثت
في البداية وراء سرقة المتحف ولم أعثر على معلومة تُفيد قبل أن
أكتب مواصفات القميص:

(قميص.. سمني.. آيات.. حروف.. ورق شجر..).

كان بحثي كصيد سمكة بدون صنارة، ولا طعم، أني حتى لا أدرى
ما أبحث عنه! يأسـت كما ينبغي أن يأسـنـ وغيرـتـ ملابـسيـ ثم أخفـتـ
القمـصـ فيـ الدـوـلـاـبـ بـعـدـمـاـ غـلـفـتـ بـكـيـسـ بلاـسـتـيـكـيـ وـخـرـجـتـ
لـأـقـابـلـ لـبـنـيـ..

في الطريق ترددت بداخلي كلمات شريف، أو أيًا كان! حول لبني، اللعين على حق، لم أستطع يوماً أن أنزع من رأسي فكرة عودتها لحياتي مرة ثانية، تعلق طفولي صعب على التغلب عليه، شيء يشبه حلم يقظة متطرقاً، لا يفصلني عن الخوض فيه سوى تذكر مشهد يدي وتراث الدماء تغطيها، يدي التي رأيتها في الصور تخنق مايا، يدي التي ترتعش الآن..

حين وصلت للبني كان النيل قد انسل، الجو خلام من الأكسجين، والرطوبة بحر بموجه وأسماكه ومرابكه، استوينا في ركن وطلبنا قهوة، لفت سيجارة في محاولة للحفاظ على اتزاني وأنا أحكي ما حدث بشكل مخفف قدر الإمكان، لم أحك بالطبع عن مايا! كان يكفيها ما سمعته عن إصابة أخيها والقميص لتطلب مني سيجارة بعدما دار رأسها وتورّد خداها اضطراباً، سكتنا شروداً ننظر للنيل المتهددي بجانبنا، نتظر منه أن يمدنا بإجابة عن المتأهة التي انغرسنا فيها..

- أنا مش عارفة اللي حكىته ده معناه أمل ولا معناه إنه خلاص..

- معناه إن شريف بجد.. قتل.. ما كانش في وعيه.. بس
قتل.. بس!

- ممكن اللجنة تفهم ده؟

- صعب.. إلا لو شافوا حاجة بعينيهم.. هو ده اللي هحاول أعمله لما يرجع العنبر.

- خايفة بعد كل ده.. مش قادرة أتخيل.. يتعدم!

- ما تخافيش.

- ممكن سجارة؟

لفت لها واحدة دستها بين شفتيها وأشعلت النار، فيها وفيّ!
لا أدعّي أنني نسيت ما حدث لمايا لكنني تهت، تهت في وجهها،
أصعب شيء أن تكون بذلك الجوع والطعام أمامك بذلك القرب،
طعام محروم والتلفظ باسمه كفر بين وزنقة، لقد أحللت لنفسي
الخمر والنساء والقمار والقناطير المفترضة من الحشيش والكمبوماء
المقدّسة، ولم تُحل لي لبني! سخونة صدرى فاربت على حرق
التميسن الذي أرتديه، ظللنا على تلك الحالة دقائق حتى أخرجنا من
الشروع بحسر تليفونها.. التقطته من حقيبتها ووضعته على أذنها..

- أيوه يا حبيبي.

شرعتم في القيام لأتركها تتحدث على راحتها فربت على راحتني
لأبقى وأكملت مكالمتها..

- أنا في Meeting.. لا مش في البنك.. يعني.. Around ساعة..
Ok.. حاضر.. باي.

أنهت المكالمة وشغلت عينيها في شاشة التليفون تهرب من عيني
خجلًا.. التزرت الصمت لكنها لم تستطع..

- ده خالد.. أصلّي مش حاكية له التفاصيل.. إني باقابلتك.. يعني
قلت إني قابلت دكتور معرفة من زمان.. وكده.. و...

- غيور؟

- مش بالضبط.. بس صعب أشرح له.. غير إن موضوع شريف
ده كاسفني.

- أكبر منك بقدر إيه؟

- خالد؟؟ آآ..

عاجلتها:

- فوق العشر سنين؟

- عرفت إزاي؟

- طالما آآ.. يبقى فوق العشر سنين.

ضحكـت بشفـاه مـرتعـشـة قبلـ أنـ تـسـقط رـمـاد سـيـجـارـتها فيـ المـنـفـضـة..

- جـوزـي ماـ يـعـرـفـش إـنـي باـشـرب سـعـجاـير.. جـوزـي ماـ يـعـرـفـش إـنـي
كـنـت أـعـرـف حـدـ قـبـلـه.

مـثـلـما يـنـطـقـ الطـفـلـ كـلـمـةـ «والـدىـ» بدـلاـ منـ «بابـاـ» فـي إـعلـانـ صـرـيحـ
أـنـ الـمـسـافـةـ بـيـنـهـمـا أـصـبـحـتـ تـقـاسـ بـالـكـيلـوـمـترـاتـ؛ تـنـطـقـ الـمـرـأـةـ كـلـمـةـ
«جوزـيـ» بدـلاـ منـ ذـكـرـ اـسـمـهـ!!

- خـالـدـ طـيـبـ.. فـوقـ مـاـ تـخـيـلـ.. مـثالـيـ.. مـاـ قـدـرـتـشـ أـصـدـمـهـ وـأـحـكـيـ
لـهـ خـمـسـ دـقـايـقـ حـتـىـ قـبـلـ مـاـ أـتـعـرـفـ عـلـيـهـ.. أـقـصـدـ أـحـكـيـ لـهـ عـنـكـ.. فـيـهـ
نـاسـ تـحـسـ إـنـكـ مـشـ عـاـوزـهـمـ يـتـغـيـرـواـ مـنـ نـاحـيـتـكـ سـتـيـ وـاحـدـ!

- اـتـجـوزـتـي إـزـايـ؟

- المـوـضـوعـ جـهـ بـسـرـعـةـ.. يـيـشـتـغـلـ مـعـاـيـاـ فـيـ الـبـنـكـ.. أـوـلـ سـنـةـ جـواـزـ
مـاـ كـنـاشـ مـتـفـاهـمـينـ.. أـنـاـ كـنـتـ هـاـطـلـقـ.. لـكـنـ بـعـدـ كـدـهـ اـكـتـشـفـتـ إـنـهـ
إـنـسـانـ يـجـنـ.

«ما كناش متفاهمين».. قائلات تلك العبارة في الغالب ينقصهن إضافة كلمة «جنسياً».. كما أن كلمة «يُجَنِّن» لم تخرج على ما يرام من بين شفتيها.. تُشبه رأسي في الطعام المسلوق.. مثالي.. لكن ذلك لا يعني أنه لذيد.. لم تنظر إليّ وهي تتحدث.. تُقاوم الفضفضة ولا تريد لعيني أن تُجبراها.. تركتها تسترسل وتنساب بيسر على المائدة وبيقيت أنا أنحت تفاصيلها..

- عارف؟!

قالتها وسكتت.. ارتعشت أناملها بالسيجارة وهي تبحث عن كلمة مناسبة تحكي بها ما في نفسها قبل أن تُردد:

- مش عارفة أقول.

- ليه؟

- أنت آخر واحد المفروض أقول قدامه الكلام ده.

- اعتبريني دكتور نفسى.

- ما هي دي المشكلة.. مش عارفة أشوفك غير يحيى بتاع زمان.

- إنت مش مسوطة مع خالد!

رجعت بظهرها للكرسي وهزّت ساقيها في اضطراب..

- ليه قلت كده؟

- إحساس..

- أنا كنت حالفة ما أتكلمش..

- لو ماتكلميش معايا هتتكلمي مع مين؟!

ارتعشت أناملها بالسيجارة..

- مش قادره أقول إني ما بابحبوش.. مكسوفة من الفكرة.

- مكسوفة من وجودك معايا؟

- أنا مش امرأة العزيز.. بس مش قادره.. مش باكرهه.. بس
ما بابحبوش الحب اللي.. أنت فاهم حاجة؟

هزّت رأسي ولم أعقب.. حركاتها كانت صادقة صدق كلماتها..
سكتت لحظة ثم سجّلت نفسها سريعاً تكتم به انفعالاً..

- ده مش معناه إني ما بابحبوش.. بس.. ففف.. إيه معنى سكتوك ده؟!

- معناه إني فاهمك.

- تفكّر؟

- المثالية مش كل حاجة.. والحب كمان مش كل حاجة.

- أنت دائمًا كنت أكثر واحد فاهمني.

- وما كانش المفروض أظهر دلوقتي.. مش كده؟

سكتت ثم نطقتها بذهول:

- حاجة زي كده.

- مجرد ما يتلهي موضوع شريف أنا هاختفي.

- مش قصدي.. أنت فهمتني غلط.

- أنا مش زعلان.. الدراما بتقول كده.. لازم أختفي مطرح
ما جيت.

- عارف.. وجودك ده مقوّيني أوي.. وضاعفني في نفس الوقت.
- بُصّي لبتك كتير وأنت تقوى.

- حاسة إني ما أستحقهاش.. وساعات بيص لنفسي في المرأة
مش مصدقة إني بقيت أم.. فاكر أنا كنت عاملة إزاى؟

- أنا مش فاكر أي حاجة غير إنك كتي عاملة إزاى.

تداعب خاتم زواجه الماسي بأناملها.. تلفّه حول بنصرها بعصبية
وضيق.. وجوده بيني وبينها يثير دخاناً بلا نار.. أردفت:

- الحياة مُملة بتموتنى ببطء.. أنا مش ناقصني حاجة.. مستوانا
المادي ممتاز.. خالد مش مخليني عاوزة حاجة.. بيحبني.. وده
هيّموتنى.. وموضوع شريف چه قضى عليا.

- ما فيش حاجة بفضل على حالها.

- إشمعنى أنت فضلت على حالك؟ جوايا!

أمسكت نفسي بالكاد أن أنطق.. نظرت في عيني وأردفت:
- أنا باخرّف.

- خالص.. أنت بتتكلمي عن اللي جوايا أنا كمان.

- وبعدين؟!

- ولا قبلين.. يخلص موضوع شريف وأرجع تاني للركن الضلعة
اللي كنت قاعد فيه..

- كلامك يسموّتني .. يحيى ! الدقائق اللي باقعدها معاك مش هتصدق بتعمل فيا إيه !! أنا باعيش عليها لغاية ما أشوفك تاني .. مش عارفة لو اخفيت ممكن أعمل إيه !

- كل شيء بيتنسى .

- إلا أنت .. فشلت إني أنساك .. وفي نفس الوقت مرعوبة من وجودك .. بيجي لي كوابيس طول الوقت .. وأنا أصلًا باتكلم وأنا نايمه .. عارف .. ساعات باتخيل إني ممكن من غير وعي أنطق اسمك .. أو لو حتى عملت عملية .. تحت البنج ممكن أتكلم عنك .

لم أجده ما أقوله وأخذتنا سكتة ثالثة !

تلك كانت ليلة من الليالي التي يُقال فيها كل شيء، أكثر مما ينبغي، يُقال فيها كل ما يجرح فيقتل ويُعشق فلا يُنسى .. أما السكت فدائماً أبلغ .. يحوي بداخله ما تعجز عنه الكلمات .. وبقائي ساكناً أقاوم لمس يديها دخل بجدارة في حيز المعجزات ..

ظللنا نتابع الجالسين حولنا هاربين من عيني بعضنا بعضاً حتى بدأ يظهر وجه مايا في كل الجالسين حولي فأغمضت عيني على ترحمني ..

- أنا حاسة إنك مش مظبوط .. أنت تعبان ؟

- أنا دائمًا مش مظبوط .. الاستثناء هو إني أبقى مظبوط .. وده ما شفتهوش من بيجي عشر سنين .

- أنا ضايقتك ؟ مش قصدي حاجة بموضوع الكابوس .. أنا أقصد ...

- أنا ما اتضايفتش ..

- عارف .. كنت خايفه أشوفك تاني .. بس من جوايا
كنت باتمنى.

.. «Law of attraction» -

- مش مسألة قانون الجذب .. أنا من غير ما آخذ بالي كنت بانده لك.
- وأنا جيت.

سكتت تتأمل عيني وكلماتي التي تصطاد في المياه العكرة ..

- شكلك مش بتنم .. عينيك تحتها أسود جامد.

- هاعيش.

نظرت ل ساعتها في ضيق ..

- أنا لازم أمشي .. هاشوفك إمتى ؟

- يومين وهاكلّمك .. عندي شغل كثير مع أخوكي.

- خلّي بالك من نفسك.

قالتها ورحلت ..

ساحبة معها الهواء والنور ومبنيات الحياة ..

سألت نفسي لم لا زلت معلقا بها رغم كل تلك السنين؟ لم لم
تبهت وتتفحّص وتنداعي ككل حوانطي القديمة؟ لم لم تولد من ثيدل
نكرتها في قلبي؟ من تمحو آثار شفتيها من على شفتي؟ من تملا
الفراغ الساخن في صدرني؟!

ما المميز فيها عن مايا وعن زوجتي؟

الإجابة كانت مُرعبة..

لا شيء..

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الابتسامة

في اليوم التالي استيقظت عنوة، نصف ساعة ووصلت المستشفى، عرفت حين عُدت أن شريف سيأتي بسيارة إسعاف، سياسة «الغرب» لا تسمح بغياب المتهم بعيداً عن الحجز لمدة طويلة، إلا في حالات العمليات الجراحية الكبيرة، سمعت بوق الإسعاف قبل أن تنهي قهوتي، اقتربت من السيارة وانتظرت السائق ليفتح بابها حين وجدت بداخلها سامح! يجلس بجانب شريف الغائب عن الوعي مُكبلًا في نقالته..

- بتعمل إيه هنا؟ سأله حين نزل.

- المريض بتاعي ولازم أتابعه.

قالها وتركني ليساعد المُمْرِضين في إنزال السرير.. دقائق واستقر شريف في غرفة العزل قبل أن ينسحب سامح.. استوقفته فالتفت لي.. طلبت منه كلمة على انفراد فرفض كرامةً وخوفاً فسرت بجانبه وهمست:

- أنت عاوز إيه بالضبط؟

- عاوز حق رينا يظهر.. نضبط التقرير.. عيب يخرج من ٨ غرب حد يشتغلنا كلنا بالمنظر ده.. أنت راضي على نفسك أنت حُر.. بتكسِس لصاحبك دي مش بتاعتنا.

- الكلام ده تقوله لعيل صغير.
- هو بصراحة فيه سبب كمان.. أرجوك بيتكو تاني زي ما جبت.
- عاجبني في وساختك إنها صريحة.
- من غير زعل.. مش معنى إن صاحبك اشتغلك يستغلنا.
- أنت بتشتغل نفسك.. شريف عيان بعد.
- شهادتك مجروبة.. أنا جدعنة متى ما رضيتش أقول قدام المديرة.
- أنت وقعت على راسك وأنت صغير ولا أتولدت كده؟!
- ماشي.. ماشي يا دكتور يحيى.. عامةً افحص براحتك وأنا هافحص براحتي.. وكل شيخ ولو طريقة.. الحق ما يزعّلش.
- لو ضامن وساختك كنت قلت ماشي.. إنما أنا عارف.. أنت عاوز جنازة تشيع فيها لطم.
- طالما شهادتك مش مجروبة قلقان ليه؟
- لو غلطت معاه أو معايا هاطلع ميتين أمك.
- من خمس سنين كنت أنصف من كده.. أعلى ما في خيلك اركبه.
- تركتني ورحل قبل أن يقف على مسافة ويلتفت مشيراً لأنفه..
- وبرضه مش هتعدي دي.. ورحمة أمي ما هتعدي..
- سامح في معجمي: ناصر شرجي يلتهب في غير وقته ولا تصلح معه المراهقين..

جلست في غرفتي ساعتين مُمْلَتين دار فيهما رأسي حول نفسه ألف مرّة قبل أن يختفي المُمْلِل من المبني.. تابعت شريف من الكوّة الزجاجية في غرفة العزل.. كان خامداً مُسْتَرْخِيَا كبيت مهجور سقطت شُرفاته.. دخلت لأطمئن عليه.. ثوانٍ كانت كافية للصق جهاز التسجيل الصوتي تحت سريره.. لا بد أن أعرف ما يدور بينه وبين سامح حين أكون بعيداً.. كما وجّهت كاميرا المراقبة إلى باب غرفة العزل لأعرف من دخل إليه وكم بقي من الوقت..

حين حل المساء تلقيت مُكالمة ذهبت على أثراها إلى بار «Deals»، صديقة لمايا سألتني عن غيابها المُقلِّق، انتهزت الفرصة لأضع اللمسات النهائية لجريمة بالكاد أستوعبها، وأسأل عن فيل أزرق يؤرقني، فيل أود أن أعرف موطنـه وكيف جاء إلى شقـتي، قبل أن يفتح لي باباً من أبواب الجحيم..

الباريقع في جزيرة الزمالك، متوسط الحجم تنزل من أجله درجتين تحت الرصيف قبل أن تمر بباب خشبي على شكل نصف دائرة، ليتللـك مُباشرة دفء الكحول والإضاءة الصفراء الخافتـة..

على المنضدة التي اعتادت مايا الجلوس عليها لم يكن هناك سوى سالي، صديقة مايا «الأنثـيم»، ملقاء على كـرسـيها مـتجـهمـة تحتـسي خـمرـ القـلقـ، عـانـسـ طـولـةـ الـجـسـمـ وـالـأـظـافـرـ، صـفـراءـ فـاقـعـ لـونـهاـ لاـ تـسـرـ النـاظـرـينـ، لـمـاـ اـقـرـبـتـ مـنـهـاـ قـامـتـ وـضـمـتـيـ بـوجـهـ خـالـيـ منـ الأـصـبـاغـ وـعـبـقـ كـحـولـ، تـرـكـتـهـاـ مـكـرـهـاـ تـنـهـيـ حـضـنـهاـ بـطـيـ الإـيقـاعـ، أـنـفـخـ شـعـرـهاـ بـعـيدـاـ عـنـ فـميـ حتـىـ لاـ أـتـقـيـأـ قـبـلـ أـنـ نـجـلـسـ..

- «My Baby» ما بتخبيش عنّي حاجة.. أول مرّة تخفي بالشكل
ده.. وتليفونها مقول.. أنا هاتجّن.

- ربنا يستر.

- أنا تخيلتها عندك!

- أنا ما شفتش مايا من خمسة أيام !!

مسحت شعرها المصبoug بالصفار وأشعلت سيجارة..

- آخر مكالمة من مايا كانت بتقول لي إنها رايحة لك !!

صدرت وجهي العبيط الذي أمتاز به أحياناً..

- صَحَّ.. كلمتني وقالت إنها جاية.. بس ما جاتش.

- مايا ما لهاش حدّ غيري لو كانت ناوية على حاجة كانت قالت
لي.. لازم يكون حصل لها حاجة.

- حد من البيت عندها دور في الأقسام أو المستشفيات؟

- متهدّأ لي بيعملوا كده النهاردة.. أنا مش قادرة أتخيل.. باترعب
لما أتخيل إن يكون حصل لها حاجة.. ممكن تكون اخطفت..
!!«Ohh my God»

- اتصلتني بكل معارفها؟

- وصحباتها في شغلها وريهام بنت خالتها.

- مرّة كانت حكت لي إنها بتنجز من عند حدّ في المعادي..

سكت وقطبت جينها ملقيه بعينها بعيدا تستدعي من
الذاكرة شيئا..

- تاكي.. «Son of the bitch» ..

- مين تاكي؟

- تاكي.. بس ده غلبان.. و «Gay» أصلأ.. مايا كانت بتجيب من
عنهه «Some Stuff».

- «Stuff» إيه؟

- «LSD» ..

- «LSD» بس؟ طب معاكي حاجة من الـ «Stuff» ده دلوقي؟
مايا هي اللي كانت بتجيب عشان تاكي مُعرف ويحافظ عشان
يعمل «Delivery».. «Oh My Bay».. أنا مش مصدقة!! مش مصدقة
يا يحيى.

أجهشت بالبكاء وارتمت على المنضدة مُبعثرة شعرها البشع
على ذراعي..

- مكانه فين تاكي ده؟ مُمكن أسأله يمكن يعرف حاجة.. أو
شافها.. أو... مكانه فين؟

- هو في المعادي.. «I don't know».. استنى.. معايا تليفونه..
«Where is the fuckin phone?!».

تركتها في حالة يرثى لها ولم تتبه حين رحلت.. اتصلت بهذا
التاكي وأجابني.. بعد مقدمة شرحت له فيها آني من شلة «Deals»
الزمالك سألته عن أقراص الفيل الأزرق..

- فيل إيه يا Man.. أنا ماليش في الجو ده.. مش فاهم حاجة!!

- مايا هي اللي كلمتني عليه.. الـ «DMT» ..

سَكَتْ قليلاً قبل أن يُجيئني..

- القرص بميّة وثمانين.. و«Maximum» تلات أقراص..

- إِشِّمعنِي ..

- يا Man ده بسيجي بالعافية وكمية قليلة..

- أقابلوك فين؟

انتظرته عند ناصية اتفقنا عليها وجاءَ بعد ميعاده بنصف ساعة راكباً موتوسيكل صوته صَاحِب، يشبه «Eminem»؛ مُطرب الراب الشهير، لكنه منكوش الشعر كز عافة سقف، مسلول يغطي ما تيسر من كُفافته المُبَعثرة بقبعة أخفت مَعَالِم وجهه، وقف أمامي ونادي اسمي فهزَّ رأسِي موافقة، نَظَرَ حوله جيداً وداعب أنفه شعوراً بخطأ ما يفعله ثم طلب النقود، اقتربت فأشار لي أن أبقى مكانِي، أُلقيت له بخمسمائه وأربعين جنيهاً عند عجلة الموتوسيكل فالتقطها وعدّها، ثم أخرج من جيبي علبة سجائر ونظر حوله ثانية قبل أن يلقيها بين قدميّ، انحنىت والتقطتها وحين قُمت كان قد رَحل، فتحتها مواربة فلمحت ثلاثة أفيال زُرق يلعبون..

في البيت جلست أمام المنضدة، وَضَعْتُ القرص تحت قاع زجاجة الـ «Absinthe» ونظرت من الفوهة، تلك ميزة من مزايا الكُحول، تستطيع أن تستعمل زجاجته كما يكره سكوب!

فأسا! الفيل كان يحمل فأسا في يده ورأسه ملفوف بشال هندي،
أبعدت الزجاجة وأنا أتذكر «الرؤيا» الكيميائية التي رأيتها من قبل،
أعرف جيداً تأثير المُهلوسات، عَبَث في وصلات المُخ، مَاس كهربى
يُضرِبُ الخلايا والمستقبلات فيثير جنونها، رحلة نظرية وأنت جالس
على كنبتك مُعززاً مُكرماً، أصدق من حلم، البعض يرى نفسه ميتاً
وتأكله الديدان، والبعض يرى الأنبياء ويتحدث إلى الملائكة ويبعث
إلى قوم كفراً ليهدِيُهم وينزل بهم العذاب..

والبعض يقنعه فيل أزرق في لحظة غياب أن يقتل مايا!!

فتحت «Google» وكتبت حروف «DMT» في خانة البحث،
النتيجة جاءت في كلمة طويلة تحمل الأبجدية اللاتينية كُلّها،
«Dimethyltryptamine»، ومُختصرها «DMT»، مادة طبيعية
تُستخرج من النباتات على نطاق واسع، والثدييات بشكل أقل،
وتفرز بشراهة في جسد الإنسان لحظة موته، لتهيئ العقل «عنوة»
على الانتقال من العالم الواقعي الملموس الذي نعيشه إلى العالم
الغَيْبِيِّ المُبِهم بعد الموت، عالم البرزخ، فيستطيع العقل استيغاب
ما هو مُقدِّم عليه..

وقد تَبيَّنَ أن انبعاث كميات هائلة من الـ«DMT» من الغدة
الصنوبرية في تعويف المُخ أثناء فترات الغَيْبوبة قد يكون سبباً في
الشعور بتجربة الاقتراب من الموت والتحليق خارج الجسم.. ويتم
تعاطي الـ«DMT» بين المدمنين على هيئة أقراص أو عن طريق الشم
أو التدخين؛ فيوفر للمتعاطي تذكرة مجانية للعالم الآخر..

تذكرة ذهاب وعودة!

تفسيرِي الوحيد أن السَّمِين الهندي قد أخذني في رحلة لبرزخ
مهجور مُظْلِم، قبل أن يطبع بخرطومه على قشرة مخّي ما حدث بين
بسمة وشريف، طبعه بألوان طبيعية، وتولّيت أنا تنفيذه، بلاوعي،
نظريًّا الرحلة كانت ناجحة، مشمرة ومُسلية، عمليًّا، لقد خضت أرضاً
ليس لي فيها تصريح مرور، أرض ملغومة لا أعرف كيف ارتادها الفيل
بخدمي الضخمتين وخرج سليمًا !!

أحياناً أتساءل لم حَرَم ربِّي المُخدرات؟!

هل تفتح لنا مستوى سحرًياً مختوماً بكلمة سر في لعبة (Video)
لا يرقى عقلنا وقدراتنا لاستيعابه؟

أم أنه مستوى نكون فيه وحدهما، بلا غطاء، بلا ملائكة حارس !
لن أعرف أبداً، لكنني قررت خوض رحلتي الثانية مع نفس
الشركة، «الفيل الأزرق للسفر والسياحة»، وبصحبة الـ (Absinthe)
ضامناً نفس مستوى الخدمة قاصداً البابيين الباقيين، صَبَّيت الكحول
الأخضر فوق قالب السكر في كأس وأشعلت النار قبل أن أضع فوق
لسانِي فيلاً مالبس أن انزلق بنعومة..

بعد نصف ساعة..

لم يجدُث شيء ..

كما أنا؛ مُستلقياً، على كنبتي ولا شيء! فقط، الكتبة لم تكن على
ما يُرام، لم تعد كما هي مُقعرة تصنع صوتاً حين أتحرك، باتت بضعة
مريحة وأذْحَب، مكسوّة بقطيفة حمراء، كما أن يديها أصبحتا أكثر
ارتفاعاً، لم أكن أعرف أنّ خشبها محفور بالنقوش! ورد وملائكة

صغار! كما لاحظت السجادة تحت قدمي، سجادة يَدوِّيَ النسيج
مرسوم عليها وَحداتٌ مكررة من الغزلان والطيور، يُطاردهم أسد
يُشبه أسد أبي زيد الهلالي، كان يطاردهم بالفعل حين دققت قبل
أن يلحق بغزالة صغيرة وينهشها قرب الشراشيب!! السجادة كانت
مثقوبة في المنتصف، ومُفرَغًا فيها دائرة تسمح للشجرة العتيقة أن
ترتعش، شجرة كافور ثقبت سقف صالتني واستجلبت الشمس إلى
أرض الصالة، تخلل أشعتها الهواء في خطوط مُتوازية عَكَسها الغبار،
قُمت إليها ألامس جسمها العتيق خَشِن الملمس، كانت تقطر ماءً
لزجة راحتها ظيبة، كافور إن كنت أعرف رائحة الأصللي منه، نظرت
إلى فوق فأعمت الشمس حدقتي، أنزلت عيني حين عَبَر بجانبي عم
سيداً! ترزي المستشفى، كما رأيته منذ أيام، ترينج أحضر باهت وقبعة
رياضية هالكة وفم شحيح الأسنان، ويحمل في يده كيس الأقمشة
والخيوط، هَمَس في أذني بكلمات قالها لي من قبل..

- هو عارف إِنْك هترجع.. مكتوب تقابل عند الشجرة..

- هو مين يا عم سيد؟

- المأمون..

- المأمون!! مأمون مين؟

- المأمون.. صاحب البيت.. صاحب الشر..

.....

- عم سيد استنى..

اللئيم لم يُعرني انتباها، ما لبث أن تمشى بهدوء يُخشى بكسه
في العُرقـة المؤدية للمطبخ، هَرَعْت وراءه فلم أجـد له أثراً، رَجـعت

للصالحة أتأمل فأاعيل صاحب البيت الذي باعني الشقة، الوعد لم يذكر
 أن هناك شجورة كافور توسط صالتي ! كما لم يذكر أن هناك مشربية
 بجانب الزير الكبير وقلتين في صينية وبعض النعناع !! اللعنة على
 اتحاد الملاك الفاسد ! نظرت من فتحات المشربية فلم أر حديقتي
 المهملة، المشربية كانت تطل على ساحة كبيرة محاطة بأشجار
 الليمون، وفي المنتصف حوض ماء تطفو فوقه أوراق زنبق الماء
 الدائيرة تحوم قربها الفراشات، بجانب البَغل ! بَغل ضخم أطول من
 حصان، مربوط ثابت في مكانه، لون الشعر في جلدهبني ينحرف إلى
 أزرق مع ضيّ الشمس، كرقبة الحمام، شَرَدت في هيئته استغراها حتى
 انتزعني صوت همس مكتوم، نميمة أنثوية رتيبة، الصوت كان يأتي
 من الباب الموارب بين الأبواب الثلاثة، هنا بدأ النبض، نبض المكان
 من حولي، أسمع الطرقات في أذني، ثم بدأ كل شيء يتحرك، يتلوى
 كأنه أسير في قاع بحر، اتجهت للباب ببطئ المعهود في مثل تلك
 الرحلات، أشعر وأنا أسير كأنني أحلق فوق مستوى رأسي بمترین،
 أنظر لنفسي من فوق «يحيى» كأنني طفل يركب فوق كتفه، كأنني
 باللون هيليوم مشدودة إلى جسدي بحبل شفاف، اقتربت من الباب
 الخشبي ودفعته، كان سميكة ثقيلا كالرخام، لكنه تحرك..

بالداخل كانت الرائحة ذكية نفاذة، تأتي من دخان مبخرة بجانب
 سرير ضخم مُلتصق بالحائط، عواميده الغليظة الأربع تصل قرب
 السقف مشدود بينها ناموسية ضخمة كشبكة صيد حيتان، ومن تحتها
 أمرأتان تهامسان، الأولى شابة، هاربة من قصور «حور العين» في
 الجنة، ترتدي رداء كتانياً أبيض منقوشا بأفرع رفيعة، شعرها طويل
 يكاد يصل لركبتها إذا وقفت نائمة على جنبها، حاسرة الرداء عن

فخذها تمسك بين يديها مِرآة تعكس لعيتها أعلى وركها المُذهلة! ووجهها يملؤه شغف وألم رأيته في عضة شفتها السفلية.. المرأة التي تجلس أمامها لم أتبينها من زاويتي، كانت توليني ظهرها، مكتنزة الأرداف وستها متقدمة، عروق يديها نافرة كمواسير تتسلق عمارة عتيقة، تمسك ما يُشبه إبرة مثبتة في بُوصلة، مُنكبة ساجدة على الورك الماحرة تنظرها برتابة لتسخ رسمًا في ورقه بجانبها، كُلٌّ يضع وحزات للإبرة تدنس يدها في طبق صغير مملوء ببودرة زرقاء داكنة، تمسح بها فوق الثقوب التي تقطرت بالدماء فيتسرب اللون تحت الجلد الشفاف ليسُكن ويستقر!

تبَسَت في مكاني أرافق أصابع قدمي الحسناء التي تنكمش على نفسها المَاء، ويديها اللتين تعتصران ملاعة السرير العتيق، تتحدث المرأة العجوز بشيء لم أسمعه، حاولت الاقتراب فخانتني قدماي كعادتهما، ثبت في الأرض كشجرة يتسلقها النمل، يدخلها وينهشها ولا أقوى على طرده، أصغيت بكل قواي اعتصر الهواء وبالكاد فسرت حوارهن..

- يا خالة.. جلدي بيقطع.. ما عُتِش قادره.

- لجل الورد ينسقي العُليق.. اصبري يا بستي.

- خايفة ما يكون ليه فايدة الدكّ ده.. كُننا نقشتاه حِنة.

- رسمة الوردة لازم تبات في جلدك اتنين وسبعين يوم لغاية ما ينفك سحرك.

- هاتجنب يا خالة.. المأمون كُلٌّ ما يقرب مني بشفوف قعر يحيطه مسدودة.

- ماتستهونيش بِأَمِ الْصَّيَانِ! دِي غُولَة بِرِ جُلَين بِقَرَه وَصَرْخَتْهَا تَجِنَّ
الرِّجَال.. هِي الَّتِي عَامِلَة فِي كِيِّ الْعَمَل.. بَتَعْمِي عَيْنِيهِ عَنْ عَسْكَ.

- يَا لَهُوَي يَا مَهِ.. مَشْ قَادِرَة! أَنَا خَابِفَة يَا خَالَة.. أَيِ.. أَيِ..

- اِجْمَدِي.

- مَشْ قَادِرَة.

- خَلاَص.. خَلَّي جُوزَك يَفْضُل يَشُوف زَرْزُورَك مَسْدُود..

- هِيرَجَع يَا خَالَة يَعَاشِرُنِي؟

- هِيرَجَع! هِيرَجَع وَيَشُوف شَقَّك شَهَدَ مَعْشَل، الطَّلَسْمَ هِيفُك
عَيْنِ «أَمِ الْصَّيَانِ».

- وَيَعْشُقُنِي زَيِّ لَاوِ؟

- عِشَقَك هِيَصْلِيَه، هِيَسْجِي رَاكِع يَقْبَلُ قَدْمَك، هِيَصِيرِ لِكَ عَبْد..

- مَنْ بَقَك لَبَابُ السَّمَا يَا خَالَة.

وَتَاهَتِ الْكَلْمَاتِ فِي الْهَوَاءِ، اسْتَرْقَتِ السَّمْعُ أَكْثَرَ فَلَمْ أَلْتَقْطُ شَيْئًا،
قَبْلَ أَنْ تَرْتَخِي النَّاَمُوسِيَّةِ فَوْقَهِنَ فِي نَفْسِ الْلَّحْظَةِ الَّتِي تَحرَرَتْ قَدْمَايِ،
نَسِيَّاً، رَفَعَتْ سَاقِيَ الَّتِي تَرَنَ طَنَّاً وَرِيعَاً وَتَحْرَكَتْ، خَمْسَ حُطَوَاتٍ
ثَقِيلَة مُرْهَقَة وَوَصَلَتِ السَّرِيرِ، اسْتَجَمَعَتْ شَجَاعَتِي وَأَزَحَتْ السَّتَارِ
فَلَمْ أَجِدْهُمَا، الطَّفَلُ كَانَ عَارِيًّا مُسْتَلْقِيًّا عَلَى ظَهَرِهِ، طَفَلٌ غَايَةٌ فِي
الْجَمَالِ، لَمْ أَكُنْ لَأَخْطُوَ الشَّبَهَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمَهِ، يَمْلِكُ وَجْهَهَا وَشَامِتَهَا
الصَّغِيرَةُ فَوْقَ جَيْنِهَا وَفَتَلَةُ شَعْرِهَا النَّاعِمَةِ، لَكِنْ ذَرَاعُ الْمُسْكِينِ كَانَ

تحمل وحمة دموية حمراء عَكَرْت صَفُو نقاها، اقتربت منه فالتفت
لي ببؤبؤ عينيه الواسع شديد السوداد، رفعت ذراعه أتأمل وحمته،
لامستها فتحركت أو هكذا خُلِّي إلى، كأنها زئبق يتلوّى تحت زجاج
شفاف، وضعت أناملily ثانية فوقها فتحركت تجاه أصبعي كبرادة
حَدِيدَ تَعْرُف طريقها نحو مَغناطيس، تجمَع تحت بصمتي، تتنفس،
تسارع، تفور بعنف! رَفعت سبابتي فهدأت، ثم سكتت، لامست
أنامله الصغيرة فاحتضن إيهامي بكفه المنمق، ابتسمت له متابعاً
انعكاسي في عينيه اللامعتين فابتسم رغم سنّة التي لم تعرف الابتسام
بعد، شردت في براءته حتى شعرت الوخزة، انتفضت وسحبت يدي
لا إرادياً أنظر لإيهامي التي حَصَلت على ثُقب صَغِير بـحجم شَكَّة
إبْرَة، نَظَرَت للطفل مُرْتَبَا قبل أن أسحب كفه أفتح فيها عن شيء
حاد سَيِّلَعه حَتَّماً إن لم ينغرز فيه، لم أجِد شيئاً، الجرح الْمُنْيِّ نبضاً
فنظرت فيه أفحصه، شيء أسود كان تحت الجلد، شيء طوله حوالي
ستيمترین! فزعَا نَظَرَت للطفل الذي سكن يتأملني كأنه يتظاهر حدثاً،
يرمقي بتركيز شديد، عيناه، ملأِمْحَه، شيء ما تبَدَّل! نَبْضُ الْأَلْمِ
أعاد انتباхи لإيهامي المُخْتَرقة، اللحظات التي رمقت فيها الطفل
زادته احتقاناً وسخونة، الكيان الأسود يتحرك، ينهش اللحم، فأرَى
خيثياً يعرف طريقه في مَاسورة المَجاري، صَرَخت ألمًا ولم أسمع
صوتي، والطفل صامت ساكن يتأملني بلا حركة، تمثال ملاك مُتقن
الصُّنْع، الكيان يتخذ طريقه تجاه ظفري والألم يتضاعف بجهون،
ابعدت عن السرير أبحث عن شيء أفتح به إيهامي، أحفرها أو
أقطعها، فالألْم بات غير مُحتمل، الكائن أصبح تحت الظفر، الشفافية
جعلتني أرى تفاصيله، ميّزت أرجل دقيقة تخرج من جسم بغيض،

حشرة! لها ست أرجل ، كِدت أفرغ ما في معدتي قبل أن أنحنى عنوة على الأرض أعتصر إيهامي ، أخبطها على أرض الغرفة الحجرية علّه يتوقف عن نهشي ، عرقني نشع نهرا بلا سد يصعب السيطرة عليه وتهدّج نفسي ، ثم ظهرت الساق الأولى ، مُشعرة يابسة مُقرضة ، اهتزاز أعصابي لم يُمكّنني من سحبها وإخراجها ، كما أن فكرة أن تقطع وييفي الجسم ميتاً بداخلني قتلتني ، شوهدتني نفسياً ، ثوانٍ وبرزت قدم أخرى قبل أن تخرج الرأس ، خنفساء! خنفساء قرمذية بدینة ، خرجت بصعوبة وما لبست أن فردت جناحيها المخبئين وطارت بعيداً ، إلى السقف ، بالكاد أمسكت نفسي من أن أغوص في هبوط حاد ، ارتميت على ظهري أتأمل إيهامي التي باسّت فيها حفرة بحجمها ، حفرة لم تُخرج نقطة دم واحدة ، أرخت ذراعي بجانبي ورمت السقف ، السقف القرمزى ، لم يكن ذلك لونه ، كان لون الخنافس التي سرت أخشابه كلها وصبغته بالحمراء ، بلا منفذ للون السقف الأصلي ، هنا انتبهت لصوت الاحتاك ، احتاك أجسادها المقزز ، كتمت أنفاسي وتحاملت حتى قُمت راكعاً رغمّاً عنّي لأن رأسي سيطول السقف العالى ، تذكرت الطفل فاقتربت من السرير وأزاحت الناموسية فلم أجده! كانت هناك فقط كتلة داكنة ، انحنىت مدققاً فميّزت كومة من الخنافس تتحرك فوق بعضها!! ركضت مُسرعاً ، ببطء شديد ، أضغط إيهامي في راحة يدي تشتيتاً للألم ، أنظر للسقف خوفاً وطمئناً في خروج آمن ، ما إن أمسكت مقبض الباب حتى توقف الاحتاك ، نظرت خلفي بعد تردد فرأيتهم يتلقّطون كالمطر ويَحفون على الأرض ، السقف كله ينهار ، أدرت المقبض وفتحت الباب ، ثانيةً كانتا تفصلانني عنهم ، زمن طويل غير كافٍ في عالمي اللزج ، بالكاد

آخر جت جسدي وجرت الباب خلفي غلقاً، سحبته بثقله الرَّهيب وأغلقته قبل أن أرْتَمِي على الأرض مُلتقطاً صوت جيش الخنافس وهو يتراكم على الباب، رَجعَت زَحْفَاً إلى الكنبة وارْتَمِيت التقط أنفاسي، مُراقباً الباب مُستظِراً سقوطه في أي لحظة واحتلال الجيش الأحمر جسدي، دقائق من الرُّعب تحركت فيها الشمس حتى سقطت على عيني من بين أغصان الشجرة العتيقة، أثارت دموعي وأعمتني، أغمضت عيني وتكونت على نفسي قبل أن أستلقى على جنبي، شُعور بالخدر اجتاحتني فاستسلمت له استسلام جندي بُتر نصفين من تحت السرّة في معركة..

كان ذلك حين سقط جفناي..

بالكاد استيقظت..

كان الوقت ليلاً ولا يزال، أظنتني لبنت ساعة أو بضع ساعات،
هكذا ظنّ فتية الكَهف يوماً! التّقويم في تليفوني المَحمول وعدّد
المُكالمات الفَائِتة كان يشير لِيوم كامل بُتْر من حياتي، أربعة وعشرون
ساعة سقطت سهراً، سَاعات كانت كافية لاقتلاع شجرة كافور من
مكانتها وفناء سجادة بشر اشتبها واختفاء زير وأبواب وانطمام
شمس، ونفوق بَغْلَ كَبِير! لم يَقِنْ لي غير نَبْض يَلْفَظُ أنفاسه الأُخِيرَة،
نَبْض أثاث ما زال يَتَحْرُكُ حَرْكَة خَفِيفَةٍ تجاه الحِيطان، بالكاد أحظتها،
بحثت عن بقايا أقراص الفيل بجانبي على الكنبة حين دهمني سيخ
الْأَلْم، ألم سبابتي التي حملت حُفرة..

حُفرة تسع خنفسياء حمراء !!

قمت ركضاً بباب غرفتي، فتحته على مصراعيه ورمقت السقف،
لم يكن هناك غير النجفة المحروق نصف لمباتها، وسريري كما
عهده، فرشة ملابس مستعملة على رصيف ومقلب للجوارب!

أمام مِرآة الحَمَام حَاوَلت تَمْلِكُ أَعْصَابِي، رَعْشَةٌ يَدِي كانت
تُصْعِبُ عَلَيَّ رؤية الجَرْح المَتَهَّك كِماسُورَةٌ مَدْفَعَةٌ منْفَجِرَة، الثُّقب

الآتي من عالم الفيل الأزرق، لففته في شاش وخرجت إلى أقرب مستوصف صحي، حُقنت ببنج موضعي وتم تخييط الجرح وتغطيته قبل أن يسألني الطبيب عن سبب الجرح الغريب الممتد من الداخل للخارج، أجبته بشيء عن مسمار وشاوكوش وأشياء أخرى لم تبد مقنعة، ثم خرجت إلى شوارع ثكنات المعادي أضخم نيكوتيني كقطار بخاري أعمى، بالكاد أستجمع تفاصيل تطاير كالكحول من رأسي، جلست على الرصيف وأخرجت أجندتي والقلم، دونت كلمات متصلة منفصلة قد تساعدني على التذكرة، وشم بسمة، في أي زمن كنت؟ سقف الخنافس، البغل الأزرق وشجرة الكافور، اللعنة، ذلك تيه ي فوق تيه اليهود في سيناء! عليّ أن أرجع للبيت وأستكمل رحلتي الكيميائية، كان هذا حين صرخت معدتي! نسيتها جائعة، عليّ أن أضع لها الطعام في طبق، كما أن ذهابي في رحلة بصحبة الفيل الآن قد يكون ذهاباً بلا عودة في ظل حكم بتكرير اس متهالك وشبه غيبوبة سُكّر لم يمر عليها وقت طويل! أسعى منذ زمن للاتحرار بالتقسيط، لكنها ليست بالليلة المناسبة! عليّ أن أستعيد عافيتي لأخوض رحلة أخرى، وأن أتابع ما حدث لشريف في اليوم الساقط من حياتي، لا أظن سامح قد أهدر فرصة في استفزازه والطرق بقضيب ساخن على أعصابه، لن يفهم ذلك الجاموس أن شريف يملك شخصيتين! سامح يصنع بيديه فرصة حقيقة لرجمي حياً، مجد القضاء على منافس في عالم الذكورة، ولن يتخلّى عن حلمه! كما أن وجود لبني يضغط على غدّتي النخامية وينصب في دمي كحولاً رائقاً من كوب طويل مملوء ثلجاً، لم أكن لأفكّر، سَجَّبت هيئتي المزريّة وجروح أصبعي المتهدّكة واتجهت لمستشفى العباسية..

حين وصلت كان الليل قد حلّ، كل شيء هادئ ميت بسلام، أقيمت نظرة على غرفة العزل فوجدها غارقة في الظلمة ساكنة، دخلت غرفتي وأيقظت الكمبيوتر، بحثت عن الملف المخفي ونقرته، تابعت اللقطات في رتابة، تمثل حالة العنبر طوال اليوم، استطعت حصر حركة النزلاء من التوقيت المكتوب في أسفل الشاشة، بعضهم كان كالذبابة لا يملأ من اللف والدوران، والبعض الآخر بدا صنماً لا يتحرك إلا صدره للتنفس، وغرفة شريف ساكنة لم يفتح بابها سوى لمُحسن المُمْرض، دخل بصينية الوجبة، وما لبث أن التقاطها بعد ساعة كَما هي لم تَتغير، اللعين لا يقرب الطعام! سرّعت إيقاع اللقطات حتى ظهر سامح قبل نهاية النهار، دار دورتين وسط نزلاء العنبر قبل أن يدخل غرفة العزل، أبطأت السرعة وتابعت، فقط كنت ألاحظ رأسه يظهر من حين لآخر من فتحة الباب الزجاجية، يتحدث إلى شريف، ثُلث ساعة قضتها بالداخل قبل أن يخرج ووجهه عابس مُندَهش! باقي الساعات لم ألحظ فيها تغييرًا، أخفقت الملف في رُكن آمن وخرّجت التمس غرفة العزل، لكرزت عسكري الحراسة ففتح لي الباب وأمرته بإغلاقه ورائي، الظلام كان دامساً ولم أشأ إضاءة النور حتى لا أوقف شريف أو النزلاء، تسللت حتى لامست سريره، مشيت بـأنا ملي تحت حافته حتى عانقت جهاز التسجيل، هممت بفك الشريط اللاصق لأنحرج كارت الذاكرة حين سمعت صوته:

- شفت «بحر»؟

انتفضت من أثر الصوت.. بحثت بيدي عن زرّ النور حتى وجدته فانجلت الغرفة.. شريف كان جالساً فوق السرير ساندًا ظهره للحائط فارجاً ساقيه.. رافعاً يده أمام عينيه..

- اطفي النور..

قالها بصرامة فأنزلت المقبس مكتفيًا بالضيّ الخافت المتسلل من
العَنبر عبر النافذة الزجاجية للباب لأشعر أبعاد الغُرفة..

- كان اسمه «بحر»..

- مين اللي كان اسمه بحر؟

- البَغل..

!!...-

- كان أكبر بَغل في المنطقة.. أمه فرسة عربي مأصلة من الْيَمْن..
لونه بنّي.. بس في ضيّ الشمس اللمعة الزرقاء بتظهر زي رقبة
الحمامات.. عشان كده سمّيته بَحر..

- أنا مش فاهم حاجة.. بَغل إيه؟ أنت إزاي شفت الـ...

قاطعني بلا مبالاة..

- لقيت القميص؟

- القميص معايا..

لم أره لكنني شعرت بانتباذه وتعديلاته من جلسته حين عرف أنني
حصلت على القميص..

- القميص ده لازم يرجع.. احرقه..

!!!-

من قال «القميص لازم يرجع»، ليس هو من أمرني الآن بحرقه!!

اختلف الصوت، الأول لم يكن شريف، كان صوّتاً عميقاً هادئاً
أجش، آتياً من حنجرة رجولية ثابتة الأحوال، أما الثاني، فلم يكن
أيضاً شريف! بدا لي أقرب لナيل، نفس الحدة والبحّة، لكن من هو
الأول؟ اتّابعني رعشة حين فكرت في الضيف الذي حلّ في الغرفة،
نحن الآن أربعة إذا صدق حديسي !!

- أفهم الأول.. وصل إزاي شقتك؟ سالت شخصاً من الثلاثة..

- سرقته.. مكانه الأصلي مع صاحبه.. احرقه يا يحيى.

الغرفة أصبحت مزدحمة! تراجعت خطوتين مُحاولاً استبيان مع
من أتكلّم، الإظلام اللعين يفقدني القدرة على قراءة لغة العجسد..

- ممكن أنور النور؟

- أنت مش تحتاج نور عشان تشفّف.

- أحكي.

ساد الصمت لحظات.. سمعت خلالها طنين ألف نحلة قبل أن
أسمع إجابة..

- التزم بقواعد اللعبة.. عشان تعرف إجابة لازم أسألك سؤال.

يبدو أن من فاز بالصراع كان نائل..

- كام مرة غمضت عينيك وشفت لبني في حضنك؟ من
غير كدب.

- عاوزني أصارحك إزاي وأنت مش بتتجاوب؟

على مضض أجبته:

- مرتين ..

- بعد كل وجبة؟ أنا مستغرب إزاي ما انتحرتش لغاية دلوقت؟

- أنا كمان ..

- هاتقضّي عمرك كله تفرج عليها في الفاترينة!

- المفروض أعمل إيه؟

- الست تحب الرجال اللي يشدّها لحُضنه ..

- ويضربها ويغتصبها .. مش كده؟

- ساعات المقاومة بتكون فيها اللّة ..

- ساعات برضه الساديزم بيكون مرض مستخبي وما بيهظرش غير في ظروف معينة .. أنت مين؟

- أنت عارف اسمي ..

- نائل؟ ولا حد تاني .. تالت؟!

- مافيش حد تالت ..

- بتكذب! أنا سمعت صوته ..

- صاحبك مسكين .. كويس إنه عارف يطلع صوت ..

- القميص !!

- احرقه .. القميص ده فيه هلاكك .. لبني محتاجة لك ..

- يا دى لبى !!

- ما تنكرش إن فيه مُتعة إنك تدوقها دلوقتي أكثر من زمان..
المقاومة.. النزع.. صعوبة الوصول بتخلّي كل حاجة ليها
طعم تانى.

- ما تغّيرش الموضوع.

- بالعكس.. رغبتك اللي بتحاول تكتمها هي اللي مبوّخة الكلام..
إحنا متفقين على الصراحة.

- نفسك فيها؟

- كان.. نفسي فيها.

- هتسبيها تعيش مع حد مش بتجبه؟

لم تكن لكلماته إجابة..

- أنت بتتحرر.. وهي مالهاش ذنب.

- إزاى بتقدر تدخل أحلامي؟

- أنا ما بدخلش أحلامك.. أنت اللي بتدخل العالم بتاعي.

- يا شريف.. إذا كنت سامعني ساعدني.. ساعد نفسك.. أنا
ما بقتش فاهم حاجة.

- القميص.. تحرق القميص.. تاخذ كل الإجابات.

- مش هاحرق القميص من غير ما أفهم.

- أنت بتآذى نفسك.

- لو ما فهمتش هاسلم القميص ده.. إضافة تهمة سرقة لجريمة قتل مش هتفرق كتير في تهمك.

قلتها بنبرة حادة عالية قبل أن يسود الصمت مع آخر كلماتي بوقعه المزعج.. صفاراة السُّكون في غرفة معزولة تجعل منك أصم.. هدوءه المُباغت أقلقني فرجعت خطوة كافية لضغط مقبس النور.. أضيئت الغرفة كسرًا من الثانية قبل أن ترتعش لمبة النيون وتنطفئ.. شريف كان جالساً على سريره ينظر نحوي.. ثم تحرّك.. سمعت صرير السرير قبل وقع ملامسة خطواته الأرض.. اللعنة على لعبات النيون.. مع الومرة الثانية لمحته بعيدًا عن سريره خطوة.. على بعد ثلاثة أمتار مني.. شريف لم يد على ما يرام.. الغضب كان يعلو وجهه أو هكذا خُيل إلي.. لم تسمح لي الظلمة بالتدقيق.. أنزلت المقبس ورفعته ثانية فأنارت اللمبة بأزيز متقطّع وبقطقة موت الـ «Starter» قبل أن تنبض بضمونها الأزرق لكسر آخر من الثانية.. بات على بعد مترين مني.. لا أتحدث هنا عن شريف..

أتحدث عن الشخص الآخر الذي يقترب مني..

شخص أطول من شريف وأعرض.. خمرى البشرة عريض الصدغ!! هكذا لمحت قبل أن يندفع الأدرينالين ساخناً من فوق كلتي في جنون أسرع خلايابي وحرقها جزعاً.. رفعت الزر وأنزلته ثلاثة وانقضضت على مقبض الباب أحذبه بهستيريا.. بالطبع كان يفتح من الخارج فقط في عنبر العزل! الصفت ظهوري بالحائط جاخط العينين جوعاً للتفاصيل.. ومضة أخرى لم أره فيها! الغرفة كانت

خالية!! العَصْبُ الْبَصْرِيُّ لم يكن ليتحمل ذلك التابع السريع للظلمة والنور.. لكن الغرفة كانت خالية!! ومضة إضافية برقت فوجده على بُعد متر مني.. ذلك كان شريف! أو نائل!! تحرّكت الكهرباء على جسدي برعشة غير معهودة.. لم يكن خداع بصر ولا تخاريف نيون يَختضر!! مع الوصلة الأخيرة أصبح أمامي.. رجل في الأربعينيات قوي البنية.. شعره منسدل يصل قرب كتفيه.. لحيته مشذبة مُدببة.. وعيناه عيناً قاسية تحملان حزنًا وهمًا لم يكن ليتحمله إنسان.. عضلاته مفتولة وقبضته التي اعتصرت رقبتي أصابعها غليظة قاسية.. ذراعه التي دفعتني للحائط كانت ذراعًا قوية لم تشبه ذراع شريف الهزيلة سوى في الوشم المنقوش فوقها.. الوشم الذي يتحرك بهدوء.. وَمضات النيون وقطفته أصبحت بأهمية دخول وخروج أنفاسي.. وسيلة أرى بها على الأقل من الذي سيقتلني! فيما عدا ذلك كنت أعمى بين يدي وحش يرفعه من على الأرض ستيمترات قبل أن يسحقه.. القبضة لم تكن هيئه لتصدر عنّي حتى استغاثة.. فخنجرتني مهروسة في قصبي الهوائية.. وعيناه لم أدرك لونهما لكنه كان يرمي.. بحب!! لم تكن تلك مشاعر بغض أو كراهيّة.. كانت شيئاً أقرب للتعاب!! دَنَا مني بعد وَمضتين إضافيتين فميّزت في قبضته التي تمسك بي خاتماً عتيقاً ذا حَجَرَ أسود مربع.. صَعدت إلى وجهه فالتفقطت تفاصيل فمه الواسع تحت أنفه المدبّب وجبهه العَريضة المُستوية فوق حاجبيه الكثيفين البارزين.. وسيم القسمات صنفته رغم ضيق أوعية رقبتي التي أضعفـت نور عيني.. بدأت الحياة تسربـ من فمي.. من بين أصابعـي.. أسترخي.. أستسلم.. أذوبـ كثلجة فوق نار.. صرخت بفتحـ أفـعي تَختـضر.. لو ألحـ على دقيقـة

إضافية لا قنعني بالتخلي عن الحياة راضياً.. ضربت بقبضتي الواهنة صدره.. لوحٌ بها نحو ما استطعت الوصول إليه من وجهه قبل أن تصير ومضات النيون أقل برقاً.. فلاشات كاميرات باهتة أمام نجم على البساط الأحمر.. فلتُهن الدنيا بما فيها.. آخر ما سمعته حين انحنى بي ليُسجّبني فوق أرض الغرفة:

- إن لم تأت بالقميص ستتمني أن تلقى حتفك.. ولن تنال ذلك الشرف.

قالها بصوته الأجش ثم ارتحت قبضته عن عنقي.. غصت في البلاط البارد أربعة آلاف متر حتى رأيت حطام السفينة «تيتانيك».. ومضت ومضة نيون ميّزت فيها قدميه العاريتين تبتعدان.. شهقت سحباً لنفس يُضخّ الدم في خلاياي فلم أستطع.. احتقنت ثانية قبل أن أبصق روحي.. خرج منها ٨٠٪ قبل أن أدركها بالكاد.. أقنعتها بالعدول عن قرارها.. استرددت همتي ببقايا الأدريلاليين في دمي قبل أن أجلس.. ومضة إضافية مسحت فيها الغرفة.. لا أثر له!! جرّى الدم في عروقي مجرّى السيل فوق الجبل.. مُتفضضاً استندت الحائط حين ومض النيون فرأيته جالساً على السرير مُستنداً على الحائط كما كان حين دخلت..

شريف!

بدت الغرفة تتضح رويداً مع توالي ومضات النيون حتى ارتعشت اللمة رعشةأخيرة قبل أن تبُث نورها المستمر في هدوء.. شريف كان ساكناً كما هو.. شارداً كما هو.. ملتصقاً بالحائط يرمي الفراغ بعينيه الثابتتين.. لحظات وانفتح الباب عن محسن المُمراض..

وَجَدْنِي عَلَى الْأَرْضِ أَرْمُقْ شَرِيفٌ فَتَبَسَّسَ اسْتَغْرَابًا لَثَانِيَةً ثُمَّ انْحَنَى
يُلْتَقطُ ذَرَاعِي..

- دَكْتُور! أَنْتَ كَوِيْس..؟!

هَزَّتْ رَأْسِي إِيجَابًا وَسَعَلَتْ ثُمَّ أَجْبَتْهُ بِفَحْيَحٍ:
- أَنَا كَوِيْس.. كَوِيْس.

قُمْتُ أَسْتَندُ عَلَيْهِ أَرْمُقْ شَرِيفٌ مُرْتَخِي الْمَلَامِحِ، تُحَاصِرُنِي
الْهَوَاجِسُ وَتَعْبِثُ بِرَأْسِي الظُّنُونَ، تُسْقِينِي نَارًا وَشُكُوكًا لَا حَضْرَ لَهَا،
اقْتَرَبَتْ مِنْ شَرِيفٍ مُسْتَغْلِلًا حَضْرَةً مُحَسِّنٍ حِينَ لَاحَظْتُ عَيْنِيهِ الْمَيَّتِينَ!!
خَوْضٌ حَدِيثٌ مَعَ الشَّخْصِ الْخَطَّالِنْ يُجْدِي! طَلَبَتْ مِنْ مُحَسِّنٍ كَوبَ
مَاءَ قَبْلَ أَنْ أَسْتَبَدِلَ كَارِتَ الْذَّاكرَةِ فِي جَهَازِ التَّسْجِيلِ..

- شَرِيف!!

لَمْ يَعْرِنِي أَدْنِي اِنْتِبَاهًا! أَغْلَقْتُ الْبَابَ وَرَائِي مُحاوِلًا السُّبْطَرَةِ عَلَى
رَعْشَةِ أَعْصَابٍ أَصَابَتْ يَدِيَ، طَلَبَتْ مِنْ مُحَسِّنٍ إِخْرَاجَ شَرِيفٍ
صَبَاحًا مِنْ غَرْفَةِ الْعَزْلِ، حَتَّى يَتَسَنَّى لِي مَتَابِعَتِهِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً
بِكَامِيرَا الْمَراقبَةِ، ثُمَّ جَرَرْتُ سَاقِيَ حَتَّى غُرْفَتِي، ارْتَمَيْتُ عَلَى الْكُرْسِيِّ
أَتَحْسَسَتِي رَقْبَتِي الَّتِي اِنْبَعَجَتْ كَعْبَوَةَ بَيْسِيَ فَارِغَةً، يَغْمُرُنِي الْعَرَقُ
وَيَهْزِّنِي تَبَضُّ هَادِرَ كَطْبُولَ الْحَرَبِ، لَا أَعْتَدَ أَنَّ الْفَيْلَ الْأَزْرَقَ قَدْرَ حَلِّ
مِنْ عُرُوقِي! أَتَانِي مُحَسِّنٌ بِكَوبَ قَهْوَةٍ تَجْرِعَتْهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَطَلَبَتْ
آخِرَ، حَاوَلْتُ لَفَّ سَجَاهِرِي بِأَصْبَابِي مُرْتَعِشَةً فَجَاءَتْ مَفْكُوكَةً مُهْتَرَئَةً
يُرِيَّلَ التَّبَغُّ منْهَا، سَجَبَتْ النِّيكُوتِينَ إِلَى رَئِيْتِي قَبْلَ أَنْ أَتَمَالِكَ نَفْسِي
نَسْبِيًّا، أَغْلَقْتُ بَابِي وَطَالَتْ نَتْيَجَةَ كَامِيرَا الْمَراقبَةِ شَكْكًا فِي الدَّفَاقَاتِ
الْمَاضِيَّةِ، رَأَيْتِنِي أَدْخُلُ الغَرْفَةَ قَبْلَ أَنْ تَبْدأَ الْوَمْضَاتِ فِي الْبَرْقِ،

لا شيء أستطيع رصده! أخرجت ذاكرة التسجيل الصوتي وأفرغت ملفه على الكمبيوتر قبل أن أضع السماعة وأنصت، الصمت كان مسيطرًا وقت طويل قبل أن أسمع الخبط، صوت رتيب متكرر أشبه بخط شيء في جدار، دقائق والتققطت صوت شريف، كان خافتًا مختلطًا جعلني أصدق السماعة في أذني، يتحدث! يرثى كلمات لم أميز منها شيئاً، يكلم نفسه، اللعنة على أجهزة التسجيل، ظل صوته يزداد قبل أن يتوقف فجأة ويضطرب الميكروفون ويُصدر طقطقة..

بحسـى .. !!

النداء جاء هادراً مباغتاً ملاصقاً للميكروفون، صرخ في طبلة أذني فمزقها، أبعدت السماعة لا إرادياً قبل أن أخفض الصوت وأصدقها بأذني ثانية.. ساد الصمت لحظات ثم بدأ يشدو:

الحـيـ في حـجـرـهـ بـيـتـ ماـرـقـدـ..

عـيـنـهـ مـنـ قـصـتـهـ وـضـيـ الـحـلـقـ..

الـحـيـ في حـجـرـهـ بـيـتـ لـمـ يـنـمـ..

عـيـنـهـ لـيـسـوـتـهـ وـلـتـحـتـ الـحـزـامـ..

الـحـيـ في حـجـرـهـ بـيـتـ وـوـصـلـ..

عـيـنـهـ لـرـسـمـتـهـ وـلـحـقـ الـعـسلـ..

ظل يكرر أغنية الغريبة بصوت تحشرج مع الوقت ونفس تهدج واقترب من البكاء ثم سمعت الباب يفتح، اضطرب الميكروفون بين يديه قبل أن أسمع صوت سامح يقتحم التسجيل:

- صباح الخير ..

لم يجده شريف .. أخفى التسجيل في ملابسه أو تحت الوسادة ..
عرفت ذلك من تخطّي الميكروفون والصوت الذي خفّت بعنته ..
أردف سامح :

- أنا استلمت القضية من صاحبك .. حبيتك تعرف.

قابل شريف كلمات سامح بالصمت ..

كانت حلوة منك حركة الطرطرة اللي عملتها .. جنان جنان
يعني .. جنان يمشي مع واحد مبتدئ .. أو واحد نامي الشغل
زي صاحبك .

....

- ما فيش داعي للسكتون أنت ما عندكش سبب عضوي .. تقرير
الطب الجنائي مخلص ومشاور عليك .. أنت اعتديت عليها قبل
ما ترميها وده مثبت من العينات .. يعني كنت معاها لآخر لحظة ..
القضية محسومة أنا مش عارف أنت بترفض على إيه؟ المحامين دول
ولاد كلب .. مش عارف بيحللو اللقمة إزاي !!! وبعدين أنت دكتور!
عيوب !! من إمتي الكلام الفاضي ده بيغيل علينا في العباسية !!

....

- إحنا لوحدنا هنا .. حتى لو ما قلتني أنا هاقول إنك قلت !! إيه؟
هایكّدّبني ويصدقّوك !! احكي ويمكن أفكّر أساعدك .. إحنا زملاء
برضه وأنا ما بخلصنيش يطلع واحد مننا قاتل .. مجنون آه .. بس
مش قاتل .. دي سمعة ويتلزق .. «Stigma» .. شريف بصل لي هنا ..

إيه! صاحبك فطنك ما تتكلمش معايا؟ صاحبك ده غشيم.. فاشرل..
عمره ما عرف ينفع في حياته.. غبي ومغورو وسكران ما يفوقش..
ومش هايطلّوك من هنا غير على الإعدام.. عندك استعداد تفضل
ماشي وراه؟

الصمت ظل مطبقاً مُسيطرًا..

- ردّ علياً زي ما بكلّمك.. أنت مش مصدق إن صاحبك خلع من
القضية هه؟! أنا كان في إيدي أقول للإدارة إنه زميلك وفيه كلام ما
يبيكم.. بس أنا جدّع.. عشان تعرف إن مش مصلحتي إنت تتأذى.

- كده! طيب.. ماشي.. بس عارف.. اللّعبة اللي حاصلة دي مش
هاتعدّي من تحت دقني.. إذا كان اليه يربط معاك عشان تخرج فأنت
تنسى.. أنت مش خارج من هنا غير على الإعدام.. ورحمة أمي ده
اللي هايحصل لو ما اتكلّمتش.. سهل جدًا التقرير يمشي في السكة
دي وأنا أعرف أكبّب تقارير إزاي.. عدى علياً هنا ألف واحد زيك..
ولا واحد خيب ظني من أول نظرة.. أنت «Fake».. حتى مش عارف
تطبط الأعراض.. وأنا هاعرف أثبت إنت «Fake».. إن شالله تقعد
سنة هنا.. «Fake»..

- أنا قتلتها..

تلك المرة صمت سامح.. أكاد أتخيل مفاجأته.. ومفاجأتي من
ردّ شريف الصاعق..

- جميل! بدانـا نفهم بعض.. احكـي..

- خانتني ! قتلتها .. أى حد مطرحى كان هاي عمل كده ..

- تفاصيل ؟

- عذبتها أسبوعين .. ولو رجع بيا الزمن ها عمل كده تاني ..

- يعني أنت مش عيّان ؟

- مش عيّان ..

- يحيى يعرف الكلام ده من إمتي ؟

- يحيى هو اللي قال لي أعمل كده في أول قاعدة في المستشفى .

- عشان تخرج على الخانكة ! مقابل ؟

- هي دي المشكلة .. يحيى طلب أجوزه أختي .

- تجوزه أختك ؟

- يحيى متيم بيهَا من زمان .. قصة قديمة عمره ما نسيها .

- أنا كنت حاسس إن فيه حاجة غلط !!

- هو ما يعرفش .

- يعني إيه ما يعرفش ؟

- يحيى عنده «Schizophrenia» من ساعة حادثة مراته وبنته ..

مش مصدق إنه اتفق معايا على حاجة .. بيكلّم نفسه طول ما هو قادر
معايا ويدعي إني أنا اللي باكلّمه ..

؟«Schiz» -

- أنا دكتور وعارف الأعراض .. يحيى بيكلّم نفسه من تليفونه ويرد

على تليفوني.. بيهيا له إن حد بيكلّمه.. متخيل إنه هو اللي اختار العنبر وحالتي.. حتى ناسي إنه سمع الموضوع بتاعي من العجاید قبل ما يرجع.

- وأنت ليه بتعترف لي؟

- لأنه هددني بالقتل لما قلت له إن مش هايتفع أجوزه أختي.. لأنها متجوزة! يحيى وصل للجنون.. يعملها.. هايقتلني لأن فيه تار من ساعة ما رفضت أجوزها له.. أنا كده كده ميت..

هنا أوقفت التسجيل.. كان على استيعاب ما سمعته قبل أن أفقد أعصابي فأكسر طرف ضرس أو أعض لساناً أو أفقا عيناً!!

ما الذي يفعله ذلك المجنون! ما الذي يعرفه عنّي؟

قمت من الكرسي ملدوغاً.. جبّت الغرفة كأسد هرم سقط شعره.. يتحاشى كرباج مروضه..أسد بلا أسنان ولا براثن يُدخن كقطار نهم للفحم.. اللعين يلکرني أمام أعتى أعدائي وأكثرهم تفاهة! بلا تفسير! لا.. هناك تفسير.. مريض جنون الاصطهاد يظن في كل من حولهسوء.. قد يتهمني باغتصابه جنسياً أو تسميم طعامه.. أو حتى تهديده بالقتل!

بالكاد جلست ثانية ونقرت زر التشغيل..

- ما تخافش..

ذلك كان سامح يطمئن شريف، يحتضنه تحت إبطه العرقان، يشمّت في ويقيم الأفراح والليالي الملاح على شرف فضيحتي الآتية، يبني قصراً من الأمال المتعلقة بشنقني حياً على باب المستشفى..

بالطبع لن يجد فرصة أنسح من تلك !!

- حافظ على هدوئك .. ما تتكلّميش معااه .. لو جالك ارفض التعامل
واطلب مقابلة رئيس القسم .. واطلب منه يسحب ملفك من عند يحيى
وما تذكرش السبب .. يحيى مش هايقدر يحكبي اللي بينك وبينه ..
وأنا هاتصرف.

انتابتي رغبة عارمة لرؤيه وجهي الذي لطيم .. قراءة الغَضَب
في ملامحي حتى أطمئن أنني موجود .. بحثت عن مِرآة فلم أجده ..
أخرجت تليفوني ونظرت في شاشته .. أنا .. أنا أعرفني كما أعرف
«ولد» أوراق الكوتشنية !

سأقتله ..

هكذا خرجت مني .. وهكذا ذكرها شريف في التسجيل عن
لساني .. أنني سأقتله إن لم يزوجني أخته ..

ارتعشت يدي واحتلّجت عيني لما تذكّرت جملة د. كيلاني «أنا
مش بقول إن إلـ«Psychiatrist» مُستحيل يمرض .. بس ياما شفنا
الأعيب ..».

أعرف عن نفسي الكثير ..

أنا الجندي الذي تلقى رصاصة في معدته ويشاهد احتضاره
«دقيقة بدقيقة بلا إعلانات .. Exclusive»

أنا الصدر المُحترق نصفه بدخان السجائر والنصف الآخر
حريقه لبني ..

أنا الذي لم يبك زوجته .. ولم يَحلِم بها مَرَّة ..

أنا الذي لا يجرؤ على تذكرة بيته..

أنا فتات إنسان يتظاهر أنه على قيد الحياة وهو ليس كذلك..

أنا الذي يتنفس ويأكل وينام بقوة الدفع..

أنا ساعة بدون عَرْب..

أنا يُونس في بطن حوت كافر لن يلفظني عند جزيرة..

أنا الذي يمارس الجنس فصداً كقصد دماء العليل حتى لا تنفجر
أوعيته ضغطاً وحرماناً..

أنا الطعام بلا ملح..

أنا الذي يتظر لحظة الإظلم الأخير في مسرحية مملة من
تسعين فصلاً..

لحظة نزول الستارة الحمراء.. بلا تصفيق..

ضغطت زر التشغيل ثانيةً، خرج سامح من الغرفة وأغلق الباب فوق الصمت، صمت ثقيل لزج كرة صمع حشرت في حلقي، أستطيع الآن توقع ما حدث، خرج سامح من العنبر قاصداً مكتب المديرة، حكى لها ما حدث قبل أن تنهي عن تلك الأفكار المُرِّبة، ثم تسمع حكايتها ثانية تحت ضغط إلحاده، ستنزل نظارتها من فوق أنفها حين يدب الشك في قلبها، ثم تداعب القلم بين أصابعها حين يتمكن اليقين من قلبها، ستصرفه بهدوء وتفكر ساعة ثم تؤجل حركتها إلى اليوم التالي، ستصل بي تستدعي وتجلسني أمامها ثم تواجهني بالمعلومات المتوفرة لديها بروح ناظرة مدرسة ثانوي، سأنكر ما قاله

سامح كما أنكر «بطرس» معرفته بال المسيح، قبل أن أحكي لها عن أسطورة حقده الدفين ورغبتها القديمة في زوجتي نرمين، رغبتها التي تحولت من منافسة ذكرية إلى ثأر صعيدي وكراهة مهددة، لن تقتصر ١٠٠٪ بكلماتي لكن الشك سيسرب إلى قلبها بشأن سامح، ستكتفي بتحذيري من خلف نظارتها قبل أن توصيني بالنوم لما تلحظ السواد الكامن تحت عيني.. تمت..

قاطع تكهنتي صوت دخولي غرفة العزل في التسجيل.. استمعت لكلماتي وأنا أخاطب شريف.. صوتي ظاهر واضح أتحدث.. وهو لا يجيب! صوته لم يُسجل على الجهاز!!

فقط كلماتي وارتظامي بالحائط وحشر جتي فوق البلاط!!!

أنا أعرف نفسي..!

جيداً..!

خرجت من العنبر إلى براح المستشفى، تمثّلت وسط الأشجار أنزف ما تبقى من التّبغ في جيبي، اتجهت إلى المعادي بعقل خاوي، عقل يُعاني بلّها تدلّت منه رغالة أفكاره، رجوعي البيت أصبح بثقل سيارة نقل بمقطورتها فوق قلبي، رائحة مايا تُحاصرني كسراب نَحل شرس! كان عليّ أن أستقر عند شخص لا يسألني من أنا، كما كان عليّ الحصول على كأس في أسرع وقت..

لم ألحظ من قبل أنني لا أملك أصدقاء بالمعنى الحرفي للكلمة!

حين أُسندت رُسْغِيَّ على مائدة عوني تَعَطَّل عَقْلي عن العمل، كان هناك خمسة أشخاص بينهم شاكر، تفرقت الأرقام والأسرة المالكة بيتنا وانهمكت في الاصطياد، أوراق الأميرات كانت لُبْنِي، بسمة ومايا، قلب أحمر، بستوني وتريفل! ورقة لُبْنِي كانت تجاور ورقة شايب «كومي»، يلتتصق بها شاهراً سيفه في زهو كأنه خالد لن يموت، ورقة بسمة التصقت بأمير قلبه أحمر، وجهه يحمل عنفواناً وجنواناً، ومايا، كانت بلا أمير، حُوصرت بورقتين أرقامهما فردية!!

حين انتبهت للجالسين حولي كان أربعة قد انسحبوا، لم يبق غيري وشاكر، الجولة الثالثة بيتنا، رَمَقْني من رُكْنه بِغَلٌ وكراهية وحذر مُتَرَّقب، اللعين يبحث عن ثأر لن يناله ما حيا، عيناه المرتعشتان قالتا ذلك، أصابعه المضطربة أعلنت عن نفسها، حاول إرهابي برفع الرهان فرفعته ضعفين، لحظات من الصمت الصاخب مرت قبل أن أُلقي أوراقي على الجوهرة الخضراء، أكملت «Three of a kind»، ثلات فتيات وورقتان ٧ و٨، دفن شاكر سِجارتة ونظر لي بأسى قبل أن يُرْخِي قبضته بأوراقه، «Straight»! نطقها عوني، تتابع ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨، يد أعلى من يَدِي!! كيف فعلها؟ انكسر سيفي وأُسْرَت

فتىاتي فتهلل وجه شاكر بنصف ابتسامة شامنة، أغمد سيفه في قلبي
فترّحت قبل أن يحوط مالي بذراعيه ويُسجّبه لركنه..

تذكّرت الحصالة التي اشتريتها لنور ابتي يوماً، بيت أحمر صغير
تضع أمامه عَملة معدنية فيخرج كلب بلاستيكي «يدلي لسانه»
ليُسجّبها إلى الداخل! الكلب كان يُشبه شاكر.. ووجه نور لما انتابني
اختنقت ففُقمت..

- أنا ماشي..

- مالسة بدرى يا دكتورا

غرزها شاكر بين ضلوعي سخريّة ولم أجده في نفسي العزم لردها..
قُمت خالي الجيوب متهدّج النفس وانسجّبت.. قبل أن أصل الباب
استوقفتني «نيجوزي» تلتفت حولها خشبة عونى..

- نعم..

- «Please take that»..

قالتها والتقطت كفّي ووضعت فيه لفافة بحجم علبة سجائير..

- إيه ده؟

«Please put it around your neck to protect»..

- يا ستي أنا ما بعلقش حاجة في رقبتي.. «I don't put something».. اتكلّي على الله.. الله يبارك لك.. «in my neck»..

- «Please».. أنت أيان.. يحتاج هي.. أنت دفات فولوس «Last time».. فيفتشي باوند..

- عيـان إـزـاي؟

- Your eyes.. I can see into it ..

- عـينـيـاـ؟

- نـيجـوـوـوـوـزـسـيـ..

ذلك كان عوني ينادي جاريته السمراء.. تركت اللفافة في يدي
وهرعت لتلبي نداء سيدها وهي تبتسم لي ابتسامة ود.. وشفقة..

في المصعد فضضت الورقة الملفوفة، بداخلها كانت هناك سلسلة
معلق فيها كيس صغير رائحته بخور!

نـيجـوزـيـ تـحـلـلـ لـقـمـتـهاـ بـحـفـنةـ بـخـورـ منـ خـانـ الـخـلـيلـيـ فـيـ الـحـسـينـ،ـ
سـأـبـدوـ مـطـرـبـاـ تـافـهـاـ بـلـاـ مـعـجـبـاتـ حـيـنـ أـرـتـديـهاـ..ـ

ماـذـاـ رـأـتـ (ـنـيجـوزـيـ)ـ فـيـ عـيـنـيـ لـتـدـاوـيـ؟ـ لـمـ أـحـبـ الإـجـابـةـ التـيـ
صـرـخـتـ فـيـ صـلـدـرـيـ..ـ

لا.. لـسـتـ مـرـيـضاـ!

رـدـدـتـهاـ بـلـاـ صـوتـ..ـ

رـدـدـتـهاـ بـشـكـ!!

كلـمـاتـ شـرـيفـ تـضـربـ أـعـصـابـيـ بـمـطـرـقـةـ حـدـيدـيـةـ..ـ تـشـرـخـ قـنـاعـاتـيـ..ـ
تـهـدـمـهـاـ..ـ لـقـدـ قـلـتـهاـ يـوـمـاـ الـلـبـنـيـ..ـ (ـمـرـيـضـ الـضـلـالـاتـ صـعـبـ أـنـ يـتـرـحـزـ
إـيمـانـهـ بـمـاـ يـؤـمـنـ بـهـ..ـ).

في مـطـبـخـيـ تـجـرـعـتـ زـجاـجةـ بـيرـةـ وـأـنـاـ أـجـتـرـ تـلـكـ الـحـقـيقـةـ،ـ ظـلـلـتـ
مـتـبـسـساـ كـمـثـالـ أـثـريـ وـلـمـ أـدـرـ بـنـفـسـيـ إـلاـ وـأـنـاـ أـسـدـ بـعـزـمـ قـوـتـيـ الـزـجاـجةـ

نحو هرم الزجاجات الذي تعبت في إنشائه، فرقة عالية أصمت
أذني وطيرت الشطايا في وجهي قبل أن ينهار الهرم بدوي صارخ
فوق البلاط..

لست مريضاً..

لا أعرف كيف نمت ومت!

حين استيقظت كنت راقداً في الطرقة قرب باب الحمام.. أيقظني
جرس تليفوني.. رقم المديرة كان يتذبذب..

- ألو..

- يحيى.. صباح الخير.. أنت فين؟

- في البيت يا دكتورة..

- تقدر تيجي دلوقت؟

- فيه حاجة؟

- عندنا مشكلة.. مستنياك.. بسرعة يا يحيى وحياتك..

قالتها وأغلقت الخط، جلست مستندة الحائط دقائق قبل أن
أنفض ديناصور الخدر الجاثم على ظهري وأقوم، غسلت وجهي
أمام مرآة الحمام قبل أن أبحث عن شيء حقيقي فيه، شيء يشعرني
أني أصلي، لم أجدا شممت تحت إبطي فخلعت قميصي لأشتجم،
لامست الغرز القديمة أسفل ضلوعي ولم تقنعني اظللت تحت
الدش نصف ساعة حتى رنّ الجرس، جرس تليفون شريف! أغلقت
حنفيه الدش والتحقق وأنأتمم على تليفوني الساكن بجانبه، تأمّلت

شاشتي الصامتة مقطوعة الطاقة، ولم أكتف بذلك بل فصلت البطارية
قبل أن أستقبل المكالمة الواردة على تليفون شريف..

- ألو..

- أيوة يا يحيى..

ذلك كان صوت لبني..

- قلقتني عليك بكلمك من إمبارح على تليفونك ما بتردّش..
أنت كوييس؟

تنفّست الصعداء..

- معلش.. قطع شحن..

- فيه أخبار؟

- مالك؟

- ماليش..

- صوتك مش طبيعي..

- مش طبيعي! أنت شايقاني طبيعي؟

- يعني إيه؟

- باتصرف بشكل طبيعي وأنا قاعد معاكِ؟

- أنا مش فاهمة حاجة! إيه اللي حصل؟!

- بحسي !! أنا عاوزة أشوفك ضروري.

- أنا رايح المستشفى دلوقت .. هاكلّمك لما أخلص.

- خد بالك من نفسك.

أغلقت الخط وقدفت نفسي في تاكسي، لم تمر ساعة حتى أصبحت في المستشفى، بعد بضعة مبانٍ صادفت عم سيد، هائماً على وجهه يكتحل الأرض بقبقابه الذي بات سُمكه ورقه، توقف في نهر الطريق حين رأني، يتأملني بابتسمة غريبة، سرت قصيرة في جلدي لـما تذكريت وجوده بجانب الشجرة في بيتي ..

- إيه اللي موقفك في نص الطريق يا عم سيد ! امشي على جنب عشان العرييات.

- مستنيك يا دكتور.

- معلش يا عم سيد .. عندي معاد في الإداره.

- معادنا كان عند الشجرة.

ارتعدت رغم الحر .. توقفت ورجعت خطوتين ..

- شجرة إيه يا عم سيد ؟!

- أنا عاوز منك خدمة .. توب قماش وشوية خيط وإبرة كبيرة.

- حاضر يا عم سيد .. بس شجرة إيه اللي معادنا عندها؟

- شجرة الكافور !

- المقطوعة؟ اللي في جنينة العباسية؟

- هو فيه شجر بيطلع في البيوت يا دكتور!

نظرت في عينيه الفارغتين من الكلمات، أسبره، أنقّب عن حلم، زيارة بلا ميعاد، أو فيل أزرق يتجلو بلا قيد، ابتلعت ريقه لما لم أستقبل منه أية إشارة قبل أن أبتعد..

- ما تنسانيش في القماشة يا دكتور.. والخيط والإبرة..

أمام مكتب المُديرة جلست أنتظر أول طلقة هجوم حتى لا آتهم دولياً بالتعدي.. تهزّ ساقيها بتوتر.. تعتصر قلماً.. تتظر شيئاً..

- خير يا دكتورة؟! سألتها..

- خير يا يحيى.. مستنية بس دكتور كيلاني عشان يحضرنا..

اصطنعت اللامبالاة ملقياً عيني خارج النافذة حين دلف دكتور كيلاني المكتب، نظر في وجهي قبل أن يُصافحني ويجلس في مواجهتي، ثوانٍ من الصمت تبادلا فيها النظارات قبل أن يفتح دكتور كيلاني المحاكمة..

- يحيى حصل حاجة إمبارح كنت عاوز أكلّمك فيها..

تركته يحكى ما سمعته مُسبقاً في جهاز التسجيل، مُتصنعاً دهشة ممزوجة بلا مبالاة، فمعرفتهم بجهاز التسجيل الذي دسته والكاميرا في العنبر وغرفة العزل يمثل:

انتهاكاً صارخاً لقانون الأمانة العامة للصحة النفسية وحقوق المساجين وهو...

وهو شيء يعني أي «Nothing !!»

لكنه سيؤكده واجسهما التي تحوم فوق رأسهما من ناحيتي !

-رأيك إيه في الكلام ده يا يحيى ؟

الإنكار دائمًا وأبدًا كان الاختيار الأفضل ! بثقة رجعت بظهرى
إلى الكرسي وتجنبت حَلْقَ أنفي، فخلق الكذب يستوجب تركيزاً
يضطر من أجله الجسد إلى ضخ كميات إضافية من الدماء بين الجبهة
وطرف الأنف !

-رأيي إنه كلام فاضي .. شكوى كيدية من واحد حاقد ..

-لكن أنت تعرف شريف بالفعل ؟

-أعرفه ..

-لما سألك قبل كده قلت ما أعرفوش !! سأل دكتور كيلاني ..

-ما كتش فاكره .. شكله اتغير عن أيام الكلية ..

-ماشي !! طب وموضوع أخته ؟

-حضرتك تصدق كلام زي ده ! أنا هاهنّد حد عشان أتجوز أخته
المتجوزة !

-أنا ما حكيتش إنها متجوزة !!

اللكلمة جاءت في كيدي مُباشرةً، انسحب الكرسي من تحتي
فوقعت في بئر لا مياه فيه، عرقني سيكون كافياً ليملاه بعد قليل،
لا إرادياً ابتلعت ريقني وسحبني نفسها أتزّن به ..

- ما هي أكيد متوجزة! إيه المعنى إنني أطلب منه حاجة مُمكِن
أعملها من غير ما أهدده!

ابتلع الرجل حُجّتي بكوني ماء ورغيف عيش.. كان عليّ تكثيف
اللكلمات على فكّه ليتهاوى أمام قصتي المهرئة كثيرة الشغرات..

- كل ده تأليف.. أنا قُلت لحضرتك قبل كِدَه إن شريف حالة
فصام.. وشكّيت في ازدواج وحضرتك ما صدّقتنيش..

- تاني ازدواج يا يحيى!!

- أنا شفت ده بعيني يا دكتورة.. عارف إنها حالة مش مصنفة في
الطب دلوقت.. لكن فيه دائمًا استثناء..

- تقىيم سامح عن الحالة بيقول إنه اتكلم معاه طبيعي وما فيش
فصام...

- سامح قعد معاه مرة واحدة بس.. ده غير إنه مش مُحايد.. همّه
الأساسي يثبت إن شريف سليم.. وإنني نصاب..

- «Conspiracy Theory».. سامح مضطهدك؟

- مش نظرية مؤامرة يا دكتور ولا اضطهاد.. سامح شايل بسبب
مشاكل قديمة أنا في غنى عن الكلام عنها.. بيدخل الحياة الخاصة
فيشغل.. من الآخر ما بيقبلنيش..

- خرج سامح من الموضوع ورُدّعلياً بوضوح.. أنت فعلًا مالكش
علاقة بشريف؟

- زميل دراسة وما يفرقش بالنسبة لي..

تدخلت دكتورة صفاء..

- ولا أخته؟

- أنا قلت لحضرتك إن...

قاطعني:

- الأمن يقول إن فيه عربية دخلت من كام يوم الساعة حداشر بالليل.. بطاقة باسم لبني الكردي.. كانت داخلة زيارة ليك.. و كنت سايب لها خبر على البوابة..

تلك كانت ضربة تحت الحزام، تخلل الصمت فراغات الغرفة وضاقت الحوائط من حولي فجأة، دكتور كيلاني جهاز «X-Ray» يمسح عظامي بحثاً عن شرخ، والمديرة، راصد زلازل سيتوثر مؤشره مع أول هزة مني، التزمنت الصمت قسراً حتى بترت المديرة السكون:

- يحيى.. الخمس سنين اللي فاتوا كنت فين؟

نظرت للساعة المعلقة على الحائط أنتظر منها أن تكُفَّ عن الدوران.. أو أن ينزل عقرها فيلدغهما معاً لأرتاح..

- كنت في البيت..

- خمس سنين انعزل أنت مدرك ممكِّن يعملوا إيه في أي حد؟

قاطعها:

- أنا مش مريض يا دكتور..

- أنا ما قلتش إنك مريض يا يحيى.. بس إيه إنجازك في خمس سنين فاتوا؟

- إنجازِي إنني فضلت عايش ...

- يمكن رجوعك المستشفى ما كانش مناسب في الوقت ده؟!

- كويس إن حضرتك أخذتني بالك إنني رجعت بناء على جواب المستشفى ..

- أنا مش باشك فيك يا يحيى.. بس أي حد حصل له تجربة زي تجربتك وارديكتسب.. تفكيره يبقى مش مظبوط.. يضرب! ممكن.. فيه ناس بتخرج من الحالة تدريجيًا.. وفيه ما بيخر جوش ..

- وأنا ما خر جتش؟!

- ده اللي أنا شايفاه.. وده أحسن من إنني أفكّر في أفكار مش هتعجبك..

- أنا ما خالفتش القانون يا دكتور..

- هتخالفه.. ألقاها د. كيلاتني ..

- حضرتك صدّقت سامح؟

- الشواهد هي اللي تخليني أصدّقه.. ليه أنكرت زيارة أخته للمستشفى؟

- أنا ما أنكرتش.. جت تطمِّن مني ..

- يعني فيه اتصال بينكم؟

- فيه اتصال..

- وهي...؟

- بتطمن على أخوها بس ..

- أنت بتشرب يا يحيى؟ سأل دكتور كيلاني ..

- وده إيه علاقته بالموضوع؟

- متهيأ لي أنت عارف الشرب بيعمل إيه!

- دي حاجة تخضني ..

- سامح حكى لي عن مكالمة التليفون في العنبر.. أنت خلّيت
متهيم بعمل مكالمة مش مسموح بيها ..

تلقفتني صفاء بعدها بكلمة خطافية أسفلاً ذقني أنهت حلم بطولة
العالم «وزن ثقيل» في الكذب قبل أن أسقط خارج الحلبة..

- اللي حصل ده يا يحيى كفيل إني أرفع الموضوع للأمانة
العامة.. يعني تتفصل.. دي نهاية أنا ما أتمناهاش .. بس أنت بتعجرني
على ده ..

لماذا يتحدى الشرير في السينما مع البطل «لحظة الذروة» شارحاً
له لماذا وكيف سيقتلها، ومدى استمتاعه بما يقوم به؟ لم لا يقتله
ونترك الشر يتصر يوماً؟! نظرت في وجهها مُستظراً لحظة تركها
لحبل المقصلة لينزل النصل فوق رقبتي ..

- ما حصلش إن حد اترفرد في وجودي.. مش عاوزة يتقال عنّي
إني كنت السبب في تدمير مستقبل.. بخلاف إن لسته مر جعاك.. أنا
هاكتفي بنقلك من ٨ غرب.. هانزلك في شيخوخة ٢٦.. قسم هادي
ومشاكله قليلة.. هترتاح فيه ..

لم أكن أملك حق التفاوض.. هزّت رأسي مؤمّناً على كلماتها
وسمّت زحفاً للباب حين استوقفني د. كيلاني..

- يحيى.. آخر واحد يعرف إنّه عيّان هو المريض نفسه..

كأنّي كنت أحتجّ كلماته!

سجّلت لرئيسي نفسي لن أزفره وخرجت، خرجت على حمار
يجوب شوارع المستشفى! حافي القدمين أجلس فوق ظهره مقلوباً،
الطور الأحمر فوق رأسي، والبيض النيء والطماطم تراشق
صوبي، مكتوب على جبيني أحمق بخط واضح، والمرضى يتسابقون
في التشكيل بي سيّاً وتهليلاً، لمّا مرت سامحة وسط الزفة يوزّع العمّلات
الذهبية من صرّة آخر جها من كرشة، وشريف يرمي بابتسامته
الساخرة من بين حديد القضايا..

في طريقي للبيت اتابتني حالة اللامبالاة التي نهشتني منذ سنين،
حواسي الحيوية انسابت تدريجياً من بين ضلوعي، كالمياه تنسل من
بين أصابع الكف، استوت عندي نجوم السماء بمصابيح السيارات،
اشتعال سيجارة بحريق القاهرة، الموت بالحياة! لا شيء يُهمني،
لا شيء يُثيرني، حتى الألم المُزمن الذي اعتدته أصبح لا يؤلم، حتى
لما ماتت مایا! ماتت! من الذي قد يؤذني جسداً ميتاً؟! من الذي قد
يهين زومبي في فيلم رعب بصفعة على الوجه! أو يجرح مشاعر ضبع
من ضباع ناشيونال جيوغرافيك؟!

كطائرة تعمل بالطيار الآلي تبضعت تموين الشهر، كرتونتين بيرة
وزجاجة «Jack Daniel's» وكيلوبُن غامق وبعض المُعلبات الغارقة
في المواد الحافظة لزوم استمرار الحياة، جلست على كنبتي وفردت
ساقيّ فوق منضدة وأدرت التلفزيون، المُطاردة كانت حامية، ثلاثة
ضباع تُطارد جاموسة، يركضون خلفها وابتسامة السخرية الواثقة
تعلو فكوكهم، المُصوّر يُركّز على تفاصيل أرجلهم الخلفية القصيرة،
الشعر الأصفر الخشن فوق رءوسهم، الرُّقط السوداء على الجلد
وعيونهم المشعة جشعًا فوق الأنابيب المتحفزة، النذالة حين تتجسد!
بعد مُطاردة طويلة حلّ التعب بالجاموسة، حاصروها فتوقفت حائرة

حتى تقدم اثنان وغرزا أنابيهم في قدميهما الخلفيتين، لوت الجاموسه رقبتها ألمًا ورفستهما قبل أن يقفز الثالث فوق ظهرها، تکالبوا عليها عضًا حين جرح أحدهم أسفل بطنها فتدلى جنين في كيسه!! رفعت الصوت لأسمع خوار الجاموسه الحزين، بحلاؤه روح رفستهم يأسًا فانقضوا من حولها فركضت تجر صغيرها بكيسه، يصُبُّ بدمائه العشب من ورائها، تأملوها في تحفَّز حتى توقفت تعباً، ثم هوت، اقتربت الضباع بلا استذان، وبداءوا ينهشونها، حيّة! بقرروا بطنها وخلصوا كيس جنينها المعلق من مربطه، سحبه أحدهم بعيدًا وانكب الاثنان عليها كمجازرين يسلخون قبل أن يذبحوا، يتلذذون بطعمنها الحي، تخور بين أنابيهم يأسًا وعيناها لا تفارقان جنينها الذي يُنهش على بعد مترين، لحظات وأرخت رأسها على العشب واستسلمت، تركتهم ينهون وجitem ولم تُبال، ترفع رأسها كل بضعة ثوانٍ تتأمل جنينها ويطنها الذي يُفرغ على العشب! ظلت الكاميرا تتبع عينيها حتى خبت وانطفأت، قبل أن تهبط النسور..

أغضضت عيني منعاً لتفكيري من المضي في طريق التخلف
العقل حين نبض التليفون برقم لبني، لم أجد في نفسي عزماً للسماع

صوتها، دقة وأنهت المكالمة لأحد عشرة اتصالات فائمة من رقمنا!
تريد أن تطمئن!!

ماذا أحكى؟ روایتی أم روایة أخيها، الفيلم الذي مارست فيه دور البطولة، أم الفيلم الذي ألعب فيه دور المجنون! إذا كان آخرها مريضاً بالفعل فمن قتل مايا؟ إذا كنت صادقاً فلماذا لم أسمع غير صوتي في التسجيل!! ولماذا أتصيل بنفسي على تليفون شريف!! ولماذا سقطت مني مُحادثات كاملة لم أدر عنها شيئاً!!

أخشى الإجابة كخشى رؤية وجهي في المرأة من بعد الحادث،
تشخيصي كطبيب معالج لحالي يقول:

«المريض يُعاني من حالة انسحاب اجتماعي مصحوب بتبلد في المشاعر يفقد الاهتمام بكل ما حوله «باستثناء الكحول»، تلك مؤشرات واضحة لتضرر ممرات المُخ العصبية؛ وهو الذي قد يؤدي لسماع أصوات واحتراق مواقف لم تحدث، وبالتالي، فالأرجح حدوث حالة فضام مصحوبة بلهوسة، تمت إثارتها بحبوب (DMT) تحمل رسم فيل أزرق، أثرت بدورها على مستقبلات السيروتونين (هرمون تنظيم المزاج) التي تدهورت تدريجياً من تأثير الكحول..».

قرأت التقرير قبل أن أرفع سماعة التليفون وأطلب صيدلية قرية:

- ديباكين كروم ٥٠٠ ملي لو سمحـت..

دواء لثبت المزاج، يستخدم في حالات الصرع والفصام والاكتئاب والاضطراب ثنائي القطب، سيخفف التدهور في السلوك والتفكير مؤقتاً لا أصدق أن نبوءتي بالعودة للمستشفى أصبحت

واقعاً، مسألة وقت قبل أن تُحضر صورتي بين قاطني العباسية، ملفي سيكون مميّزاً حين أصبح في عمر عم سيد!

قاطع كابوس يقطعني جرس الباب، لما فتحت وجدت أن الليل قد نزل ولم أدرِ، استلمت علبة أقراص «الديباكين» من فتى الصيدلية وأغلقت الباب، ابتلعت قرصاً مع جرعة ماء ولم أصل للكتبة حين فرغ الجرس ثانية، فتحت فوجدت لبني واقفة فوق الدواسة التي كانت تحمل الكلمة «Welcome» ولم تُعد..

- أنا صحيتك؟

- إيه اللي جابك؟

- إيه اللي جابني!!

- أقصد فيه حاجة حصلت؟

- لأ.. قلقت عليك لما ما رددتش.. أنت كويس؟

«أنت كويس؟»: السؤال الذي حير أينشتاين واسحق نيوتن وأبن التفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى!

من أنا لأجد الإجابة، هزت رأسي موافقة ولم تقنع..

- معاك حد؟

- نظرت خلفي أتأكد من رحيل مايا؟

- لأ..

- عندك وقت ناخذ قهوة في أي كافيه؟

قاومت رغبة ملحة في دعوتها للدخول.. لا أريدها أن تعرف
بما يأيا في عالم آخر لن أطأه..

خمس دقائق أليس..

لم أدعها للدخول ولمأغلق الباب في وجهها، فقط أشعرتها بعدم
الارتياح لدخولها، تركتها ودخلت غرفتي التقط سريعاً ما أرتديه ثم
دخلت الحمام، شطفت وجهي وغسلت أسنانى ليحمد عَبْق الكحول
المنبعث من معدتي قبل أن أخرج إليها، كانت واقفة في قلب الصالة!
تأمل الشقة بفضول، تابعتها وهي تمسح المكان حولها، تفقد حطام
مراكبي التي غرقت منذ سين وأسكن البحر فوقها أعشابه المرجانية،
استوقفها حوض السمك المُتخم بالأوراق، زجاجات البيرة التي
لم أخفيها، والمستويات الفاتحة على الحواشي، المستويات التي
كانت تحمل براويز صور زوجتي وابستي..

- معلش المكان...

قاطعني:

- فين الصور اللي كانت هنا؟

- شايلهم.. في الدولاب..

نظرت إلى إلها كانت تحمل رسالة كافية؛ لا تسترسل.. وفهمت..

- العيشة لوحدي صعبة!

- صعبة.. بس مُريحة..

- مش باين!

- أخذت على كده..

- عندك قهوة هنا؟

- أنا ما عنديش غير القهوة..

زحفت عيناهما لزجاجات البيرة فأردفت:

- والبيرة..

- اعمل لي قهوة..

نظرت للباب المفتوح أحملها على الرحيل..

- ما نروح كافيه أحسن..

- بلاش..

- ليه؟

ترددت لحظات ثم..

- خالد هنا النهاردة في المعادي عنده «Meeting»..

- هو..؟

- خالد ما يعرفش حاجة.. عارف! حصل حاجة غريبة.. لقى
اسمه على المُوبайл وهو يطلع رقم.. لقيت نفسني باقول له إنك
عميل من البنك.. مش عارفة ليه حسيت إني عاملة عملة زي
أيام المدرسة!!

- وهو أنت بتعملني عملاة؟

- لأ.. يعني.. يمكن أنا اللي حاسة كده.. اللي على راسه بطحة..

بس أنا مش كده.. «Anyway».. لو تحب نروح كافيه أنا...

- فھو تک ایہ؟

ابتسمت لتفهّمی:

مظبوطة ..

اطمأنت على باب الشقة المفتوح ضماناً لمخرج طوارئ من
أجلها قبل أن أدخل المطبخ، أعددت لنا قهوة وأنا أستشعر الخدر
الذي يشّه فُرص «الديياكين» في دمي، هدوء واسترخاء وشبه لامبالاة!
لما خرجت كانت جالسة على الكنبة بعدما أزاحت زجاجات البيرة،
تدخن سيجارة وتأمل قرص الفيل الأزرق المُلقى على المنضدة..

دہ ایہ دہ؟

سَحَبَتِ الْقُرُصُ مِنْ بَيْنِ أَنَامِلِهَا وَدَسَسَتِهِ فِي جَيْبِي مُبْتَسِمًا:

–مالکیش دعوۃ..

نظرت لي بشك فناولتها القهوة وجلست على كرسي بعيداً عنها،
دَوْتِ صفارَة الصمت في آذاننا فتكلّمت ردعاً لنفسي من مسح مسام
وجهها..

ـ أنا سبّت قضية شريف؟

۱۴۲

- مش بمزاجي .. سامح ابن الـ ..

- اللي ضربته؟

– هو.. بوظ الدين..

- ده معناه إيه؟

- صدقيني أنا آخر واحد ممكن تسائليه..

نسبة فمها مفتوحًا قبل أن تهز رأسها يميناً وشمالاً تطرد كابوسًا
فأكملتُ:

- شريف اتكلّم مع سامح.. في جلسة خاصة.. اعترف إنه قتل
بسمة.. بإرادته..

.. «No way» ..

- ده اللي حصل.. وكمان قال إني ابتنّيته..

!!!....

كان علىّ أن أشرح لها ما حكاه شريف عن تهديدي إيه ليزوجني
منها..

لم يرمش لها جفن.. توثرت جبهتها ونسقط السجارة بين
أناملها.. بدت الفكرة محرجة!!

- شريف اتجنّ!! قالتها بيس شديد..

- مش شرط!

- يعني إيه؟

- مش يمكن أنا عملت كده فعلًا؟

نظرت لي بلا فهم..

- إيه اللي أنت بتقوله ده!!

سجّبت نفساً لرئتي ..

- لبنى .. أنا مش مظبوط .. أنا .. أنا عارف ده .. حامس .. متأكد ..
ما تزعليش لو قلت لك إني مش هانفع في القضية دي بالذات .. أنا
مش عارف أنا باعمل إيه !! مش قادر أفرق بين الحقيقة والخيال ..
هيل .. فيه هيل .. ما بقتش قادر .. أنت فاهمة حاجة ؟

قاطعني :

- أنت شارب !

- أنا لما باشرب بيقى فايق .. أنا بطلت أسكر من زمان .. الموضوع
مش كده .. صعب أشرح لك !!

- طول عمرى كنت بافهمك .. قول ..

- أنا باسمع حاجات ما حصلتش !

لن أصف القلق الذي علا وجهها ولا النّظرة التي حدّجتني بها ..

- وباشوف .. باشوف حاجات ما حصلتش .. أنا مش مظبوط
يا البنى ..

- يعني إيه الكلام ده ؟

- يعني أخوكي ممكن يكون بيتكلّم صح !

- إيه ! هددته لو ما خلانيش أتجوزك مش هاتخرجه .. أنت
بنخّرف !!

- مش عارف .. المصيبة إني مش عارف .. ولو عملت كده فأنا
مش فاكر !

اعصرت جبتي بكفي حلباً للكلمات..

- أنا تعان.. تعان.. عشان خاطري قومي روحي.. وجودي
جنبك أو جنب أخوكي خطرو.. أخوكي سليم.. قتل.. بس سليم..
مراته خانته زي ما قلت لك.. لعبت بيها غلط.. وهو لعب بيها صح..
ده اللي أقدر أقولهلك وده اللي قدرت أوصله.. المحامي لو شاطر
هابطّله على الخانكة.. كام سنة ويخرج..

التوتر احتل جسدها كلّه فقامت، دفنت سيجارتها التي توقفت
عن سحب أنفاسها منذ دقائق واقتربت مني.. لم أدر بمني إلا وأنا
أبتعد عنها..

- أنا مش مصدقة الكلام ده! مش مصدقة إتك تقول كده
على نفسك..

داعبت شريحة تسجيل جلسة سامح وشريف في جيبي، همت
بإخراجها لتسمعها لكنني تراجعت، سمعها اتهام شريف لن يزيد
موقفي معها إلا اضطراباً ونفوراً..

- كلام أخوكي كان صح لما رفض نتجوز.. أنا ما أفععكيش..
ما أفععش أي حد..

- يحيى أنت تعان.. بس مش عيّان..

- كل الأعراض اللي كنت شايفها على أخوكي.. عندي أنا..
وباحكيها لك على إنها عنده..

- إسمعني أنا ما شفتهاش !!

تذكّرت مايا على الأرض مسجية والدماء تتدفق من تحتها..

- الحمد لله إنت ما شفتيهاش..

- أنت لازم تبطل شرب.. أنت هتجنن..

- لسه هتجنن؟؟؟

- بحبي أنت الحد الوحيد اللي فاضل لي..

برق في مخيّلتي وجه «مايا» ثانية، راودتني رعشة فتقهقرت للحائط كالملسوع أبتعد عنها، أحميها مني، كان ذلك حين غادرتني حرارة جسدي وحل البرد، سرى الخدر واهتزّت الأطراف، وهنـت كورقة خريف، الكحول الذي جرى في عروقي أتخم الكبد فتجاهـل تنظيم السـكر، ألم بي دوار فعجزت عن نطق كلمة، خفق قلبي بنـبض عـالـي وبالـكـاد تحـاملـتـ علىـ كـرـسيـ بـجـانـبـيـ قبلـ أنـ أـهـويـ، اقتربـتـ منـيـ بـسـرـعةـ وأـحـاطـتـ بـيـ يـدـيهـاـ، انـغمـدتـ فـيـ حـضـنـهـاـ كـسـيفـ بـاتـ فـيـ جـرـابـهـ الـذـيـ صـنـعـ مـنـ أـجـلـهـ، تـحـمـلـتـ وزـنـيـ رـغـمـ كـعـبـهـ الـعـالـيـ وـأـنـزـلـتـنـيـ بـرـفقـ عـلـىـ الـأـرـضـ قـبـلـ أـنـ تـهـرـعـ لـلـمـطـبـخـ وـتـأـتـيـ بـكـوبـ مـاءـ، بـيـدـ مـرـتعـشـ شـرـبـتـ، غـمـرـنـيـ العـرـقـ فـمـسـحـتـ بـكـفـيـهـاـ وـلـمـ تـقـرـفـ، ثـمـ أـحـاطـتـ رـأـسـيـ بـأـنـامـلـهـاـ لـتـنـظـرـ فـيـ عـيـنـيـ..

- لو الدنيا كلها قالت إنت عيان.. أنا باقول لك أنت مش عيان..

انتظمت أنفاسي بعد دقائق فجلست بجانبي بعدما خلعت حذاءها واستندت الحائط الذي أستند إليه.. لا صوت يعلو على صوت زجاجة البيرة الفارغة التي يدفعها تيار الهواء القادم من الباب المفتوح.. تدحرج ذهاباً وإياباً لتكسر حاجز الصمت بيـتاـ..

- أنت لازم تبطل شرب.. والقرص اللي أنت خبيته ده..؟؟

- ده حاجة تانية.. قصة طويلة..

- أنت عاوز تموت!

- ومش عارف!

- لو قلت لك عشان خاطري تبطل شرب!

- الموضوع مش في الشرب.. الموضوع أكبر من كده..

- عشان خاطري يا يحيى.. أنا عمرى ما طلبت منك حاجة..

- العشق: مرض نختيل أننا نشفى منه.. فقط لأن لا أحد بموت
بسه.. نظرياً..

غُصت في عينيها كثيراً قبل أن أسأّلها:

- وبعدين؟ لو بطلت أشرب؟

- أنت لازم تقف على رجلك.. لازم تفوق..

- وبعدين!!

- الدنيا ما وقفتش..

- الدنيا وقفت من عشر سنين..

نظرت إلى عيني قبل أن تتبادل حديثاً طويلاً من عشر صفحات
مسافة ٥٠ ستي بين السطور بخط بنطه ٤ .. A4

حديثاً لم نسمع منه كلمة.. ابتلعت ريقها قبل أن تخلج عيناهما
وتهرب بعيداً للتكلّم..

- تخيل.. أنا مُمكِن أعمل أي حاجة مهما كانت صَعبة وكارثية..
دلوقت.. أنا حتّى مش عارفة أبص في عينيك.. مش عارفة أسيطر
على أفكري.. خناقة جوايا بسببك أنت مش هتخيلها.. أنا مش
قادرة أستحمل..

احتقنت شفتها وترقرقت عيناها ثم تحررت.. طالما كانت تخفي
دموعها عنّي.. لكنها لم تفعل.. فقط خدشت أوردتها وانسال الكلام
منها نزيفاً..

- كنت متخيلاً إن دايماً عندى إجابة لكل سؤال! بس فيه حاجات
بيكون لطيف فيها إني أسيب نفسي وما أسألكش.. بعدين أبقى أعرف
ليه.. أو حتى ما أعرفش.. مش مشكلة.. رغم إنها كانت دايماً مشكلة..
لكن المرة دي.. مش مهم.. عارفة نهاية الفيلم ومش مهتمة.. أنا بس
مش قادرة أتخيل خسارتك تاني.. مش هاستحمل.. خليك في
الضلعة.. أنا راضية.. تخيل.. راضية تفضل في الضلعة وأفضل أنا
أتهنك زور إنك مش موجود.. على الأقل هافضل متشعبطة في ديل
حلم.. إنما لو عديت كده مرور الكرام.. واختفيت زي ما في يوم
اختفيت.. أنا مش هاسامحك.. هاموت.. أنا باخرف..

لا إرادياً مَدَدت ذراعي ببطء، لامست كتفها وأحاطته قبل أن
أحتضنها، لم تُقاوم، فقط اقتربت، استقرت في المكان الذي خُلق
خصوصاً من أجلها؛ في صدرِي، أغمضت عيني واستنشقت عبقها
الذي يجذبني من مسافة شهرٍ افتحت كفّي فأرست فيه كفّها، استوت
أناملها في التجويفات التي حُفِّرت لتناسب مُنحنياتها، لامست شعرها
بشفتي وطبعت قبلة شرف في مفرقه كما يطبع مراهق اسمه على

أحجار الهرم ليسجل لحظة تاريخية، أنا كنت هنا! التفتت لي ونظرت في عيني، تخلج، تنهج أنفاساً حارة، يا إلهي أنا أعيش حتى أنفاسها! أسمع قلبها يهز أركان البيت، وسخونة وجنتها تلفح وجهي كنسم أغسطس، لا إرادياً سقطت عيناي من فوق رموشها وتدحرجت على خدّها حتى استقرت على شفتيها، شفتها التي نسفت الجسر من قبل بين عقلي وجذوني، رمقتني لثوانٍ ثم ابتلعت ريقها قبل أن تقوم، لمّا شعرها دائرة وسوّت ملابسها دون أن تنظر في عيني، ثم اتجهت لحقيقة ودست فيها عُلبة السجائر وعلقتها على كتفها..

- خُد بالك من نفسك..

لم أقل شيئاً، لم أمسك يدها لاستبقيها أوأغلق الباب قبل أن تصلك، كان عليها أن ترحل، كان على النار التي اشتعلت في صلري أن تخمد وإنما صارت حريقاً هائلاً، مشيت في أثرها أتأمل هرويها البطيء، رقبتها المنكسرة، أكتافها الصغيرة، خطوات كعبها العالي المُرتعشه، وشذى التفاح المُحرّم الذي تركه وراءها، خرجت للحدائق وكان الهواء صاخباً يعيث بالأشجار ويرفع أغطية السيارات المركونة، فجأة برق مايا في عيني، رأيتها تمشي عارية على خطوات لبني فتوقفت مُنقضاً في اللحظة التي توقفت فيها لبني! أمام سيارتي التي أزال الهواء غطاءها وعَرَى هيكلها الذي تعجن كعبوة صودا يوم الحادثة، الهيكل الذي لم أرد تصليحه أو بيعه، الهيكل الذي أجلد نفسي به يومياً كراهب يُكفر عن سيناته!

وقفت لبني أمام الحطام متيسة، عيناها تتأملان شخصية «Sponge Bob» الصفراء المتدلية من بقايا المرأة، مشنوقاً لافظاً أنفاسه، اقتربت منها.

اتقلبنا تسع مرات.. مش عارف إزاي قدرت أعدّهم.. بس هما
تسع مرات.. مش عشرة.. ودي كانت لعبة نور..

قلتها وأخرجت من محفظتي صورة اصفررت ألوانها لا بستي..
ناولتها الصورة فنظرت فيها ملياً قبل أن تتغلص شفتاها وتغمض
عينيها حبسًا للدموع تراكمت..

- الله يرحمهم..

قالتها وناولتني الصورة:

- أنا لازم أمشي..

ركبت سيارتها وأنزلت الزجاج، نظرت لي لحظات بشفتين
ترتعشان قبل أن تضغط دواسة البنزين وتبعد في هدوء تاركة مُدّيتها
في قلبي، تابعت سيارتها حتى صارت في حجم علبة كبريت قبل أن
أرجع البيت، قرص الديباكون كان قد توغل في صحرائي المفتوحة
بلا قيد، فالجسم واهن، والمعدة خاوية والعقل خارج عن نطاق
الخدمة، ارتحيت على الكنبة وأغمضت عيني، وحلمت، لبني كانت
تجري في مرج أخضر، قرب شجرة هائلة يصل جذعها للسحاب،
ترتدي قميصاً قصيراً كشف عن ساقين نحتا في الجنة، جريت وراءها
ولمّا بلغتها ابتسمت بعذوبة ثم توارت خلف الشجرة، التحفت أبحث
عنها لكنها تلاشت كدخان، وقفت لحظات أتأمل المكان حولي،
نظرت إلى أعلى فداعبت الشمس حدقتي من بين أغصان الشجرة
الوارفة، أغمضت قسراً ولما فتحت رأيتني في مطبخي والشمس
معكوسه في وجهي من زجاج سيارتي في الفناء الخلفي، سيارتي
السليمة! أنا أحلم، ولا أريد الاستيقاظ! لبني كانت بجانبي تصنع

شطيرة جبن، وضعت يدي على خصرها، قبّلت كتفها فلوت رقبتها
وتلاحت أنفاسها حين لمّاحت كوثر جاري الشمطاء في شباك
المطبخ، تقف في حديقتي ناظرة لي بغل شديد، أغلقت ستائر الشباك
حين رجعت لم أجد لبني..

استيقظت!

رغمًا عنِّي، ولم أرد أن أستيقظ، لكن وضعتي على الكنبة كانت
أكثر إيلاماً من أن أحتمل، الشمس تتجول في الشقة وأنا أترنح،
حتى القهوة فارت مني على البوتاجاز، وشردت وأنا أتبول فسقية
أرض الحمام وقدمي! اللعنة! أشعلت سيجارة وطالعت أربع عشرة
مُكالمه فائته من تليفون محسن الممرض! كم الساعة؟ الثانية بعد
الظهر! المتخلف لم يعرف أنني سأستقيل..

سأعمل مع العجائز؟

لا.. لن أعمل مع العجائز!

الأَلْزَهَايْمِرُ وَالْتَّبُولُ الْلَّاءِرَادِيُّ لَا يَنْقُصُونِي، سِيلَاحُهُوْنِي عَمَّا
قَرِيبٌ وَلِمَ الْعَجَلَةُ؟!

النتيجة حتمية والقصة محرقة..!

- ألو.. صباح الخير يا محسن..!

- یا دکتور بکلمک من بدريي ما بتردش ..

- خير يا محسن.. مش عارف أنت عارف ولا لأ بس أنا سبت

القسم و ...

قاطعني:

- عرفت يا دكتور.. بس فيه مُصيبة سودا..

- فيه إيه يا مُحسن؟

- شريف الكردي زانق دكتور سامح في عنبر العزل..
عاوز يقتلها!

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الابتسامة

حين وصلت «الغرب» كان الاضطراب يموج في الوجه،
ممرضون وأطباء وعاملون متجمّعون أمام القسم يَسْدُون طريق
باب العنبر، سيارة أمن مركزي وبوكس شرطة متأهبة والجنود
من حولهما متحفزوون بمضغهم الفضول، سيارة إسعاف رابضة في
المكان فاغرة فاها تتظر ضحية، وسيارات الأطباء مشورة بلا نظام
كطفل بعثر ألعابه ورحل !

حُشرت بين الجموع حتى دخلت، بالكاد عَبَرَت الطرقة المؤدية
إلى العنبر، دفعت الأكتاف متخللاً الواقفين والتصقت بضابط يرفع
تقريره في لاسلكي فأبطأت حتى أسترق السمع ..

- ... من عَدَمه يا فندم.. رافقن يتجاوب.. حَصَل سعادتك بـس
الشّبّاك من بـرّه مقول بـأسياخ حديد.. بنحاول سعادتك.. صبح
معاليك المديرة موجودة وبيتكلم معااه.. هـتعامل طبعاً سعادتك..
إـحنا مستـنين يمكن يحصل تجاوب بـدل ما يكسر رقبـته سعادتك..
من عدمـه يا فندـم.. أوـامر سعادـتك.. مع الشـكر..

اقربت من غرفة التمريض فلمحت العنبر خاليًا من المرضى،
نقلوهم لقسم آخر حتى لا يتهز أحدهم الفرصة ويهرّب وسط
الفوضى، أفراد الشرطة متكتّلون قرب جوانب بـاب غرفة العزل

شاهرين أسلحتهم في تحفّز، المُديرة متوجّة تقف على أطراف حذائهما
لتتابع فتحة الباب الزجاجية العالية، تَسْهُدُت بكلام لم التقطه، ودكتور
كيلاني وراءها يتبع الموقف، لما اقتربت من باب العنبر رفع ضابط
برتبة مقدم يده إلى صدرِي مَنْعًا..

- ممنوع.

- أنا دكتور في القسم!

- ممنوع..

- ده المريض بتاعي.

- لو احتاجنا لك هاندلك.

ثم أشار لعسكريين أحاطاني ليبعداني عن الباب الحديدي حين
تدخل محسن:

- شيل إيدك يا عم أنت هو إيه أصله ده! ده الدكتور يحسى!!

أجا به الضابط بالتجاهل فناديت المديرة من بين قضايا الحديد..

- يا دكتورة.. دكتورة صفاء..

التفت ورمقتني بحيرة تحولت لعناد قبل أن تشيع بوجهها عني
وترجع لنافذة غرفة العزل حين أردف المقدم:

- اتفضل.. لو احتاجناك هاندلك.

تابعت الموقف من بين الأكتاف والأدمغة خلف الباب الحديدي
حتى تذكّرت كاميرا المراقبة، أسرعت إلى غرفتي وفتحت الكمبيوتر
بعدما أغلقت الباب، رجعت بالملف للساعات الماضية أتابع حركة

العنبر، أبطأت تدابع اللقطات حين تخلل ضوء الشمس الغُرفة ويدأت موجة الاستيقاظ، كل شيء بدا طبيعياً حتى خرج شريف بصحبة محسن المُمْرَض من غرفة العزل إلى العنبر كما أمرت، يتحرك بصعوبة بسبب الضمادة التي أحاطت فخذه، وضعه محسن قرب الحائط كلقمة عيش ملقة في الطريق وابتعد، تحرك شريف خطوتين ثم تيس في مكانه، أكثر من ساعة!! هكذا قال شريط الزمن من أسفل الشاشة، واقفاً شارداً في الحائط كقطعة أثاث لا تتحرك، فقط يهزه شهيق وزفير صدره، اقترب منه بعض النزلاء يرمونه بفضول لما طال أمد سكونه، كالجنة يتأملون سليمان عليه السلام ولا يعرفون أنه قد مات، لحظات واقترب محسن فقرفهم وقدم لشريف وجة إفطار، وضعها بجانبه لكنه لم يلمسها، حتى اقترب أحد النزلاء محاولاً تبادل حديث من جانب واحد، لما لمس غياب شريف عن الزمن سرق الوجة وابتعد..

انقضت ربع ساعة أخرى قبل أن يظهر سامح في الصور، اقترب من شريف وبدأ الحديث معه، حركات يد سامح قرأت فيها عصبية تزداد بسبب لامبالاة شريف، توقف بعدها سامح عن الكلام ثم نطق شيئاً وضع من أجله يديه في وسطه هيمنة وتأكيداً، لغة التهديد نجحت في تحويل رأس شريف ناحيته! حَدَّجه الأخير بنظرة ترقب ثم ابتسم لثوانٍ قبل أن يدفع قبضته في سرعة ناحية رقبة سامح ويطبق على حنجرته، انتفض سامح متائماً من المفاجأة، قبض على يدي شريف محاولاً التملص أو تخفيف الضغط على رقبته، اضطرب كرشه ورفس بقدميه كجاموس «ناشيونال جيوغرافيك» الحامل قبل أن يخر على ركبتيه ويضرب جرح شريف بكلوة يده يأساً،

التؤّر اجتاج التزلاء فاقتربوا في حذر قبل أن يتُشجع أحدُهم وينمسك ببعضه شريف من الخلف، التفت الأخير ودس سبابته في عين التزيل فتكوم على الأرض صارخاً والدم يندفع منها لتشيع دائرة الهلع، أحکم شريف قبضته على رقبة سامِح ولفَّه فأصبح ظهره يواجه صدر شريف والحنجرة لم تهرب من بين الأصابع! بعد ثانيةين بَرَز مُمرضان وعسكري، قبل أن يَظْهُر ضابط رفع فوهه سلاحه في وجه شريف الذي احتمى لإرادياً وراء هيكل سامِح متراصي الأطراف، رجع بظهره حتى باب غرفة العزل ساحبًا سامِح من عنقه قبل أن يغلق الباب وراءهما، ثَرَاكِم التزلاء على الباب ففرقهم العساكر ليفتح الضابط الباب ويوجه كلماته لشريف، ثوانٍ وبدأ أن الأخير قابلها بتهديد جعل الضابط يتقدّم وينغلق الباب، ليبدأ الأطباء والممرضون والعساكر في التوافد متابعين الحَدث..

كم تسعنا المصائب.. متعة تصاهي مُتابعة كأس العالم أو اقتناه
أفلام البورنو!

قاطع مُشاهدي التسجيل دخول محسن المُمِرض ينهج..

- دكتور.. المديرة عازفاً في العنبر..

خرجت وراءه إلى العنبر رَكضاً، على مَضضن أفسح لي الضابط الذي منعني من قبل، اقتربت من غرفة العزل وكانت المديرة تُنهي مكالمة متواترة مع أحد المسؤولين ثم التفت لي:

- شريف طلبك بالاسم!

نظرت من النافذة الضيقة، شريف كان جالساً على طرف السرير

المَعْدُنِي، مُمْسِكًا بِرَأْسِ سَامِحٍ كَمَاشَةً بَيْنَ فَخَذَيْهِ الَّذِي انسَابَ الدَّمْ
مِنْ جُرْحٍ أَحَدُهُمَا لِيُلْطَخُ وَجْهَ سَامِحٍ الْمُخْتَنِقِ، مُحِيطًا ذَقْنَهُ وَجَانِبَ
رَأْسِهِ بِكُفِيهِ فِي اسْتَعْدَادٍ لَا يُسْتَهَانُ بِهِ لِكَسْرِ الرَّقْبَةِ..

- شَرِيفٌ هَذِلَّوْ فَتَحَنَّا الْبَابُ هَايْكَسِرُ رَقْبَةِ سَامِحٍ.. مَشْ هَانِلْحَقْ
نِعْلَ حَاجَةٌ لَوْ دَهْ حَصْلَ.

- وَلَوْ اسْتَنِيْنَا بِرَضْهِ شَوِيهِ هِيمُوتِ مَخْنُوقٍ.

- هُوَ مَشْ عَاوَزْ حَدَّ يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَيْرُكِ.. اعْمَلْ أَيِّ حَاجَةٍ يَا يَحْمِيْ.
- أَنَا دَاخِلٌ..

تَرَكَتْهَا وَاقْتَرَبَتْ مِنَ الْبَابِ حِينَ لَمَحَتْ صَاعِقًا كَهْرِيًّا مُعْلَقاً فِي
حَزَامِ أَحَدِ الضَّيَاطِ..

- هَايْتَاجِ الْبَيْتَاعِ دَهْ!

خَلَعَهُ مِنْ حَزَامِهِ وَنَاوَلَنِيهِ فَوْضُعَتْهُ خَلْفَ حَزَامِيْ قَبْلَ أَنْ أَفْتَحَ الْبَابِ
بِيَطْءِ، مَدَدَتْ رَأْسِيْ أَنْظَرَ فَلَمَحَتْ الْابْسَامَةَ عَلَى وَجْهِ شَرِيفٍ..

- اقْلِ الْبَابِ يَا يَحْمِيْ.. الْوَلَدُ هِيَاخُدُ هُوا..

دَخَلَتْ وَأَغْلَقَتْ الْبَابِ وَرَائِيْ فَأَمْسَكَ بِعَلَاءَ السَّرِيرِ مِنْ تَحْتِهِ،
سَحَبَهَا وَرَمَاهَا بَيْنَ قَدَمَيِّ..

- شَوِيهِ خَصْوَصِيَّةِ..

- خِفَّ إِيدِكِ هِيمُوتِ مَنْكِ يَا شَرِيفٍ.. وَهَسْتَكِلِمْ زَيِّ مَا
أَنْتَ عَاوَزْ..

نَظَرَ لِكَوَّةِ الْبَابِ وَالْوَجْوهِ الْمَتَابِعَةِ مِنْهَا..

- مش عاوز أشوف الأغبية اللي بزه..

نطقها بحدة فالقطعت الملاعة وسدت الكوة وسط دهشة المديرة
ومن حولها ثم التفت لشريف الذي أشار لكرسي ملقى في ركن..

- ازنق الباب..

- سيبه يا شريف.. هيموت منك يا جدع!

- ازنق الباب!

سحبت الكرسي وحشرته بين مقبض الباب والأرض.. لما التفت
كان شريف ينظر للرأس المحاصرة بين فخذيه..

- غريبة إنّه صعبان عليك!

- مالهاش علاقة يا شريف.. خرج سامح بره الموضوع.. أنا مش
فاهم إيه اللي بتعمله ده!!

- تعرف إن الخنزير ما بيذبحش..

!! ...

- عشان الدهن حوالين رقبته كتير.. المفترض يتغذ في قلبه..
بس ما فيش سيخ!

- مش هاستفيد حاجة من موته يا شريف..

نظر لي ثم ابتسم قبل أن يضرب مؤخرة رأس سامح بقبضته، ثلاث
مرات، ارتج الأخير ثم حلقت عيناه إلى السقف وبان يياضها..

- صوته مزعج أوي..

قالها وتركه ينساب تحت قدميه فاقداً الوعي، تابعت صدره، كان يتنفس، سباحتاج دقائق يتدفق فيها الدم إلى رأسه قبل أن يفيق، لكرهه شريف بقدميه بعيداً عنه واعتل في جلسته قبل أن يقوم والدم يتزف ببطء من جرحه..

- شريف.. جرحك...!! ممكن أنه حد يربطه ويشفوف سامح.

- سيبه.. مش هيموت..

تأملت وجهه محاولاً تحديد مع من أتحدث.. اللعين عطل لدى فراءة لغة العَجَس..

هل من الممكن أن أكون مختلفاً تلك المحادثة الآن؟!

سؤال لا يستهان به!

وكوني طيباً لا يساعدني في التفرقة بين الحقيقة والوهم، وهم لن يسمعني من الخارج لعزلة الغرفة الصوتية! أحتاج إلى شيء مادي يثبت لي أنني أتكلّم مع أحد، أنني أرى ما أراه يقيناً، هربت عيناي إلى جهاز التسجيل أسفل السرير فابتسم شريف بخُبث، هممـت أن أقترب خطوة فنظر إلى سامح تحذيراً فتراجعـت، مـدد يده لمـكـمن التـسـجـيل وسـاحـبه بـرفـق..

- تفكـرـ ليـهـ ربـناـ بيـخلـقـ حاجـاتـ زيـ دـيـ؟

كان ينظر لسامح المُرْتخي على الأرض..

- الحياة فيها الحلو والوحش.. شريف.. أنا محتاج الجهاز ده..

نظر لجهاز التسجيل بين أصابعه ثم وضعه على الأرض..

- ليه؟ شاكك في نفسك..

- شريف.. عشان خاطري أنا محتاج...

لم أكمل جُملتي.. رفع قدمه وهوى بها على الجهاز ليُحطمها..
هرسه بلذة..

- ليه كِده..؟!

- أنت مش محتاج جهاز يا دكتور.. أنت سليم..

لم أعد أعرف إن كان ذلك شيئاً جيداً أم سيئاً، لكن على كل حال
لو كنت استمعت لجهاز التسجيل ولم أجد صوتي لازدت غرقاً في
قاع لا أعرف عمقه..

- ليه عمَلت كده في سامح؟

- المفروض تشكرني..

-أشكرك!!

- أنا باحميه من صاحبك..

- بإنك تقتله؟

- لسته مش قادر تفرق بيني وبين شريف.. صاحبك طبعاً عاوز
يقتلها.. كويس إني جيت في الوقت المناسب..

!!...-

- شريف مريض.. مرض صعب.. مرض ما حدش اتشفي منه
قبل كِده..

اقربت منه يبطء حين بدأ الطنين في أذني يسأل: من الذي يتكلّم؟
عيناه تنظران لي بصدق..

- أنا لو كنت سبته دلوقت كان قتل سامح..
!!...

- مش مصدقني؟

- أنا ما بقتش قادر أصدق حد..

- صدق نفسك.. صاحبك قتل وأنت عارف..

الطنين في أذني رجّ مخي كقرية حليب.. الصداع سكين طويل
في يد قاتل هستيري لا يكف عن طعن طبلة أذني بها.. من أنا؟
نسبيت..

- أنت بتخرّف..

قلتها وأنا غير مقتنع..

- أنت بتسمع القصة من ناحية واحدة بس..

اقربت حتى أصبحت بجانبه..

اضمر شرًا.. أو خيراً.. لم يعد ذلك يشغل فرقاً فالأمر نسبي..

العقل والجنون.. أمر نسبي..

الحب والكره.. أمر نسبي..

الرب والشيطان.. أمر نسبي..

- لو سبت صاحبك على سامح هيقتله..

- كُل شيء مكتوب ..

قلتها وساحت الصاعق الكهربى من حزامي قبل أن أغمره في عنق شريف.. أو أيًا كان! ضغطت الزر فرقضت الشراة الزرقاء.. انتفض شريف.. ارتج وتراجع لا إرادياً.. عوى بصرخة من يُسلح جلدہ حيَا قبل أن يهوي أرضًا.. خمد وهمد وارتخي.. ساحت نفسها قبل أن انحنى على سامح أتفحصه.. الواقفون بالخارج يحاولون فتح الباب أو كسره.. سامح يحتاج إسعافاً.. اقتربت ومددت يدي لمقبض الباب أزيح عنه الكرسي حين شعرت بحركة.. التفت وكان واقفاً ورائي.. لم أكدر أخذ رد فعل حين دفع قبضته في صدرى فارتطمـت بالحائط.. ارتجـت أعضـائـي الداخـلـية وضرـبتـ الضـلـوعـ قـبـلـ أنـ أـسـقطـ وـيـطـيرـ الصـاعـقـ منـ يـدـيـ.. تـركـنيـ وـذـهـبـ لـالـنـقـاطـهـ فـقـمـتـ أـتـرـّـحـ وـهـاجـمـتـهـ مـنـ الـظـهـرـ.. كـانـ ذـلـكـ حـينـ التـفـ وـسـدـدـ إـلـىـ ذـقـنـيـ ضـرـبةـ بـكـوـعـهـ.. مـاجـتـ الغـرـفـةـ وـارـتـعـشـتـ حـوـائـطـهاـ قـبـلـ أـنـ يـصـيرـ الطـنـينـ فـيـ أـذـنـيـ صـفـارـةـ قـطـارـ.. هـوـيـتـ إـلـىـ الـأـرـضـ وـلـونـ الـحـيـاةـ يـمـيلـ لـلـزـرـقةـ.. سـخـونـةـ سـيـخـ مـحـمـيـ لـسـعـتـ مـؤـخرـةـ رـأسـيـ وـأـلـمـ صـاعـقـ أـحـرـقـ عـيـنـيـ.. بـهـدوـءـ اـقـرـبـ شـرـيفـ مـنـ سـامـحـ.. انـحنـىـ فـوـقـهـ قـبـلـ أـنـ يـنـظـرـ إـلـىـ نـظـرـةـ طـوـيـلـةـ لـمـ أـفـهـمـ مـعـناـهـاـ.. أـوـ لـعـلـىـ وـقـتـهـ الـمـأـرـدـ أـنـ أـفـهـمـ.. بـيـقـيـنـ مـمـزـوجـ بـغـضـبـ جـزـ منـ أـجـلـهـ أـسـنـانـهـ أـمـسـكـ بـكـفـيـهـ ذـقـنـ سـامـحـ وـمـقـدـمةـ رـأسـهـ.. وـبـعـزـ قـوـتـهـ طـوـحـ كـلـ مـنـهـماـ فـيـ اـتـجـاهـ مـعـاـكـسـ.. رـغـمـ صـفـارـةـ القـطـارـ سـمعـتـ.. سـمعـتـ فـقـراتـ عـنـقـ تـنـفـكـ وـقـصـبـةـ هـوـائـيـةـ تـضـلـ طـرـيقـهاـ.. قـُـمـتـ أـحـيـلـ ثـقـلـاـ مـضـاعـفـاـ وـارـتـمـيـتـ عـلـىـ سـامـحـ.. كـانـ ذـلـكـ حـينـ اـنـفـتـحـ الـبـابـ تـحـتـ وـطـأـةـ أـكـتـافـ الـعـساـكـرـ.. انـهـمـرـواـ فـيـ الـغـرـفـةـ كـسـيلـ اـجـتـاحـ سـدـاـ.. دـفـعـونـيـ جـانـبـاـ وـأـطـاحـواـ بـشـرـيفـ إـلـىـ الـأـرـضـ.. أـسـقـطـوهـ عـلـىـ

بطنه فاحتضن وجهه البلاط.. بجانب وجهي.. النظرة بينما أخذت ثانية.. ثانية قرأت فيهما معنى واحداً.. الارتباط!

حمله الضباط بعيداً ولم يقاوم، أغمض عينيه واسترخى في قبضتهم كأنه ملك مدلل بين أيدي مدلّكي مساج، انحنى د. كيلاني على سامح الراقد بلا حراك يفحصه حين اقتربت المديرة مني، بصوت آتٍ من بعيد سمعتها تسألني إن كنت على ما يرام فهزّت رأسي إيجاباً لتبتعد، ساعيش يا مُمِلَّة فلا تقلقي، اعتدلت وأسندت ظهي للحائط أتابع ما يحدث حين أمر دكتور كيلاني الممرضين بحمل سامح برفق وخرجوا به ركضاً لاسعافه، بصعوبة التقطت بقایا جهاز التسجيل المهمش وأخفيتها في ملابسي دفعاً لتهمة لن يتحملها ظهي..

في الحمام غسلت رأسي المرتعج وأنفي الذي نزف دماً وأسنانى، عيني اليمنى علا بياضها نقطه دموية ستبقى شهراً وازرق خدي من أثر اللعنة، بأرجل مرتعة من أثر المجهود المفاجئ خرجت إلى فناء ٨ غرب، أرتميت إلى دكة وأشعلت سيجارة متابعاً سيارة الترحيلات التي أودعوا فيها شريف، بقية النزلاء رجعوا للعنبر، وتبع بعض الزملاء سامح، ثوانٍ وخرجت المديرة من العنبر وعلى أذنها التليفون، أنهت مكالمة وهي ترمقني قبل أن تقترب وتقعد بجانبي، بصمت مدة يدها إلى علستي وسحّبت سيجارة دستها بين شفتيها، نظرت لها في استغراب قبل أن أشعلاها، نفثت الدخان ثم تحذّث دون أن تنظر في وجهي:

- إيه اللي حصل جوة؟

حكيت لها ما حدث حسب ما حدث.. أو حسب ما تخيل
أنه حدث!

لما انتهيت سكتت ونظرت لي نظرة فرأت مغزاها.. ولم يعجبني..

- إحنا ما شفناش حاجة لأنك سيدت الشبّاك وزنقت الباب!!

- هو اللي طلب مني ده.

سكتت ثانية.. توغلني بعينيها.. ستعثر في غابتي المُحترقة إن
مشت مترين إضافيين..

يا سيدتي أنت لا تدررين من الذي تنظرين إليه! أنا نفسي لا أدرى.

- إيه تفسيرك؟ سأله.

- أنا قلت قبل كده وما حدش صدقني.. ازدواج.

- إيه اللي يخلي شريف يحكى اللي قاله عليك يا يحيى؟!

- أدبكي قلتني حضرتك.. في مصلحة مين الكدب ده!

- أنت كمان كدبت..

- خبيت.. فيه فرق.. مين فينا ما يحبش يساعد صديق؟
لكن مؤامرة لأ.. أنا مارجعتش غير لما جالي الجواب.. مش
الجواب جالي؟

نظرت لي باستغراب فلطمته على جوانب مخي وعفرت عليه
التراب كالنساء في الجنائز..

- الجواب؟؟ مش فيه جواب.. سأله بغضب أزعجهها..

- طبعاً فيه جواب.. أنا بس مستغيرة أنت بتسأل أكنت ما تعرفش !!
زفت نفساً وارتخت بظهي إلى ظهر الدكة.. رمقتني بنظرة
أعرفها.. نظرة نظر بها للمريض لتنزن عقله.. نمبر غوره.. قرأت ما
تنوي قوله ولم يعجبني أيضاً فعاجلتها..

- حضرتك شايقة إن ده تصرف واحد عاوز ينفي من تهمة! يكسر
رقبة سامح !!

- كل الناس اللي عندنا هنا بتدعى الجنون.. ممكن تكون دي
وسيلة تأكيد..

- بأنه يقتل تاني !!

- وده يأكد إنه مجنون بجد..

- أنا مش طايق سامح.. بس ما أرضالوش الأذى وده اتهام أنا
ما أقبلوش..

- أنا ما اتهمتكش..

- الكلام واضح يا دكتور..

- دي بارانويا اضطهاد يا يحيى..

- أيًا كان.. القضية دي خلاص ما بقتش بتاعتي.. من فضلك
اعفيني من المسئولية.. أنا مستعد أقدم استقالتي بكرة..

كان ذلك حين أتاهما اتصال:

-ألو.. إمتنى؟! ok ..

أنزلت السماعة من فوق أذنيها:

-سامح مات..

انهارت فوقنا شجرة صمت غرزني جذعها في الأرض أمتاراً،
واعتصر رئتي أخطبوط له ثمانون ذراعاً..

لا أكاد أصدق آنني قد أحزن على مثله يوماً!!

رغم كونه خسيساً، لثيمما، مملاً، خرتينا، مقززاً، سمجحاً، متسلقاً،
حاذداً، ناقضاً، شهوانياً، يمارس العادة السرية حتى هذه السن على
ما أعتقد، أحمق، متملقاً، مُنافقاً، جباناً، أرعن، وقلبه أسود..

إلا أنني لم أتمكن له مثل تلك النهاية..

سادت المستشفى كابة ووجوم تعكرت به نفوس المرضى قبل
الزملاء لفقد سامح، ما هي إلا دقائق وأحاط بي الضباط يحملون
شكوكاً وتکهنات وأسئلة مكررة، استسلمت بين أيديهم كمريض
في عملية قلب مفتوح، أفرغت في آذانهم ما رأيت، وشق علىي كثيراً
أن أسرد ما اقترفه شريف، شعور الوشایة أسوأ من كحول مغشوش،
كتب الضباط شهادتي في صفحات طويلة ولم يكونوا ليستوعبوا
الأعراض، الأعراض التي تراود شريف..

أو تراودني !!

انتهوا مني «نظرياً» ثم تركوني، خرقة بالية لا حياة فيها ولا رقم
على دكة أمام العنبر، مُبيساً شارداً ظللت راقداً حتى رأيت شريف
مَجروراً جراً، خرج من السيارة مُكبلاً يمشي بينهم محمولاً فوق
أيديهم لا يكاد يلامس الأرض، أودعوه سريره في عنبر العزل مُكبلاً
(قدم في ذراع)..

أنا في أشد الحاجة لـكأس !

خرجت من المستشفى إلى تاكسي .. عفرت الكون وثقبت الأوزون ثقباً إضافياً بدخاني حتى اكتمل بداخلني قرار طلبت من أجله لبني ..

- عندك كاميرا فيديو ؟

- عندي !!

- تقدري تيجي لي دلوقت ؟

- ممكن .. هو حصل حاجة ؟

- أنا هاكون في البيت بعد تلت ساعة ..

- حاضر .. أديني ساعة !

أنهيت نصف تبغي أمام البيت انتظاراً قبل أن تظهر سيارتها في نهاية الشارع، اقتربت والتوتر في خطواتها، يمشي بجانبها على عشب حديقتي، مَا تفعله للقائي أكبر من قدرتها، أخبرني بذلك توتر حاجبيها وشفاتها المتكلستان، تجد صعوبة في التصالح مع رغباتها، ما تشعر به من عدم مَنْطِقَيَّة الحياة التي نعيشها بعيدين عن بعضنا + الذنب الذي تحسه من مشاعرها تجاهي + أن سُلوكِي وطريقة محادثتي في التليفون بالطبع تُعطي إيحاءً بالاستدراج والتحرش !!

- أنت كويس ؟

- مش عارف !!

أقلقتها إجابتي ولم أجد غيرها لأطمئنها، كما أن الكائن

المُمِل المُسْمَى «كوثر» تَقْبَنَا فِي فُضُولٍ مِنْ خَلْفِ سَتَائِرِ نَافِذَتْهَا،
لَا إِرَادِيًّا سَحَبَتْ يَدَ لَبْنِي وَدَخَلَنَا شَقْتِي، بَدَأَتْ مَأْخُوذَةً قَلْقَةً، سَعِيدَةً
وَمُضْطَربَةً، جَرِيَّةً وَالْجُبْنُ فِيهَا كَامِنٌ يَفْلُتُ مِنْ عَيْنِهَا! أَغْلَقَتِ الْبَابَ
وَأَجْلَسَتِهَا عَلَى كَنَبَتِي قَبْلَ أَنْ أَمْرُّ عَلَى النَّوَافِذِ لِأَكْسُوْهَا بِالسَّتَائِرِ
وَأَرْجِعَ إِلَيْهَا..

- فِيهِ إِيْهِ؟

- لَبْنِي.. بَشْقِي فِيَّا؟

- طَبِيعًا!!

- عَنْدِي خَبْرٌ مُشْ كَوِيْسٌ.

هَزَّتْ رَأْسَهَا رَفْضًا وَاضْطَرَبَ وَجْهُهَا قَبْلَ أَنْ تَسْمَعَ..

- النَّهَارِدَةِ الصُّبْحُ أَخْوَكِي قُتِلَ سَامِحًا!

- إِيْهِ الَّلِي بِتَقُولُهُ دَه!!

- زِيِّ ما سَمِعْتِي.

- لَأَ.. لَأَ.. مُشْ مُمْكِنٌ.

- اهْدِي وَاسْمَعِينِي.

- أَسْمَعْ إِيْهِ؟ أَنَا مُشْ مَصْدَقَةً.. يَعْنِي إِيْهِ قُتْلَهُ!! إِزَايِ؟

- اسْمَعِينِي عَشَانِ الْوَقْتِ ضَيِيقٌ.

- هُوَ فِينِ دَلْوَقْتُ؟

- فِي عَنْبَرِ العَزْلِ فِي الْمُسْتَشْفِيِ.

قامت متخبطة لا تدرى أى اتجاه تذهب، ارتعشت يدها ونفرت مسامها، نظرت لي والانهيار والتهي يتجلolan في ملامحها، أحطت وجهها بيدي ثبيتاً فسكت والدموع لم تفعل، انسلت ساخنة على وجنتيها ساحبة المكياج الذي وضعه من أجلها، مسحت خديها بكفى ورفعت الخصله التي انسدلت مخفية عينيها، ثم لم أملك إلا احتضانها تهدئه قبل أن أسجّلها على الكنبة جثة حية وأجلس بجانبها، بهمس وئيد حكّيت بعض ما حدث لتسوّع ما أنا مُقدم عليه، حكّيت عن القميص العتيق، حكّيت عن تفاصيل في جلساتي مع أخيها، وحكّيت عن التليفونات التي أستقبلها، عن قروص البرزخ الذي ابتلعته والفيل الأزرق المرسوم فوقه، كدت أحكي عن «مايا» ولم تطاوعني روحي في البوح، شعرتها خيانة لها رغم فوات الأوان، ثم شرحت هواجي في نفسي بالدلائل والقرائن قبل أن أشرح لها ما أريد تنفيذه، ما أريد التأكّد منه، اعتدلت في جلستها وانتبهت، وكلما توغلت حكّيَا توثرت ملامحها، ساقاها لم تعدا مستريحتان، يداها تمثّلا أمام فمها تمنعان الكلمات من أن تخرج، وشفقة ملائعة ضيقّت المسافة بين حاجبيها، وأخيراً تقهقرت إلى ظهر الكنبة مُنكّasha مُحاولة التظاهر أمامي بغير ذلك فطمأنتها بابتسامة:

- أنا عارف إن اللي يقوله ده جنان.. بس ده اللي ما كتش عاوز أقولهلك لأنّي مش متأكّد من حاجة.

- أنا مش مصدّقة إن ممكّن تكون...!!

- خلينا ننفذ اللي أنا عاوزه عشان نتأكّد.

- ما أقدرش أعمل اللي أنت طالبه ده!

- لُبْنِي أَنَا مَا بِقْتَشْ قَادِرْ أَفْهَمْ أَنَا بِأَعْمَلْ إِيْهِ أَوْ مَا بِأَعْمَلْشْ إِيْهِ؟
أَنَا مُحْتَاجْ لِكَ.. عَارِفَةِ.. الْأَيَّامِ دِيْ بِسْ اِكْتَشَفْتِ إِنَّي مَا لِيْشْ حَدَّ..
بِقَالِي خَمْسِ سَنِينِ مَا شِي بِقُوَّةِ الدَّفْعِ وَمَشْ وَاحْدَ بِالِّيِّ.. يُمْكِنْ يُسْتَنِّي
أَشْوَفْكِ.. يُمْكِنْ رِبَّنَا سَايِّبِنِي لِأَنْ لِيَا دُورِ.. مَشْ عَارِفِ.. أَنَا مُحْتَاجْ
أَعْمَلْ دِه لِأَنْ دِيْ آخِرْ حَاجَةِ فَاضِلَّةِ لِيِّ.. آخِرْ تُّمَنْ فِي دِمَاغِيِّ..
سَاعِدِيْنِيِّ..

- افْرَضْ إِنْ ظَنَّكَ طَلَعْ صَحِّ!

- هَادِخُلِّ الْمُسْتَشْفِيِّ.. مَشْ هَتَفِرْقِ.. مَا عَنْدِيْشْ حَدَّ يَهْتَمِّ..

قَاطَعْتِنِيِّ:

- أَنَا مَهْتَمَّةِ!

- لُبْنِيِّ..! خَلِينَا نَتَكَلَّمْ بِالْعُقْلِ.

- مَشْ بَعْدِ مَا لَقِيتِكَ هَاتِرُوحِ مَنِّيِّ.

- أَنَا رَايِحِ رَايِحِ وَمَشْ هَاسْمَحْ لَنْفَسِيِّ أَبُوْظِ حَيَاْتِكَ.

- حَيَاْتِيِّ مَا لَهَاْشِ طَعْمِ.. حَاسَّةِ إِنِّيِّ وَاقِفَةِ عَلَىِ رَصِيفِ مَحَطَّةِ
مَهْجُورِ؛ الْقَطْرِ بِتَاعِهِ بَطَّلِ يَسْجِيِّ مِنْ عَشَرِ سَنِينِ.

- مَشْ كُلِّ الَّيِّ بِتَمَنَّاهِ بِيَحْصُلِ.

- أَنَا خَايِفَةِ.. أَوْلَ مَرَّةِ أَحِسَّ إِنَّيِّ خَايِفَةِ.. أَنَا مُحْتَاجَةِ لِكَ.

- بِشَقِّيِّ فِيَّا؟

- بِتَسْأَلِ؟

- ما تخافيش .. كل حاجة هتبقى كويسة.

صَدَّقْتُنِي ! ولم أصدق أنا الوعود حين خرج مني ! أخذت رأسها إذاعاناً لرغبتِي فقمنا إلى الغرفة، وقف تتأملني قرب الباب مسحوبة مدهوشة بما حكَيت، مأخوذه بما طلبت منها أن تفعله، حتى صدمة أخيها تضاءلت رغم قسوتها فتاهت عن رأسها مؤقتاً..

فقتلة واحدة لا تختلف كثيراً عن قتلتين !

سحببت مفتاح الغُرفة من ثقبه ووضعته مع مفتاح الشقة في يديها حين ومضت في رأسي مايا كصاعقة أصابت حدقَة عيني فأغمضت هريراً..

- عاوز أتأكد إني مش هاتحرك .. مهما حصل ما تفتحيش الباب ده غير بكرة.

- مش هاقدر أستنى لبكرة.

- العَوْ مش هيأكلني يا لبني.

- أنا مش مقتنة باللي أنت بتعمله ده !

- ولا أنا .. بس اسمعي كلامي .. ده آمن ليه ولigli .. روحـي وأنا معايا تليفونـي .. هاكلـمـكـ.

- ولو ما اتصـلـشـ ؟

- هاتـصـلـ.

- مش مسامحة نفسـيـ إـنـيـ أـعـمـلـ دـهـ !

- هنـصـحـكـ عـلـىـ الـكـلـامـ دـهـ بـكـرـةـ .. أوـعـدـيـ نـفـذـيـ الليـ طـلـبـتـهـ

زي ما قلت لك.. ما تجييش لوحدك.. لو لسته ليًا عندك خاطر
ما تجييش لوحدك..

- مش هاسامحك لو حصل لك حاجة..

- مش هبيحصل حاجة..

هزّت رأسها ولم أمهلها وقتاً للتفاوض، ابتسمت صناعياً
واعتصرت يدها توديعاً، أغلقت الباب على نفسي وانتظرت حتى
سمعت خطواتها البطيئة وباب الشقة ينغلق من ورائها، خلعت
قميصي فلمحت علامتي التجارية ولم أجد لي مصنعاً يستجني، فقط
ورقة سعرى كانت مُندلية، مكتوب فيها أنّي مجاناً بخصم ١٠٠٪،
ومعى هدية رُجاجة بيرة مثلجة ولفاقة تبع!

فتحت الدولاب وأخرجت الثوب الأثري، أزالت الغلاف البلاستيكى
من فوقه بحذر ووضعته على سريري، أمام مرآة التسريحه أمسكت
الميكروفون وأعلنت عن الفقرة التالية:

سيداتي آنساتي سادتي..

أدعوكم لقضاء وقت ممتع مع الغموض والإثارة.. السحر والمتعة
وثالث فقراتنا مع قرص الـ «DMT»..

الفيل الأزرق..

بُقعة إضاءة ناصعة أضاءت حلبة السيرك، قبل أن ينزل قفص
حديدي مهيب من سقف الخيمة مع قرع طبول سريع ما لبث أن
توقف بغترة حين استقر القفص على الأرض، وقفت في متصرف
الدائرة الحمراء أتأمل وجوه الجمهور المنبهر حين هدرت الأبواق

النحاسية مُعلنة بدأ الفقرة، أخرَجت الجَسد المَهيب من جَيبي، فـيل
أزرق يُحيطه أربعة عَيْد مَفتولي العَضلات يكَبُّون أقدامه بـجنازير
غليظة خشبة هَياجه، صَفَقَ الجُمـهور انبهاراً وانقطعت أنفاسهم
تصفيراً من سـحر اللـون الأزرق في العـيون فـضرـبت كـرباجـي على
ظـهـري تـرـهـيـباً لـيـسـودـ الخـيـمةـ صـمـتـ لهـ وـقـعـ، لـمـاـ وـصـلـ الفـيلـ إـلـىـ
وـسـطـ الـحـلـبـةـ رـفـعـ خـرـطـومـهـ عـالـيـاـ وأـصـدـرـ نـهـيـماـ عـمـيقـاـ بـثـ الرـُّعـبـ فـيـ
نـفـوسـ الـأـطـفـالـ فـاخـبـيـواـ فـيـ صـدـورـ أـمـهـاتـهـمـ، وـشـدـ العـيـدـ جـنـازـيـرـهـمـ
حـذـرـاـ أـنـ يـفـلـتـ، لـحـظـةـ صـمـتـ مـرـتـ حـينـ خـرـجـ قـزمـ منـ وـرـاءـ الدـخـانـ
الـهـائـمـ قـوبـ الـأـرـضـ، مـهـرجـ مـقـوسـ لـلـسـاقـيـنـ بـأـنـفـ دـحـماءـ وـضـحـكةـ
عـرـيـضـةـ قـيـحةـ، يـحـمـلـ فـيـ يـدـهـ كـوـبـ مـاءـ كـبـيـراـ، نـاـولـنـيـهـ فـرـفـستـ مـؤـخـرـتـهـ
بـقـدـمـيـ ليـتـشـقـلـبـ فـيـضـحـكـ الـأـطـفـالـ تـخـفـيـقاـ لـلـتـوـتـرـ قـبـلـ أـنـ يـنسـجـ،
رـفـعـتـ الـكـوـبـ فـيـ وـجـهـ الـمـتـفـرـجـيـنـ أـسـتـعـرـضـ كـوـنـهـ مـاءـ عـادـيـاـ قـبـلـ أـنـ
آـمـرـ العـيـدـ بـفـكـ قـيـودـ الـفـيلـ، تـوـتـرـتـ الـأـجـوـاءـ وـقـرـعـتـ الطـبـولـ فـيـ إـيـقـاعـ
سـرـيعـ وـسـادـ التـرـقـبـ النـفـوسـ، فـكـ الـحـرـاسـ جـنـازـيـرـهـمـ وـسـجـبـوـهاـ
وـرـاءـهـمـ إـلـىـ خـارـجـ الـقـفـصـ الـحـدـيدـيـ وـأـغـلـقـوـاـ الـأـبـوـابـ، اـقـتـرـبـتـ مـنـ
الـفـيلـ بـحـذـرـ، رـمـقـنـيـ بـعـيـنـ سـوـدـاءـ رـأـيـتـ فـيـهـاـ نـفـسيـ، دـرـتـ حـوـلـهـ مـرـتـينـ
قـبـلـ أـنـ أـلـتـقـطـ ذـيـلـهـ الصـغـيرـ الـمـُشـعـرـ، لـفـتـهـ حـوـلـ سـبـابـتـيـ حـتـىـ تـمـكـنـتـ
مـنـهـ فـهـاجـ وـوـقـفـ عـلـىـ قـائـمـيـهـ الـخـلـفـيـتـيـنـ يـنـهـمـ بـصـوـتـ مـُرـعـبـ قـبـلـ أـنـ
أـرـفـعـهـ عـالـيـاـ وـسـطـ ذـهـولـ الـجـمـهـورـ وـأـفـتحـ فـمـيـ لـأـسـقـطـهـ عـلـىـ لـسـانـيـ
ثـمـ أـبـتـلـعـهـ بـكـوـبـ مـاءـ الـكـبـيرـ!

سـادـ الـخـيـمةـ صـمـتـ الـجـنـائـزـ وـعـلـتـ الـوـجـوهـ دـهـشـةـ كـدـهـشـةـ
الـسـحـرـةـ لـمـاـ رـأـيـاـ عـصـاـةـ مـوـسـىـ ثـعـبـانـاـ، ثـوانـ بـطـيـئـةـ مـرـتـ قـبـلـ أـنـ أـلـتـقـطـ
الـمـيـكـرـوـفـونـ..

أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بفقرة الفيل الأزرق..

انهمر التصفيق والصفير بلا توقف.. نظرت في الوجوه المنبهرة لحظات وابتسمت قبل أن أمر بفتح أقفاص الأسود عليهم!

برفق التقطت القميص من فوق سريري واقتربت من المرأة، مع أدنى حركة يُصدر صوتاً يشبه رفرفة جناح طائر بسبب جفاف آنسجته، وقفتأتأمل نقوشه، بدت منعة أرهقت كثيراً من خطّها، لا أصدق مثابرة القلم الذي كتب الأرقام والأيات، الدوائر والربعات وأوراق الشجر! شعرت أنه سيتفسخ بين لحظة وأخرى أوينحل خيوطاً، لكنه تماسك، اللعنة، يا ليته يصير تراباً بين قدمي أو يتبعثر! يا بيت شريف يستحر ليريح نفسه.. ويريحني..

جمود قلبي بلغ صلابة الألماس..

نظرت لنفسي في المرأة وزأيت الأحمق ينظر لي، أرفع ذراعي فيرفعها، أحرك أصابعي فيُحرّكها، لم أتمكن نفسي من الغيظ، اندفع الدم إلى وجهي فأخرجت ولاعتي ورفعت القميص قبل أن أصلح الحجر وأشعل تحته ناراً، التقطت فتلة متذلية أطراف اللهب فانكمشت، تكورت على نفسها واسودت قبل أن تبعها أخرى فآخرى حين تمالكت نفسي بصعوبة وأطفأت ناري!

إذا كنت ساحرقة.. على الأقل يجب أن أرتديه مرّة!

نظرت للقميص جيداً وتذكرت ما سيفعله الفيل الأزرق بعد لحظات، سيفتح بجسده العملاق طريقاً في غابة معقّدة متشابكة،

سيسوى الأشجار بالأرض ويدهس السكان ويشرب كل مياه
البحيرات فتموت كل الحيوانات!

لابأس.. ولا سبيل للتراجع فقد بدأت أسمع نهيمه بالفعل
وأشم رائحته..

شغلت الكاميرا ووضعتها على التسريحة في مواجهتي، سحبت
نفساً عميقاً وأدخلت رأسي في القميص وحين استقر على كتفي..
لم أجد نفسي في الغرفة..

الوقت كان ظهراً..

الشمس حارقة حانقة أجبرتني على رفع كفي أمام عيني اعترافاً،
الصُّداع فشخ رأسي نصفين ووَسَعَ حدقتي كِيَا وأدمعهما، تعرجات
الأرض غير المستوية آلمت قدمي، ونعل البُلْغة التي أنتعلها رقيق
لا يعزِّلني! والجلباب! بُنْيَ داكن خَيشِن الملمس طَبَعَ عَرْقِي على
نَسِيجِه دَوَائِرَ من الملح تفوح صداً.. اللعنة! أين أنا؟

الليل الليل يا قِرْد الليل.. وأنا كان مالي يا قِرْد الليل..

نظرت بجانبي فرأيت رجلاً متكتماً بظهره إلى حائط قُرب باب
عْتيق، مُمسكاً بِرِقٍ صغير بين يديه الخشتين، جلباهه متَّسِخٍ وقدماه
جذع شجرة تعيسة لم ترتو من قبل، أمامه قِرْد ضئيل الحجم في
عُنقه سلسلة مشدودة إلى رُسْغِ سيده، يرتدي ثوب طِفلة ويُمسك
بين أصابعه القبيحة المشعرة سِجارة! يسحب منها نفساً ثم يُخرج
الدُّخان من أنفه بحرافية حشاش عتيد، الرجل يدق على الرق إيقاعاً
رتيباً رَخِيصاً والقرد يقفز في الهواء..

بالعدل رزقي ومَال الناس.. باعْمِل عجِين الفلاحة..

وعشان تمامك يا سيد الناس.. نغرقك عِزَّ وراحة..

نظر لي الرجل في ود وابتسم بأسنان متهمة سوداء، مُتماديَا
في غيائه بصوت أخف رَتِيب هَيج الصُّداع في عيني لعنه الله!!
ابعدت عنه أتعثر في خطوات الجلباب الضيق، لم ألبس جلباباً من
قبل! بالكاد تفادي الصدام بوجه ناقة مارة بجانبي، ناقة أولى في
مَوْكِب من عَشْر نُوق تَحْمِل قَرَب مَاء مُمْتَلَأة تَدَلِّي لتحيط جوانبها،
يَجْرِيْها بحال غليظة مُراهقون خمريو الوجوه حفاة الأقدام! التصقت
بحائط لأتفاداهم حتى مرّوا والماء المُسْرِّب من ورائهم يصنع نهرًا
صغيرًا تنهله الكلاب الضالة والقطط!

مشيت خطوات في وجه الشمس الراجمة لا أعرف إلى أي اتجاه
أسيـر حين لاحظت أنَّ أغلب الوجوه التَّعيسة تَنْظُر لي بود وهي مارة
بـجـانـبيـ، يـعـرـفـونـيـ! يـهـزـونـ رـءـوسـهـمـ وـيـحـرـكـونـ شـفـاهـهـمـ بـكـلـمـاتـ
لـمـ تـدـرـكـهاـ أـذـنـايـ، وـأـنـشـيـ! اـبـتـسـمـتـ بـدـلـالـ منـ تـحـتـ بـرـقـعـهاـ المـزـينـ
بـحـلـيةـ ذـهـبـيـةـ بـيـنـ العـيـنـيـنـ، أـعـرـفـ تـلـكـ العـيـنـيـنـ! تـخـطـتـنيـ وأـحـكـمـتـ
لـفـ مـلـاءـةـ سـوـدـاءـ تـخـفـيـ تـحـتـهاـ فـوـاـكـهـ الـجـنـةـ، قـبـلـ أـنـ تـبـتـعـدـ أـنـزـلـتـ
عـيـنـيـ كـعـادـتـيـ فـيـ تـأـمـلـ كـلـ أـنـشـيـ إـلـىـ قـدـمـيـهاـ، أـصـابـعـهاـ دـقـيـقـةـ مـطـلـيـةـ
بـلـوـنـ فـاقـعـ، لـبـنـيـ فـاقـعـ!
مايا! مايا!!

ناديت ولم أسمع صوتي قبل أن تتوه مني بين الزحام ولا أدركها،
ابعدت أمتاراً إضافية حتى ظهرت البوابة العظيمة، بوابة تَسْعَ فِيلَـاـ
أزرق! بوابة قديمة يحيط بها بُرجان حجريان مُصَمَّتان فوقهما مئذنتان
هائلتان، رأيت ذلك المشهد في صورة أو ربما كتاب تاريخ! شيء
ما دفعني للعبور أسفل منها، شيء حتمي مفروغ منه كفيلم انتهى

عَرَضُهُ فِي السِّينَمَاتِ وَمَا تَأْبِطَالُهُ! اقْتَرَبَتِ مِنَ الْبَوَابَةِ فَرَاعَتْنِي جَثَّةُ
 امْرَأَةٍ مَشْنُوقَةٍ، مَكْتُوفَةِ الْيَدِينِ مُعَلَّقَةٌ بِحَبْلٍ غَلِظٍ يُحِيطُ رَقْبَتِهَا، لِسَانُهَا
 مُتَدَلِّلٌ وَعَيْنَاهَا يَبْصَارُونَ مَا ظَعَنَّ، قَدَمَاهَا بِنَفْسِ جِيَّتَانَ مِنْ أَثْرِ
 الدَّمَاءِ الْمُتَجَلَّطَةِ الْمُتَرَسِّبَةِ فِيهِمَا وَنِصْفُ رَأْسِهَا حَلِيقٌ، الغَرِيبُ أَنَّ
 أَحَدًا لَا يُولِيهَا اهْتِمَامًا! كَأَنَّهَا جَزْءٌ مِنْ دِيكُورِ الْبَوَابَةِ!! مَرَرْتُ أَسْفَلَ
 مِنْهَا وَعَيْنَايِ لَا تَطَاوِعُنِي فِي تَرْكَهَا وَشَأْنَهَا، انْخَرَطْتُ وَسْطَ زِحَامِ
 بَاعَةِ جَائِلِينَ يَجْرُونَ عَرَبَاتِ عَلَيْهَا خَضْرَاءَاتٍ وَفَواِكِهِ وَمَوازِينَ،
 سَقَائِينَ مُتَرَجِّلِينَ مُسْرِعِي الْخُطْرِيِّ يَحْمِلُونَ قِرْبَ مِيَاهِ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ!
 شَحَادِينَ ذُوِّي عَاهَاتِ رَئَى الثِّيَابِ مُتَسَخِّينَ، وَأَطْفَالَ قَذَرِينَ حَلِيقِيِّ
 الرَّءُوسِ يَرْتَاحُ الذِّبَابُ فِي أَعْيُنِهِمْ، يَلْعَبُونَ بِصَخْبَ لَا أَسْمَعَهُ! اللَّعْنَةُ!
 أَذْنَابِي مَسْدُودَتَانِ بِشَمْعٍ يَكْفِي نَحْلُ الْأَرْضَ! حِينَ أَصْبَحْتُ بِحَذَاءِ
 الْبَابِ الْعَتِيقِ لَا حَظَتْ مَسَامِيرِ غَلِيشَةٍ وَضَرَوْسًا آدَمِيَّةٍ تُغْطِي وَجْهَ
 الْبَابِ بِشَكْلِ مَقْرَّزٍ!! مَغْرُوسَةٌ بِجَذْوَرِهَا الْرِبَاعِيَّةِ فِي مَتَنِ الْبَوَابَةِ،
 كَأَنَّهَا سَتَبُتُ شَجَرًا!! وَيَقْفَ أَمَامِ الْمِزْلَاجِ الْخَشْبِيِّ الْهَائِلِ رِجَالٌ بِسَطَاءٍ
 وَنِسَاءٌ، يَدْسَّونَ أُورَاقًا صَغِيرَةً فِي الشَّقْوَقِ وَالْفَوَاصِلِ، خَاسِعُونَ
 مُنْكَسُو الرَّءُوسِ مُتَمَسِّحُونَ بِبَرَكَاتِ الْبَابِ كَأَنَّهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدِ،
 مُبَتَّهُلُونَ يَتَرَنَّمُونَ بِصَوْتِ خَفِيفٍ:

يَا مَتَوَلِّي.. يَا مَتَوَلِّي.. اشْفِي ضَرِسِي وَرَيحَ عَقْلِي..

تَرَكَتِ الْبَوَابَةَ وَاتَّجَهَتِ إِلَى الْيَسَارِ، إِجْبَارِيًّا، ازْدَادَتِ التَّحْيَاتِ
 وَرَفَعَ الْأَيْدِي بِالسَّلَامِ وَهَزَّ الرَّءُوسَ احْتِرَامًا، لَمْ أَسْتَطِعْ إِلَّا الإِيمَاءُ
 وَالْتَّرْيَغُ بَعْيَنِي هَرَبًا مِنَ السُّؤَالِ! أَنَا فِي مَنْطَقَةِ حَمِيمِيَّةٍ! أَوْ رِبَّما الْفَيْلِ
 الْأَزْرَقِ يَسِيرُ مِنْ خَلْفِي فَيَضْفِي عَلَيَّ رَنْبَةَ الْمَلُوكِ؟ التَّفَتْ بَعْنَةً وَلَمْ
 أَجِدْهُ! فَقَطَ الشَّمْسُ ثَقَبَتْ عَيْنِيَّ كَسُوسَ فِي عَصْبَ ضَرَسِ مَحْفُورٍ،

شعور القيء بدأ يراودني، استحوذ على بيضاء حية عاصرة، وحلقي
يجف بجنون، كأنني ابتلعت تراباً، لمحت سبيلاً كبيراً قرأت على
خشبة منحوته بجانبه «سبيل السُّتْ نفيسة البيضاء رحمها الله»،
سمعت خرير المياه فهممت بالاقتراب حين وجدت ضيفي الأسود
الكثيب واقفاً بين عمودين، يلهث بتحفز وذيله بين قائمتيه الخلفيتين
في وضع هجوم، زمجر الكلب بشراسة وزام فرجعت خطوتين قبل أن
أبعد! ظللت ألتقط خلفي أتخبط الناس وأتعثر في الجلباب اللعين
أرفع طرفه بيدي والتراب يغزو رئتي، حتى مررت من أمام باب بيت
مفتوح سمعت منه شدواً:

الحَيٌّ فِي حِجْرِه بَيْتٌ مَا رَقِد..

عِنْهُ مِنْ قُصْتَهَا وَضَيِّ الْحَلْق..

الحَيٌّ فِي حِجْرِه بَيْتٌ لَمْ يَنْمِ..

عِنْهُ لِسَوْتَهَا وَلَتَحْتَ الْحَزَام..

الحَيٌّ فِي حِجْرِه بَيْتٌ وَوَصَل..

عِنْهُ لِرَسْمَتَهَا وَلَحْقُ الْعَسْل..

رجعت خطوتين فلمحت في الساحة بغلاء، بغلاء أزرق! بغلاء
اسمه بحر!

إنه بيت الطفل الذي وخزني.. بيت الخناقوس وشجرة الكافور!!
و تلك الأغنية غناها شريف في المسجل من قبل..

مررت بي قشريرة لم تكن لتوقفني، عبرت بوابة معلقاً فوقها

تمساح مُحيّط، اقتربت من الساحة التي رأيتها قبلًا من المشربية، شجر الليمون مُتشر على الجوانب، وفي المنتصف حوض الماء تعلوه نباتات الزنبق الدائيرة، تغريد العصافير يُضفي على المكان هدوءاً وسكونة ارتاحت لها نفسي، حتى الصداع والغثيان خفتا وخشعا واستسلما، اقتربت من البغل بحدر، كان أكبر من حصان! لونه البني العجيب يتغير مع أنفاسه صعوداً وهبوطاً، تلمع فيه موجة زرقاء تتحرك كرقاب الحمامات الزاجلة، لم أقاوم رغبة في مد يدي إليه، لم ينفر أو يعرض، بل لحسن قطعة السكر المتحجرة التي أخرجتها من جيب جلبابي لا إرادياً!! كان ذلك حين لاحظت سمرة يدي، والخاتم الأسود الذي ألبسه في خنصري !! مَسْخَت على ظهره اللامع حين سمعت حَفيـف الأقدام، نَظَرَت للسلم الخشبي فوجدها نازلة، ترتدى جلباباً أسود من القطيفة وتضع بُرْقـعاً مُـتـدـلـيـاً لم يُـخـفـ مـلـامـحـهاـ المُـسـنـةـ وـشـعـرـهاـ الأـبـيـضـ الخـشـنـ الشـارـدـ خـارـجـ نـقـابـهاـ،ـ سـيـدةـ الوـشمـ !! هـمـمتـ بالـاقـرـابـ مـنـهـاـ فـتـجـبـتـنـيـ وأـسـرـعـتـ إـلـىـ بوـاـبـةـ الـخـروـجـ،ـ كانـ ذـكـ حـينـ وـجـدـتـ «ـنـيـجـوـزـيـ»ـ أـمـامـيـ !!ـ خـادـمـةـ عـونـيـ،ـ تـرـتـدـىـ جـلـبـابـاـ فـلـاحـيـاـ صـاـحـبـ الـأـلـوـانـ،ـ وـيـحـيطـ رـأـسـهـ إـيـشـارـبـ أـسـدـ وـفـيـ أـذـنـيهـ وـطـرـفـ أـنـفـهـ أـقـرـاطـ نـحـاسـيـةـ مـسـتـدـيرـةـ..ـ

- نيجوزي !!

نظرت لي باستغراب واقتربت مُحاولة السيطرة على الإوزة التي تقبض على جناحيها بين أصابعها السمراء..

- نجية يا سيدى !! محسوبتك نجية ..

- أنت بتتكلمي عربي !! إيه اللي جابك هنا؟

رَمَقْتُنِي بِقُلْقٍ مَمْزُوجٍ بِشَفَقَةٍ قَرأتُهَا فِي عَيْنِيهَا مَرَّةٌ فِي
بَيْتِ عُونِي ..

- سَتِّي جَوَّةٌ مَسْتَنْظِرٌكَ ..

- سَتِّكَ مَنِ؟

!!! ..

- مَنِ السَّتِّ الَّتِي عَدَّتْ هِنَا دَلْوَقْتَ؟

- دِي بُوزِ الإِخْصَصِ ..

قالَتْهَا بِخَجْلٍ قَبْلَ أَنْ تَسْتَنْكِرْ قَوْلَتْهَا وَتَبْتَعِدَ إِلَى رُكْنٍ فِيهِ بَابٌ
صَغِيرٌ، دَلَّفَتْهُ وَأَخْتَفَتْ، صَعَدَتْ الدَّرِجَاتِ الْخَشْبِيَّةِ حَيْثُ أَشَارَتْ
وَدَفَعَتِ الْبَابِ بِرْفُقٍ، الشَّمْسُ كَانَتْ تَعْبَرُ الْمُشْرِبِيَّةَ رَاسِمَةً عَلَى الْأَرْضِ
خُطُوطًا مِنَ الضَّوءِ وَمُرَبَّعَاتٍ صَغِيرَةٌ، شَجَرَةُ الْكَافُورِ الْوَارِفَةُ تَوْسِطُ
صَحْنَ الدَّارِ ثَاقِبَةُ السَّقْفِ، تَضَفي بِوْجُودِهَا حُرْمَةً وَقُدْسِيَّةً، لَمَّا حَتَّ
الْقُلُلَ بِجَانِبِ الْمُشْرِبِيَّةِ تَشَعُّ بُرُودَةً، لَوْ كَانَ رِيقِيْ جِيرَا حِيَا لِلشَّرِبَتِ،
بِطْءٌ شَدِيدٌ لَمْ أَمْلِكْ تَسْرِيعَهُ اقْتَرَبَتْ، رَفَعَتْ عُنْقَ الْقَلْلَةِ إِلَى فَمِيْ وَرَغْمِ
الْبُرُودَةِ وَالنَّدَاوَةِ لَمْ يَنْزِلْ مِنْهَا شَيْءٌ، لِسَانِي تَحْنَطُ جَفَافًا كَعُصْفُورِ
مَيِّتٍ، وَضَعْتُهَا فِي الصَّينِيَّةِ وَالْتَّفَتْ لِصَحْنِ الدَّارِ أَتَأْمَلُ، الْبَابُ الَّذِي
دَخَلْتُهُ مِنْ قَبْلِ كَانَ مُوارِبًا، صَوْتُ الدَّنْدَنَةِ يَسْبِحُ فِي الْهَوَاءِ بِلَسَانِ
أَنْثُوي نَاعِمٌ، اقْتَرَبَتْ مِنَ الْبَابِ وَدَفَعَتْهُ، لَا إِرَادَيَا طَارَتْ عَيْنَايِ لِلْسَّقْفِ
أَتَفَقَدَ الْخَنَافِسَ وَلَمْ أَجِدْهَا، النَّامُوسِيَّةُ كَانَتْ مُنْسَدَلَةً عَلَى عَوَامِيدِ
السَّرِيرِ الْعَتِيقِ، وَالرَّائِحَةُ ذَكِيَّةٌ قَوِيَّةٌ مَسْكُرَةٌ، عَبْقُ مَسَامِ أَنْثَى ..

قُومِيْ ارْكَبِيِّ .. قُومِيْ ارْكَبِيِّ ..

سعدك ملاقيكي ..

جيبي ولد.. جيبي ولد..

أول بكار يكبي ..

سيدة الدار كانت تندنن فوق سريرها! تنميلاً كثيفاً تخلل كتفتي
ورقبتي قبل أن يترکز في ذراعي اليسرى، امتلأت خدرًا لا يأتي
إلا بصحبة ثلاثة كتوس «Absinthe» متالية! على يسارِي لمحت
مرآة طويلة إطارها من النحاس، معلقة بمسمارين بين عمودين من
الأبنوس ووجهة للأرض، أكلني الفضول لرؤيه نفسي في عالم الفيل
فاقتربت، مددت يدي وقوّمت المرأة عمودياً، ما كان لكلمات أن تُعبر
عما اعترااني حين شاهدت ما عكسه سطحها، تباطؤات ضربات قلبي
في لحظة، سكتة قلبية تلگأ، تراجعت متخبطاً فتعثرت في سجادة،
سقطت بيضاء شديدة ولم يفارق الانعكاس عيني، أعرفه! هو! تقابلنا
من قبل في غرفة العزل، اعتصر رقبتي وهددني بحب شديد إن لم آت
بالقميص سأتمنّى أن ألقى حتفي.. ولن أنال ذلك الشرف!! انقبضت
ورفت كفي السمراء أتأمل الخاتم الفضي ذا الفص الأسود المرربع
ونقوشه التي تشبه الأغصان، لامست وجهي العريض، تحستت فمي
الواسع تحت أنفي المدبب، مسحت على جبهتي العريضة المستوية
فوق حاجبي الكثيفين البارزين وشعري المنسدل بجانب كتفي!

ضربات خرطوم الفيل الأزرق فوق رأسي أصابتني بطبع.. نَفَثَ
الجُنون في أتفي وصبّ لعابه في لبّ عقلني..

يقال إن كُل من تناولوا الـ«DMT» مشوا في جنائز أنفسهم
قبل أن يموتوا!!

لحظات لم أحصها ظللت ملقى على الأرض أحاول استيعاب
هيتي، مهملًا كجثة متغفلة تعافها حتى النسور قبل أن أسمع الصوت
من خلف الناموسية ينادي بفتح فاتن:

- مأمون.. مأمون!!

كيف يكون حرف الميم والنون بذلك السحر؟!

دققت بين أعمدة السرير فرأيت جسماً مُتألئاً يتلوى في الفراش،
أدبرت وجه المرأة للأرض هرباً مني واقتربت منها، العذر ينهشني
والدم رمال ثائرة تندفع في شرائيني فتخربشها من الداخل، لما
أصبحت خلف الناموسية قرأت حدود جسدها من الفتحات الضيقة..
هي! سيدة الدار، الحورية التي نقشت العجوز وركها، عارية ترقد على
فرش أبيض لا يميزها عن نصوعه سوى بهجة لحمها الوردي البعض،
وضفيرة شعر سوداء فاحمة قد تسحب فحل ثور من قرنيه، تتلوى
بجانبها كحية وتتدلى حتى الأرض حول ساقي تعصرها بنعومة،
لمحت ابتسامتها ثم رأيت يدها تمتد نحو فؤاحت الناموسية وتلقيت
الطعنة من رموش كالسيوف فوق عينين هما الحياة لا جدال..

- تعال..

نادني ولم تنتظر، سحبت يدي فاضطجعت بجانبها بحتمية
الاستسلام لملك الموت، كشفت عن فخذها وابتسمت ابتسامة
ساحرة وهي تستعرض الوشم الذي دقته المرأة العجوز، رسم أقرب
لخطين متقطعين كحرف «X» لاتبني أطرافه الأربع تنتهي بحرف
«ص»!! يصنع في المجمل شكل وردة مُبسطة!

نفس شكل الوشم الذي رأيته في صورة بسمة وشريف على الشاطئ،
الوشم الذي تم سلخه من فخذها قبل أن تحلق من الدور الثلاثين !!
ظللت أتأمل الرسم على فخذها المذهب قبل أن تباعد ما بين
ساقيها ..

- حبيبي شايغبني؟ لسته مسدودة؟؟؟
هنا توقفت آخر مداركي عن التحليل والتفكير، أردت أن أفيق
ولم أعد أملك تلك الرفاهية، انسحبت روحني من صدري وضربني
السحر، قرأت في عيني المُنْبهرتين رغبتي العميماء فاقتربت ولثمت
رقبتي، أنفاسها الساخنة سرت من رأسي حتى أصبع قدمي الصغيرة،
ابتسمت فذابت على شفتيها، نهشت جلدتها الأملس كجلد الأطفال
 واستنشقت رائحة أنفاسها، كأس «Blue Label» إصدار «الملك
جيمس الخامس» !

لم أعد مهتماً بسؤال نفسي عن مكانني.. زمامي.. عن الغريب
الذي قابلته في المرأة !!

أو عن نية الفيل الأزرق وهل سيعيدني من حيث أتيت؟!

..«I don't give a shit»

فقط هي اللؤلؤة اللينة بين أنا ملي أقلّبها ولا أكترث..
أستنشق مسکها وعنبرها وياسميناها..
أمسح على مقدساتها وأقبل أقفالها..
أزور كهوفها وجبارها ووديانها..

أنهل أنهار عسلها ..

أبلغ بئر خلودها ..

أشبع منها حتى أجوع ..

هل تابعت حلقات «National Geographic» عن «الحرير العثماني»؟
أسطورة السلطان الذي مَرَ على أجمل مائة جارية من كل أنواع
الأرض .. في ليلة !!

أعرف شعوره الآن تماماً ولا فخر ..

وشم الوردة يَنْبَضُ على فَخْذِهَا وَيَتَلَوَّى ! وَذِرَاعِي اليسرى بَدَأَتْ
تَرْتَعِشُ ، الْأَلْمُ فِيهَا وَالْخِدْرُ تَلَازِمَا ، اللَّعْنَةُ عَلَى السُّكَّرِي !! لَا بَدَّ
أَنِّي نَهَلتُ مِنْ نَهْرِ العَسْلِ بَدَوْنَ وَعْيٍ ! بَدَوْنَ أَنْسُولِينْ ! ثَوَانٍ وَلَمْ
أَعُدْ أَسْتَطِعْ تَحْرِيكَ ذِرَاعِي ، نَفْسِي تَهَدْجُ وَضَرَبَاتُ قَلْبِي أَبْطَأَتْ ،
الْغَثْيَانُ وَالْهَبُوطُ يَلْوِحَانُ فِي الْأَفْقِ وَالْعَرْقُ مُقْدَمَةً مَنْطَقِيَّةً لَغَيْوَيَّةِ
سُكَّرِ ، اللَّعْنَةِ ، سَأَمُوتُ شَهِيداً عَلَى ذَلِكَ الصَّدَرِ ! يَا لِلْعَارِ !! نَظَرَتُ إِلَى
وَجْهِهَا أَسْتَغْيَثُ ، كَانَتْ تَرْمِقْنِي بِقَلْقٍ تَحْوَلُ إِلَى خَوْفٍ ، خَوْفٌ مِنِّي
وَلَيْسَ خَوْفًا عَلَيَّ ! سُخُونَةُ ذِرَاعِي تَكَادُ تُشَعِّلُ السَّرِيرَ مِنْ تَحْتِنَا ، الْهَلْعُ
اسْتِبَدَّ الْخَوْفُ فِي مَلَامِحِهَا مِنْ عُنْفٍ حَرَكَاتِي ، عَرَقِي انْهَمَرَ عَلَى
صَدَرِهَا وَبَدَأَتْ أَرْتَجَ بِلَا إِرَادَةٍ ، أَتَزَلَّلَ حَتَّى بَدَأَتْ تَصْرُخُ مِنْ تَحْتِي ،
صَوْتُهَا مَزْقٌ طَبْلَةُ أَذْنِي فَكَتَمَتْ فَمَهَا لَا إِرَادَيَا بِيَدِي ، قَبَضَتْ عَلَى
رَسْغِي مُقاوِمَةً حِينَ لَاحَظَتْ ذِرَاعَهَا ، ذِرَاعَهَا الْمَرْضَعَةُ بِالْحَسَنَاتِ !
أَرْبَعُ عَشْرَةً حَسَنَةً !! نَظَرَتُ فِي الْوَجْهِ غَيْرَ مُصْدَقٍ مَا أَفْعَلَ !!

لِمَاذَا لَمْ أَمْتُ فِي الْحَادِثَةِ ؟

لماذا لم تفنِ الأفيال الزُّرق مثل الديناصورات!
أنا أكتم أنفاس لبني بيدي كما كتمت أنفاس مايا من قبل !!
سيدة الدار العتيق كانت لبني !
صاحبة الوشم كانت لبني !!
شفاه الـ «Blue Label» كيف نسيت؟ كانت دائمة وأبداً شفاه
لبني !!!

المْ آمِرُهَا بِالذَّهَابِ وَأَعْطَيْتُ لَهَا الْمَفَاتِيحِ؟

لبني كانت تخنق تحت وطأة أصابعي المتشنج، جاهدت
لأزعج يدي عن فمها ولم أستطع، فقدت التحكم في ذراعي، فقط
الألم أحسه يسلح رسغي سلخاً، وجسدي صخرة فوقها لا أستطيع
تحريكها، مُحافظاً على رايتي بداخلها لا أتوقف عن دك حصتها،
أغتصبها لا إرادياً والغيبوبة تسحبني لقاع لا هواء فيه، ثوانٍ وبدأت
عيناي تنطفنان، الأصوات تخبو، الغرفة تخفي وجهها المُلتاع
يتلاشى، حتى ذراعي فقدت الإحساس بها، بحثت عنها تحت كتفي
فوجدتها بجلف قابضة على صدر لبني تعصره عصراً، والوشم يخرج
من تحت إبطي ليتلوي بهدوء صانعاً رسماً أعرفه، وشم داكن يمتد
من الكتف ليتهي في الكف، تقطعه بالعرض خطوط تلتف حول
الذراع كدرجات سلم، نهاية كل منها مشبوبة بما يشبه حرفي «ص»
متعاكسين، لم يكن ذلك سوى وشم شريف !

كان ذلك قبل أن يتلاشى كل شيء وأستلقى بظوري في قاع
بشر.. مردومة ..

انتظرت الملائكة أن يأتيا ولم يفعلوا! تأخرا..

سيسألاني عن إلهي ورسولي وديني ولن أجيب.. عمدًا..

الجحيم يحب أذن يحظى بكراديو وقادة يشون اليأس في نفوس الأجيال الجديدة..

الضوء كان قاسيًا مبالغًا في شدّته.. فتحت عيني على ثاني أكثر المخلوقات شرًا من بعدي.. الشمس..

لم يكن ما رأيت شمساً واحدة.. كانتا شمسين إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب يمحوان الظلال من حول أقدام المارة!!

كنت واقفاً في نفس المكان.. أمام القرداتي المسند على الحائط وقرده القبيح يتغافر أمامه..

الليل الليل يا قرد الليل.. وأنا كان مالي يا قرد الليل..

قمت أستند الحائط، أتأمل القرداتي الذي ينظر لي بأسنانه الكريهة، يريدني أن أنفحه تقوداً جزاء التعذيب الذي يمارسه على طبلة أذني !! لو يدي لخرقت له الرّق وخنقت قرده! ابتعدت، المارة كانوا يتأنّلونني بدهشة فرفعت يدي أمام وجهي وأسرعت أتسند سوراً ضخماً لا ينتهي والدوار والغشيان ينهشانني، ظللت أبتعد عن

أغنية القرد المُمُبَتَّة حتى وَصلَتْ إِلَى بُوَابَةِ فِي السُّورِ بِدَاخِلِهَا سَلَمْ
صَاعِدٌ يَنْتَهِي بِبَابِ، شَيْءٌ حَتَّمِي دَفَعَنِي فَصَعَدَتْ، سَلَمٌ طَوِيلٌ لَا نَهَائِي
اعْتَقَدْتُ لِلْحَظَاتِ أَنْ نَهَايَتِهِ سَتَصِلُ لِلسَّحَابِ، وَصَلَتْ أَمَامَ الْبَابِ
الخَشْبِي الْمُغْلَقِ بَعْدَ عَنَاءِ، لَهَثَتْ وَأَنَا أَدْقَّ عَلَيْهِ بِأَمْلٍ لَا أَفْهَمُهُ، ثَوَانٍ
وَانْفَتَحَ الْبَابُ !!

- عَمْ سَيِّدُ !! بِتَعْمِيلِ إِيَهِ هِنَا !! !!

- أَنَا مَكَانِي هِنَا ..

تَأَمَّلْتُ ذَقْنَهُ التِّي تَصِلُ لِنِصْفِ صَدْرِهِ، جِلْبَابَهُ الْأَبْيَضُ وَالسَّتْرَةُ
الْدَّاکَنَةُ فَوْقَهُ، الطَّربُوشُ الْأَحْمَرُ الْقَصِيرُ وَالْقَبْقَابُ الْجَدِيدُ فِي قَدْمِيهِ !!
أَخْرَسْنِي وَجُودَهُ فَأَسْنَدَنِي وَأَجْلَسَنِي عَلَى كَرْسِيِّي مِنَ القَشِّ وَتَحَدَّثَ
بِكَلَامٍ لَمْ أَفْقِهِ مِنْهُ شَيْئًا، أَذْنَايِي مَغْمُورَتَانِ فِي بَحْرٍ تَصْلِلُهَا الأَصْوَاتُ
مُبَهِّمَةً مُشَوَّشَةً، فَقَطْ التَّقْطُتُ أَنَّهُ يَنْادِينِي بِالْمَأْمُونِ !! وَيَحْدَثُنِي بِاحْتِرَامٍ
يَشْتَيِّي مِنْ أَجْلِهِ ظَهَرَهُ، لَحْظَاتٌ وَتَرَكَنِي لِيَدِ لَفْ بِبَابِا جَانِبِيَا يَفْضِي إِلَى
غَرْفَةِ أَخْرَى فَتَأَمَّلْتُ الْمَكَانَ مِنْ حَوْلِي، رَأَيْتُ نُولَ حِيَاكَةَ، أَقْمَشَةَ
مَلْفُوفَةَ فَوْقَ بَعْضِهَا وَدُرْجَاتِ الْإِبْرِ وَالْخِيُوطِ وَعَدْدًا لَا نَهَائِيًا مِنَ الْكِتَبِ
فَوْقَ رُفُوفِ عَلَى الْجُدُرَانِ، بِصَعْوَدَةِ قَاوَمَتْ غَثِيَانِي وَقُمْتَ، تَمَثَّلَتْ
لِلْغَرْفَةِ الْجَانِبِيَّةِ التِّي دَلَفَهَا عَمْ سَيِّدُ، كَانَ مَكْفِيَاً عَلَى رَدَاءِ يَحِيكَ فِيهِ
تَفَصِيلَةً بِإِبْرَةٍ طَوِيلَةً، اقْتَرَبَتْ فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ الْقَمِيصُ الْأَثْرِيُّ، كَانَ جَدِيدًا
كَأَنَّهُ صُنِعَ بِالْأَمْسِ، شَعَرُ بِوْجُودِي فَابْتَسَمَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ وَيَقْرَبَ مِنِّي
طَبَقًا نَحَاسِيًّا كَبِيرًا وَضَعَهُ بَيْنَ قَدْمِيَّيِّي، التَّقْطُتُ ذَرَاعِيِّي الْيُسْرَى ثُمَّ كَشَفَ
كُمَّ جِلْبَابِيِّي، الْوَشْمُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا، كَانَ هَنَاكَ حَرقٌ، حَرقٌ تَمَشِّي
عَلَى خُطُوطِ الْوَشْمِ الَّذِي رَأَيْتُهُ يَتَشَكَّلُ وَأَنَا بَيْنَ يَدَيِّي لِبَنِي، نَظَرَ فِي

الحروق قبل أن ينحني ويرفع الجلباب ويُحردني منه، الحرق كان
ممتدًا من ذراعي اليسرى حتى أعضائي التناسلية، انسحبت روحني
إلى قدمي لِمَا تأمتلَّتُ الحروق قبل أن أترنح وأسقط، أدركتني الرجل
فأجلسني قبل أن يأتيني بطبق فيه دهان أحمر رائحته نفاذة، فرده بيدين
مُرتعشتين على حُرُوق الوشم ثم مسحه بكرم قبل أن يغمس سبابته
في الدهان وهو يُردد:

- يا هادي الهدية.. يا شافي الشفية.. يا حافظ السر في محبته..
يا مفجّر الأرض بنابع ورحمة..

ردّدها ثم مدّ أصابعه وفسخ فكّي عنوة ثم دسّ أصبعه في حلقي
فلم أتمالك نفسي.. تقىأت سائلًا أصفر مخلوطًا بسود ورائحة كريهة
يعافها كلب..

- استفرغ.. استفرغ.. كل يوم تمد صابعك في خشمك وتستفرغ..
فضي بطنك واملاها مية وملح.. توّضي بالملح وتستتجي بالملح
وتغرسيل بالملح.. الملح طاهر يظهرك.. الملح يجتنبه.. يبعده عنك
سبع أيام..

ظللت أقذف ما في جوفي لدقّقة متواصلة في الطبق النحاسي
الذي وضعه بين قدمي قبل أن أخدم.. ألبستي القميص ووضع كفه
على صدري وبدأ يُرثّل كلامات بالكاد استوعبتها..

- يا حي يا دائم يا فتاح.. على عَبدك قبة من حديد لا يفتحها
سلاح.. ولا إيليس بمفتاح.. ولا نايل النكاح.. بحق الكاف والنون..
تمحي الجنون.. وتبع الكلب الأسود عنه ألف ألف يوم..

هدأت نسبياً والتقطت أنفاسه قبل أن يجلس أمامي:

- أنت مَمْسُوسٌ ..

10

- القميص تلبسه ما يفارقك.. إلا على باب الكنيف تسييه في
مكان طاهر.. ولا تعاشر الحُرمة ليلة واحدة.. ولا يمسه دم.. الدم
نجاسة.. لغاية ما يغادر..

- مين اللي يغادر؟

- منها لله الجاھلة اللي دقّت الطُّلسم على حَرِيمك.. جلبت لها
«نایل» لعنة الله عليه..

نایل

-نَكَاحُ سُفْلِيْ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.. نَأْيِلُ اسْمَهُ.. يَشْمُ الْطَّلْسَمُ وَلَوْ عَلَى
بُعْدِ أَلْفِ مِيلٍ.. يَحْضُرُ وَيَغْيِيْكَ كَمَا النَّايمِ فِي سَابِعِ نُومَةٍ.. يَتَكَلَّمُ
بِصَوْتِكَ.. وَلَوْ أَرَادَ؛ صَوْتَهُ مَا يَتَسْمَعُشُ.. تَرُوحُ أَنْتَ وَيَحْلُّ هُوَ..
يَلْفُّ نَفْسَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى إِحْلِيلِكَ وَيَرْكُبُ بَيْكَ حَرِيمَكَ الَّتِي عَلَيْهَا
الرِّسْمُ.. وَتَضْحَى فِي يُومٍ تَلَاقَى كُلُّ شَيْءٍ اتَّبَدَّلَ وَرَاحَ.. وَيَحْلِلُ لَهُ
يَأْيِدِكَ يَزْهَقُ الْأَرْوَاحَ..

- مایا !!

- القميص هيرفع عنك.. مكتوب عليه بالمسك والزعفران
درعك وحمaitك في تسعه أرقام.. ما بين الكاف والنون.. قوله
الحق قوله الملك..

كان ذلك أكثر من طاقتني .. خفت عيناي وشقت رأسي صفاره
حادة قبل أن تميد الأرض من حولي ..

- عطشان !

نطقتها استغاثة فقام تاركا القميص في حجري حين أظلمت الدنيا
من حولي وانطفأت الشموس ..

فتحت عيني تلك المرة فرأيتني سائرا قرب الغروب، مرتديا
القميص والناس ترمقني بدهشة وأسى لم أغفله، كل الأحداث
كانت تُعاد كأسطوانة مُستهلكة، مررت بالقرداتي، موكب العِمال
حاملة قرب المياه العملاقة، البوابة، المرأة المشتوقة، الأطفال
القذرين والذباب حول أعينهم، الشحاذين والبياعين، مسامير البوابة
والضروس المفروسة فيها، ابتهالات الواقفين «يا متولى ..» سيل
نفيضة البيضاء، الكلب الأسود السائر خلفي، وصلت البيت ولم يزل
يتبعني، عبرت الباب فسمعت الصريح، مرت أمامي «نجوزي» ملتابعة
وراءها عبد أسود يركضان تجاه السلالم المؤدي لباب الدار، ببطء
شدید رَكضت، أعدو في بحر من عجين بلا طوق نجاة، الصريح شقّ
أذني آتيا من غرفتها، غرفة لبني ! أزاحت أكتاف الخادمات فرأيت العبد
الأسود يضرب الباب الخشبي الغليظ بقدمه، شاركته الضرب بكتفي
حتى انخلع وانفسخ المزلاج فدخلت، هرعت للناموسية وأزلتها، لم
تكن لبني في السرير !! مسحت الغرفة بعيني للحظة قبل أن تنفضني
صرخة، صرخة آتية من السقف !! نظرت فرأيتها في رُكن فوق رأسي،
مقلوبة عارية، بطنها مُتفرخ مُلتتصق بالجدار وساقاها مُنفرجتان تجاه
السقف الخشبي، بترجان كأنهما قربة يُفصل فيها الدهن عن اللبن،

وَجْهُهَا يَحْتَكُ بِأَحْجَارِ الْحَائِطِ وَشَعْرُهَا الطَّوِيلُ يَتَمَوَّجُ كَبَنْدُولٍ سَاعَةً
نَاحِيَةً الْأَرْضِ يَمْسِحُ الْحَائِطَ، غَائِبَةً عَنِ الْوَاعِيِّ مُرْتَخِيَّةً كَخَرْقَةٍ، تُفْيَقُ
فِي يَقْظَاتٍ مَتَقْطَعَةٍ لِتَصْرُخَ، قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ ثَانِيَةً..

مِنْ هَوْلِ الْمَشْهَدِ رَسَمَتْ «نِيجُوزِي» بِأَصْبِعِيهَا صَلِيبًا فِي الْهَوَاءِ
وَخَرَّ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ رَاكِعًا عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَفَرِّجِي الْخَادِمَاتِ الْبَاقِيَاتِ
فَزَعَّا، صَرَخَةً أُخِيرَةً صَدَرَتْ مِنْ لَبْنِي قَبْلَ أَنْ تَهُويَ إِلَى أَرْضِ الْغَرْفَةِ
مِنْ ارْتِفَاعٍ أَرْبَعَةِ أَمْتَارٍ، سَمِعْتُ عِظَامَهَا تَطَقْطَقُ قَبْلَ أَنْ يَكْسِيَهَا شَعْرُهَا
سَتَرًا، سَاعَدَتِنِي «نِيجُوزِي» عَلَى حَمْلِهَا إِلَى السَّرِيرِ وَسَجَّلَنِاهَا،
وَضَعَتْ أَذْنِي عَلَى صَدْرِهَا أَسْتَرِقَ السَّمْعَ فَالْتَقْطَتْ نَبْضَاتٌ تَسْتَحِيُّ،
سَتَرَتْهَا بِغُطَاءٍ مَا لَبِثَ أَنْ تَسْلُلَ إِلَيْهِ الدَّمَاءُ النَّابِعَةُ مِنْ بَيْنِ فَخْدِيهَا
فِي بُقْعَةٍ تَشَعُّ، فَقَدَتِ النُّطْقَ وَاحْتَضَنَتْهَا حِينَ سَطَعَتِ الشَّمْسُ فِي
عَيْنِي فِجَأَةً وَاحْتَرَقَ الْقَمَرُ..

لِسَانِي تَبَخَّرَ وَشَفَتَاهُ صَارَ تَأْرِيَّا..

أَلَا يَشْرُبُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ مَاءً!!

لَمَّا فَتَحَتْ عَيْنِي كَانَ اللَّيلُ حَالَكَآسَاكَنَا، رَأَيْتِنِي أَخْمَلُ سِكِّينًا حَادًّا
نَصْلَهُ مُحْتَدَمٌ أَمَامَ فَحْمٍ وَنَارٍ، وَنِيجُوزِي تَرَشَّ المَلْحُ حَوْلَ سَرِيرِ تَرْقَدَ
فَوْقَهُ لَبْنِي، مَرْبُوْطَةٌ فِي أَعْمَدَتِهِ تَنْظُرُ نَحْوِي بِأَمْسِيٍّ لَا يَوْصِفُ، وَسَلِسَلَةُ
الْفَرَاشَةِ لَا زَالَتْ عَلَى صَدْرِهَا، فَوْقَ بَطْنِهَا الْمَتَفَخَ حَمْلًا!! اقْتَرَبَتِ
«نِيجُوزِي» وَنَظَرَتْ فِي عَيْنِي قَبْلَ أَنْ تَدْسِيَ يَدَهَا فِي مَنْبَتِ صَدْرِهَا
الْأَبْنُوسِيِّ وَتُخْرِجَ قَمَاشَةً مَطْوِيَّةً مَرْبُوْطَةً فِي حَبْلٍ، تَحْوِي شَيْئًا لِهِ
رَائِحةً نَفَادَةً قَوِيَّةً، أَحْاطَتْ بِهَا رَقْبَتِي قَبْلَ أَنْ تَتَمَّمَ:

- يَا عَدْرَا، يَا أَمْنَا الطَّاهِرَةِ، يَا مَلَكَةِ السَّمَا، أَصْغِنِي إِلَى صَرَخَاتِ

أولادك المعذبين في المطهر واسفعي لهم أمام عرش القدير .. ده حنوط
أبونا أثنا سبعمائة وتراب من تحت شجرة مريم .. يحفظك من كُل شر ..

أنهت دعواتها واتجهت للبني قبل أن أعقب بكلمة، ترتجل بلغتها
الحبشية همهمات مبهمة اذنوت شاهراً سكيني الملتهب، مادت عينا
لبني وزاغتا هليعاً قبل أن تشيع بنظرها عنّي، وضعـت «نيجوزي» خرقـة
مبـلة على رأس لبني وأخـرى جـافة جـلتـها ووضـعتـها بـين أسـنانـها، نـظرـت
لي لـبني باستسلام فـامـسـكت «نيـجـوزـي» بـيدـيهـا واعـتصـرتـ أصـابـعـهاـ ثمـ
كـشـفتـ عنـ فـخذـهاـ، الوـشمـ كانـ رـابـضاـ يـنـظـرـ ليـ، مـلـيـثـاـ بـخـرـيشـاتـ منـ آثارـ
إـزـالـةـ لمـ تـنـجـحـ، يـتـحرـكـ تـحـتـ جـلدـهاـ كـرـيـقـ تـحـتـ زـجاجـ، «نيـجـوزـيـ»ـ
لمـ تـوـقـفـ عنـ ابـتهاـلاتـهاـ، مـرـتـ لـحظـاتـ قـبـلـ أنـ أـغـرـزـ سـكـينـيـ فيـ الفـخذـ
الـتيـ طـالـماـ تـمـيـتـهاـ، غـرـزـتـ بلاـ إـرـادـةـ وـحـفـرـتـ، قـشـرتـ، أـشـوـهـ جـلدـهاـ
وـأـذـبـحـ روـحـيـ، صـوـتـ سـلـخـ الـجـلدـ منـ اللـحـمـ لمـ يـكـنـ لـتـصـفـهـ كـلـمـاتـ،
صـرـخـةـ لـبنيـ فـلـتـ عـالـيـةـ رـغـمـ الـخـرـقـةـ الـتـيـ وـضـعـتـهاـ «نيـجـوزـيـ»ـ بـينـ
فـكـيـهاـ، أـمـنـعـ نـفـسـيـ مـنـ النـظـرـ فـيـ وـجـهـهاـ الـذـيـ اـرـسـمـتـ عـلـيـهـ عـلـامـاتـ
الـعـذـابـ، حـفـرـتـ حـولـ الـوـشمـ دـائـرـةـ، أـزـلـتـ طـبـقـاتـ مـنـ الـجـلدـ قـبـلـ أـنـ
تـسـقـطـ الـخـرـقـةـ مـنـ فـمـ الـمـسـكـينـةـ بـعـدـ أـنـ فـقـدـتـ الـوـعـيـ، دـمـهاـ صـبـعـ كـلـ
شـيـءـ حـوـلـنـاـ، كـتـمـتـ اـنـدـفـاعـهـ بـقـمـاشـةـ قـبـلـ أـنـ أـخـلـعـ قـمـصـيـ الـذـيـ اـتـسـخـ
وـأـقـرـبـ مـنـهـ لـأـضـمـهـاـ وـأـدـفـنـ رـأـسـهـ فـيـ صـدـريـ، ظـلـلـتـ أـرـاقـبـ نـبـضـاتـ
قـلـبـهـاـ تـئـنـ فـيـ وـرـيدـ بـرـقـبـتهاـ، أـشـجـعـهـ عـلـىـ الـاـسـتـمـارـ، مـسـاحـتـ الـعـرـقـ
الـغـزـيرـ الـذـيـ اـنـسـابـ عـلـىـ جـبـهـهاـ وـاعـتصـرـتـ كـفـهاـ الرـقـيقـةـ أـقـبـلـ أـنـاـمـلـهاـ
فـيـ اـعـتـذـارـ غـيرـ مـقـبـولـ، ضـمـدـتـ «نيـجـوزـيـ»ـ جـرـحـ فـخذـهاـ وـأـخـلـقـتـ
الـبـابـ عـلـيـنـاـ فـأـطـفـأـتـ بـأـنـامـلـيـ السـمـراءـ الشـمـعـةـ الـوـحـيـدةـ الـتـيـ لـمـ تـنـطـفـعـ
وـانـزـلـقـتـ بـجـانـبـهـاـ تـارـكـاـ زـفـرـهـاـ الدـافـعـ يـكـوـيـ صـدـريـ..

قبل الشروق استيقظت من غفوتي ..

لم تكن لبني بجانبي ! ولا أنا في الغرفة !! كُنت واقفا بجانب المشربية الكبيرة في صحن الدار الخالي والستكون طاغ، «نيجوزي» بين قدمي مسجاة على الأرض، عيناه منقلبتان بياضا، فمها محشور فيه الحجاب الذي وهبته لي حماية، قبضتها مغلقة على خصلة شعر طويلة وعنقها زينة قطع حاد من الأذن للأذن !!

لم أتمالك نفسي، رأودني القيء فرجعت خطوتين أخوض بقدمين عاريتين في دمائها، مادت بي الأرض قبل أن أسمع ضحكة خافتةقادمة من الفناء الخارجي، اقتربت من المشربية أنظر من خلال فتحاتها فرأيت البغل بجانب الحوض واقفا وجبله مُنحل ! نزلت السلم الصغير ووقفت أمسح المكان بحثا، لم تلتقط أذناي سوى وسوسه الرّيح الرطبة في أوراق شجر الليمون وصوت ساق البغل اليسرى تتشنج كل بضع ثوانٍ وتضرب الأرض بحدوثها في فرقعة مكتومة !! اقتربت منه ببطء فلاحظت عينيه المُلتهتين وسمعت شحيجه المكتوم، في البداية لم أتبينها بسبب الظلمة، ثم لمحت شعرها الطويل على الأرض مفروشًا بين أقدامه، استجمعت أنفاسه وانحنى بحرص أنظر أسفل منه فوجدتها جالسة القرفصاء مُميسكة بقضيب البغل المُتشي بيد وفي اليد الأخرى إبرة خياطة طويلة حادة !! رمقتني بابتسامة ملئها السخرية وهي تصهر أعصاب البغل بكفها، الدم يرسم دائرة في ضماده فخذها المقصّرة والوشم إلى الفخذ الأخرى انتقل ! يتلوى ببطء ثعبان يتربص، لم أكدر أستوعب المشهد حين ابتسمت لي قبل أن تغرز الإبرة في قضيب البغل، شحّج الأخير بصوت رهيب ملئه الألم قبل أن يجري باندفاع نحوه !! رفع قائمته الأماميّتين في هيّاج

شديد فانحنىت لا إرادياً مُتفادياً حدوثه والتقطت اللجام، شددت عليه بقبضتي حتى لا ينفلت، الغبار ملأ فمي الذي تلخلخت أسنانه جفافاً والبَغْل بعثفواني يدُك الأرض بقدميه ويطبع بي يمنة ويسرة، آخر مالمحته كانت لبني، تحرك بهدوء ناحية باب الدار، فتحته وخرجت بدون أن تنظر إلى الإبرة الطويلة بين أصابعها، كان ذلك حين تلقيت الرؤسة في فمي فأشرفت الشمس دفعة واحدة..

القرداتي.. السور اللانهائي.. قافلة الجمال.. البوابة.. الضروس المغروسة في شقوقها.. الابتهالات.. يا متولي يا متولي.. اشفع لي وخفف ألمي.. الشمس تحرق عيني والعرق يطفئها قبل أن يحرقها مجدداً بملحها أسراب الذباب تُحاصر وجهي وتلتتصق.. وجهي المختوم بحافر بغل! نحية كبيرة للبَغْل الأزرق والفيل الأزرق والذباب الأزرق..

عطشان..

لساني: خمسة أميال مربعة في الصحراء الغربية شهر يوليه!!
الرجال يُحيطونني في دائرة.. ينظرون لي والأسى في أعينهم ويربتون على أكتافي.. الأطفال حليقو الرءوس يتقدمونا مدارين همساتهم بكفوفهم القدرة والنساء من خلفنا مُتشحات بالسُّواد ينحبن نحيباً كثييراً..

با ورد في الإبريق..

يا قصر عالي ما كملوش تزويق..

حزني عليك يا اللي انطردت بعيد..

سِرَتْ بِيْنَهُمْ بِلَا إِرَادَةٍ.. الْمَسَافَةَ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةَ حَتَّىٰ ضِفَافِ
النَّيلِ.. نَهَرٌ بَكْرٌ بِلَا كُورْنِيشٍ وَلَا سُورٍ وَلَا كَبَارِيٍّ تَعْبُرُ مِنْ فَوْقِهِ.. فَقَطْ
الْمُنْحَدِرُ التَّرَابِيُّ فَالْطَّمِيُّ ثُمَّ الْمَيَاهُ الثَّائِرَةُ.. الْمَشْهَدُ كَانَ مَهْيَّاً.. جَمْعُ
مِنَ الْبَشَرِ يَقْفَوْنَ فِي خُشُوعٍ عَلَىِ الضِفَافِ كَتْمَائِيلُ شَمْعٍ مُسْتَظْلَةٍ
مِنَ الشَّمْسِ بِفَرْوَعَ الشَّجَرِ.. النِّسَاءُ مِنْ خَلْفِ الْبَرَاقِ مُتَكَبِّلَاتٍ
حَوْلَ بَعْضِهِنَّ كَالخَنَافِسِ.. وَصِبَّيَّةٌ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَعْمَارِ يَجْلِسُونَ
كَالْقُرُودِ فَوْقَ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ حَامِلِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قِطْطَانًا وَكِلَابًا
صَغِيرَةً.. مَيْتَةً!

قُرْبَ النَّهَرِ كَانَ هَنَاكَ فَصِيلٌ مُخْتَلِفٌ.. رِجَالٌ ذُووْ هَيَّةٍ يَرْتَدُونَ
سَرَّاويلٍ فَخُمَّةٍ فِي وَسْطِهَا أَحْزَمَةٌ عَرِيشَةٌ تَحْتَضُنْ سِيَوْفًا لَامِعَةً..
يُحِيطُهُمْ عَبِيدٌ أَشْدَاءُ أَنْوَافِهِمْ مَثْقُوبَةٌ بِحَلْقَاتِ نَحَاسِيَّةٍ.. بِجَانِبِهِمْ شَيْوخٌ
مُسْنَنُونَ يَقْفَوْنَ بِخُشُوعٍ فِي قَفَاطِينِ الْأَزْهَرِ الْزَرْقَاءِ..

لَمَّا اقْرَبَتْ زَفَّتِي تَوَقَّفَ نَحِيبُ الْحَرِيمِ.. وَقَفَ مَنْ كَانَ جَالِسًا
وَالْتَّفَتْ مَنْ كَانَ وَاقِفًا.. سَاعَدَنِي الْمُحِيطُونَ فِي نَزْولِ الْمُنْحَدِرِ
الْتَّرَابِيِّ.. أَخْتَرَقَ جُمْعَ بَشَرٍ يَتَأْمَلُونِي كَنْجَمٌ فَوْقَ الْبَسَاطِ الْأَحْمَرِ
نُودِي اسْمَهُ لِيَتَسَلَّمَ جَائِزَةُ أَفْضَلِ سِكِيرٍ.. يُحَمِّلُقُونَ فِي وَجْهِي بِمَشَايِرٍ
اَخْتَلَطَ فِيهَا الْفُضُولُ بِالشَّفَقَةِ..

حِينَ انْغَرَزْتُ قَدْمَايِ فِي الطَّمِيِّ اَنْحَنَى عَلَيَّ رَجُلٌ وَالتَّقْطُ بُلْغَتِيِّ..
أَسْنَدَنِي آخِرَ وَدَسَّ ثَالِثَ مُصْحَفًا فِي يَدِي وَرَبَّتْ عَلَىِ كَتْفِي تَشْجِيعًا
قَبْلَ أَنْ أَصْلِ لِعَجُوزَ مَهِيبَ الْطَّلْعَةِ يَرْتَدِي عَمَامَةً عَظِيمَةً فَوْقَ رَأْسِي
سَمِينٌ وَلُعْدٌ مُتَفَخِّخٌ مُتَهَدِّلٌ.. يَحْمِلُ بَيْنَ يَدِيهِ وَرَقًا أَصْفَرَ مَلْفُوفًا وَعَصَاهَةً
فِيهَا شَعَارٌ لَمْ أَتَيْنَاهُ.. نَظَرَتْ لِلنَّهَرِ فَلَمَحَتْ الْمَرْكَبُ الْخَشَبِيَّةُ الصَّغِيرَةُ

تهاي فوْقَ مَوْجَهِه .. مُرْبُوْطَة بِحَبْلٍ إِلَى صَخْرَة .. تَحْمِيلٌ عَلَى ظَهْرِهَا
أَنْشَى مُغَطَّاهَا الرَّأْسَ تَجْلِسُ عَلَى رُكْبَتِيهَا مُكْبَلَةَ الْيَدَيْنَ حَافِيَةَ الْقَدَمَيْن ..
بِجَانِبِهَا عَبْدٌ مُلْثِمٌ عَارِيُّ الصَّدْرِ .. أَدْهَشَنِي الْمَنْظَرُ قَبْلَ أَنْ يَنْتَزِعَنِي
الْعَجُوزُ السَّمَمِينُ مِنْ شُرُودِيِّ حِينَ صَاحَ بِصَوْتٍ عَالٍ :

- كُلُّ حُرْمَةٍ فِي حِجْرِهَا عَيْلٌ تَرْوَحُ .. وَالرِّجَالُ يَمْتَنِعُوا
عَنِ الْكَلَامِ ..

قَالَهَا فَسَادٌ صَمَتْ بِلِيقٍ قَبْلَ أَنْ تَبْتَدِعَ النِّسَاءُ الْحَاضِنَاتُ لِمَسَافَةٍ
تَسْمِحُ بِالْمَتَابِعَةِ مِنْ بَعْدِ فَفْتَحِ الرَّجُلِ أَوْرَاقَهُ وَيَدُؤُ يَقْرَأُ مَا فِيهَا :

- بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُضَارُ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ .. بِسْمِ وَلِي النِّعَمِ عَزِيزِ مِصْرِ وَالْسُّودَانِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ
مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ بَاشَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا جَدَّدَ لَنَا مِنَ النِّعَمَةِ التَّامَّةِ، وَسَمِحَ
بِهِ مِنَ الْكِرَامَةِ الْعَامَّةِ، فَاسْتَأْتَسَتِ النُّفُوسُ إِلَى اسْتِمْرَارِ عَوَانِدِهَا، إِذَا
كَانَتْ غَلْطَةً مِنَ الدَّهْرِ فَاسْتَدْرَكَهَا، وَإِنْ كَانَتْ سَقْطَةً بَدَأَتْ عَنْهُ فَمَا
تَرَكَهَا، فَقَرَرَتْ بِذَلِكِ الْعَيْنَوْنُ، وَتَحَقَّقَتْ فِي بَلوَغِ الْأَمَالِ الظَّنُونُ وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ، وَيَعْدُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَتَأْوِلُ إِلَّا تَبِعُ
لَعَلَّكُمْ تَشْقُونَ ﴾ .. فَلَيَعْلَمَ الْجَمْعُ أَنَّا اجْتَمَعْنَا الْيَوْمَ لِتَوْقِيعِ الْقِصَاصِ
عَلَى ظَالِمَةِ لِنَفْسِهَا وَمُفْسِدَةِ الْحَيَاةِ بِاعْتِرْفَتْ رُوحُهَا وَجَسْدُهَا لِلشَّيْطَانِ ..
فَتَلَتْ مِنْذِ إِحْدَى وَعَشْرِينَ لَيْلَةً ثَلَاثَ ضَحَّاً يَأْبِرِيَاءَ أَسْمَاؤُهُمْ :

سَيِّدِ رِضا عِبَادَهُ «خِيَاط»، نَجِيَّةِ مِيكَالِ «خَادِمَةِ حَبْشِيَّة»، وَجَنِينِ
عَجِيبِ الْخِلْقَةِ كَانَ فِي رَحْمَهَا ..

عَلَى الصُّرَاخِ وَالنَّوَاحِ بَيْنَ أَهَالِيِّ الضَّحَّاِيَا وَارْتَفَعَتِ الْهَمَمَاتُ فِي
الْمَحِيطَيْنِ فَجَحَضَتْ عَيْنَا الرَّجُلِ غَضِيبًا وَصَرَخَ :

- الصمت ولا تُستبعدوا..

انكتمت الأفواه واندفعت أسر الضحايا أحياً فساد الصمت ليكمل
الرجل:

- تم توقيفها بجانب سبيل السيدة نفيسة البيضا معدومة الحياة كما
ولدتتها أمها، وتم حبسها في ثمن الجمالية، وبمعرفة زوجها أقرّ بأنها
مُذنبة وحملت في أحشائها سفاح الشيطان، وبتعذيبها اعترفت بذنبها
فَصَدَرَ الْحُكْمُ بالقصاص منها خنقاً ثم تغريقاً في مياه النيل بمفاوضة
مختومة من ناظِرِ ديوان ضبط الأمان، والله غافر.. والسلام..

مع الكلمات الأخيرة لوح الرجل بعَصَاته التي ميّزت فيها هلالاً
يَحتضن ثلاثة نُجوم، أشار بها للعبد الواقف في المركب فانحنى
ليمْزُقَ ملابس السَّاجِدة بين قدميه، عرّى ظهرها لظهور ضربات
سياط حَفَرَتْ جلدتها بخُطوطِ سُكك حَدِيدٍ مُتداخِلة، تحرّكت بوهَن
فأدَار وجهها للجموع ولم تكن سوى لُبْنِي! العَينان أغلقتا بورم
بنفسجيّ كبير والشفاه التي قبلتها من عشر سنين تمزقت، لَمَّا نويت
الصراخ وَجَدَتْ أَعْصَابِي قد انفصلت عنَّة عن جَسدي، عَقْلي
قبطان يَأْمُرُ وَجْسِي بخار مُثْمَرَد يأْبِي المَخْضُوع، مَحْبُوسُ أنا فيه
كسجين عَروَسَة تعذيب حَدِيدِيَّة من القرون الوسطى، أشاهِدُ الدُّنيَا
من فتحتني ضيقتيْن تعميمهما الشَّمْسُ، صَرَخْتُ ولم يسمعني أحد
حين فَلَّ العَبد حَبْلَ المركب وَبَدأ يَبعُدُ عنِ الضفة، مَسافة كافية
عن الناس الذين اقتربوا وَبَلَّتْ المِيَاهُ جلاَبيْهِمْ، عَيْناها تبحثان عنِي
بهستيرياً بين الوجوه ولا أقوى على رفع يَدِي ملوحاً لها، ضربت
قضبان زنزانتي بهستيرياً مُحاولاً فتحها حين توقفت المركب على

مَسَافَةِ عَشْرِينَ مِتْرًا، تَكَسَّرَتْ عِظَامُ ذِرَاعِيَّ الْأَلْفَ قِطْعَةَ قَبْلَ أَنْ يَنْحُنِي
 الْعَبْدُ عَلَى جَسَدِ لَبْنِي الرَاكِعِ وَيُنْهَضُهَا، اسْتَقَامَتْ بِوَهْنٍ وَيَأسٍ تَرْتَحُ
 بَيْنَ يَدَيْهِ الْجَبَارَتَيْنِ، الْمِسْكِينَةِ لَدِيهَا طِفْلَةٌ يَا لَعِينَ!! صَرَخَتْ، لَمْ
 تَخْرُجِ الْكَلْمَاتِ مِنْ فَمِي! أَعْيُنُ الْجُمُوعَ تَلْهُجُ بِالانتِقامِ وَالْأَطْفَالُ
 جَاهَظُونَ فِي جَمْعٍ يُسْجَلُونَ حَدَسًا لَنْ يَنْسُوهُ! لَفْظَتْ حَنْجَرَتِي
 مِنْ طُولِ صَرَخَةِ يَشْ أَطْلَقْتُهَا حِينَ لَفَّ الْعَبْدُ جَلْدَهُ دَاكِنَةَ حَوْلَ رَقْبَةِ
 لَبْنِي، وَبَدَأَ يَعْتَصِرُ، جَاهَظَتْ عَيْنَاهَا وَاحْتَقَنَ وَجْهَهَا فِي اللَّهُظَةِ التِّي
 مِيزَتْنِي فِيهَا مِنْ بَيْنِ الْوَاقِفِينَ، فَتَحَتَّ فَمَهَا تَسْتَجِدِي هَوَاءً وَتَنَادِيَنِي
 بِلَا صَوْتٍ، يَدَاها الْمَرْبُوطَتَانِ تَسْحرُ كَانَ فِي صَحْبِ وَالْأَبْلَلِ غَلِيلَظِ
 يَحْسِسُهَا، اللَّعْنَةُ!! الْعَجْزُ وَالْقَهْرُ اغْتَصَبَنِي فَرَكَلَتْ حَوَاطِطُ زَنْزَانِتِي
 حَتَّى أَدْمِيَتْ قَدْمِي وَسَقَطَتْ عَلَى رَكْبَتِي فِي اللَّهُظَةِ التِّي سَقَطَتْ فِيهَا
 لَبْنِي بَيْنَ يَدَيِّ الْعَبْدِ، تَشَنَّجَتْ حَرْكَتَهَا مَرْتَيْنَ وَانْقَبَضَتْ عَضْلَاتُهَا قَبْلَ
 أَنْ تَنْقُلَبْ حَدَقَاتُهَا ثُمَّ تَخْمَدَ بَيْنَ أَصْابِعِهِ!

انقضت لحظات قبل أن يحل الجلد من حول رقبتها ويَضُع كفه
 أمام أنفها ليطمئن على إتقان عمله، ثوانٍ لم يشعر فيها بحرارة أنفاسها
 التي أقدسها فتركها لتسقط بين قدميه!

عَلَتِ الزَّغَارِيدُ وَهَتَافَ الرِّجَالُ وَرَمَى الصَّبِيَّةَ بِالْقِطْطَطِ وَالْكَلَابِ
 الْمِيَّتَةِ فِي الْمَيَاهِ حِينَ صَرَخَ رَجُلُ دِينِ: «اَنْظُرُوا عَاقِبَةَ الْمُفْسِدِينَ...»،
 وَصَاحَ آخَرُ: «إِلَى جَهَنَّمَ وَيُشَسِّ المَصِيرِ»، كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْحُنِي
 الْعَبْدُ لِيُرِيَطِ سَاقِيَّ ضَحْيَتِهِ فِي حَجَرٍ وَيَحْمِلُهَا بَيْنَ ذِرَاعِيهِ بَعْدَ أَنْ
 وَضَعَهُ فِي حَجْرَهَا، نَاظَرَ الْلَّنَاطِقَ بِالْحُكْمِ الَّذِي أَشَازَ يَابِهَامَهُ إِلَى
 أَسْفَلَ فَهَا جَمْعٌ تَشْفِيًّا وَتَعَالَى عَوْيِلُ النَّسَاءِ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا
 الْعَبْدُ فِي النَّهَرِ!

غرقت لبني!

سَجَبَهَا الْحَجَرُ لِلْقَاعِ، شَعْرُهَا الطَّوِيلُ صَنَعَ دَوَامَةً صَغِيرَةً مَا لَبَثَتْ
أَنْ تَلَاثَتْ لِي عُودَ الْمَوْجُ لِاضْطِرَابِهِ! غَاصَتْ حَتَّى عَانِقَتْ طَمَعَ الْقَاعِ
فِي الْلَّهَظَةِ الَّتِي ارْتَطَمَ فِيهَا جَسْدِي بِأَرْضِ الزَّنْزَانَةِ وَحَلَّ السُّكُونُ!
أَمْتَلَّتْ رَئَتِي بِالْمَيَاهِ وَغَمَرَنِي الطَّمَعُ، وَلَمْ أَقَوْمُ، أَخِيرًا، فَقَدَتْ
الرَّغْبَةُ فِي الْحَيَاةِ، لَمْ أَكُنْ أَعْرَفْ أَنَّ الْمَوْتَ قَدْ يَكُونُ بِنَلْكِ السَّهُولَةِ!
لَمْ أَكُنْ أَعْرَفْ أَنِّي أَفْتَقِدُ ابْتِي بِذَلِكِ الشَّكْلِ!! وَلَمْ أَتَخَيلْ يَوْمًا أَنِّي
قَدْ أَنْسَى وَجْهَ زَوْجِي!! نَرَمِينَ..

اَحْتَجَتْ ثَانِيَتِينَ لِأَسْتَوِعَ مَلَامِحَهَا! كَانَتْ جَالِسَةً بِجَانِبِي
تَحْتَضِنْ نُورَ، تَنْظَرُ لِي بِشَفَقَةٍ تَحْوَلَتْ تَدْرِيجِيًّا لِابْتِسَامَةٍ حَانِيَةٍ
شَجَعَتِنِي أَنْ أَلَامِسْ كَفَّ ابْتِي، يَا أَللَّهِ!! لَا أَصْدِقُ أَنِّي أَحْتَضِنْ
إِنْكَ الأَنَاءِلِ الصَّغِيرَةَ!! اَبْتَسَمَتْ كَلْبِي الصَّغِيرَةَ بِأَسْنَانِهَا اللَّؤْلَؤِيَّةِ
وَنُغْزَتِينَ، الدُّنْيَا مَقَارِنَةً بِهِمَا حِذَاءَ بَالِ غَيْرِ مَأْسَوفٍ عَلَى ضِيَاعِهِ،
جُفُونِي تَسْبِيَ الزَّمْنُ، تَحْجِزُهُ خَشِيَّةً أَنْ يُمْرُّ، تَأْبَى حَتَّى أَنْ تَرِمَشَ
فَأَخْسِرَ لَحْظَةً بِجَانِبِهِنَّ، لَمَحْتُ شَفْتِيَ زَوْجِي تَتَمَمَ بِكَلْمَةٍ تَرَدَّدَ
صَدَاهَا فِي عَقْلِي:

- اهدا يا يحيى.. اهدا..

قَالَتْهَا وَابْتَسَمَتْ فَهَزَزَتْ رَأْسِي غَيْرُ مُصَدِّقٍ رَحْمَةً لِمَ أَظْنَهَا
آتِيَةً، تَزَادِيَ الْأَلَمُ فِي صَدْرِي وَلَمْ أَبَالِ، أَبْطَأْتْ نَبَضَاتِ قَلْبِي حَتَّى
بَدَأْتَ مَلَامِحَهُنَّ فِي التَّلَاشِي تَدْرِيجِيًّا قَبْلَ أَنْ تُظْلِمَ عَيْنَايِ، فَالْعَيْنُ
تَمَوْتَ قَبْلَ الْأَذْنِ دَائِمًا، وَآخِرُ مَا سَمِعْتُهُ كَانَ نَحِيَّا مُخْتَلِطًا بِهِدِيرَ
مَيَاهِ النَّهَرِ:

بَا وَرْدٍ فِي الْفَنْجَانِ ..

بَا قَصْرٍ عَالِيٍّ مَا كَمْلُوشُ بُنْيَانِ ..

وَالْمَوْتُ صَحِيحٌ ..

بَسْ الْفُرَاقُ صَعِيبٌ ..

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

درجة الحرارة، ١٠٢ C° ..

حين فتحت عيني تلك المرة لم أر قرداً تي ولا بوابة، لم أر أطفالاً ولا شحاذين، لم أسمع ابتهالات ولا تباعني كلب أسود..

ملقى على جنبي مكتوف اليدين خلف ظهري على أرض حجرية صلبة في حجرة عرضها متر وارتفاعها متر وطولها متر ونصف! الرطوبة تُحاصرني بسادية، والظلام ليل قاسي لا يشقه سوى نصل ضوء تسلل من فتحة في باب حديدي ليضرب الأرض في نقطة ساطعة، الألم في ظهري سيف غرز بجانب عمودي الفقري والتنميل خلدر الأطراف، العرق ينهمر من كل خلايا جسدي ليتهي في عيني حرقاً وانتقاماً، والعطش مُخْثٍ كافر من نسل زنى محارم، مزق شفتي وانتهك حُرمة لسانني!

تطلب الأمر مني لحظات لأستوعب القبر الذي دُفنت فيه، أتنفس أنفاسي المستهلكة وأحاول الاعتدال فلا أستطيع، يبدو أن الفيل قد جلس فوقي، سحّقني وتبرّز عليّ، ثم دفنتي على عمق لن تجده البعثات الأثيرة! انتابتني رعشة لما شعرت بحشرات تحرك من تحتي، وصرصار لامست شواربِه أذني، انتفضت وتحاملت ثم ضربت الباب بقدمي، صوت الحديد جاء مكتوماً وألمني كعبي، ضربت مرة أخرى

ومَرَاتٍ حَتَّى صَرَخْتُ، صَرَخْتُ كَمَا لَمْ أَصْرُخْ مِنْ قَبْلُ، صَرَخْتُ حَتَّى
ضَاعَ صَوْتِي، وَهَنْتَ وَدَبَّ الْبَأْسَ فِي أَوْصَالِي قَبْلَ أَنْ أَلْتَقْطَ بِأَذْنِي
وَقَعَ خُطُواتٌ تَقْرَبُ، تَمْشِي بِصَخْبٍ عَلَى رَمَالٍ، صَوْتٌ مَفْتَاحٌ يُولَجُ
فِي الْبَابِ، ضَوءٌ شَمْسٌ طَاغٌ شَوَّى حَدْقَتِي فَأَغْمَضْتُ قَسْرًا، ثُمَّ يَدَا
غَلِيظَةً التَّقْطُطَ السَّلْسَلَةُ الْغَلِيظَةُ الْمَرْبُوطَةُ فِيهَا رَقْبَتِي، جَذَبْتُنِي بِعُنْفٍ
تَحْتَ شَمْسٍ لَا مِلَةَ لَهَا، اسْتَقَرَّ وَجْهِي فَوقَ رَمَالٍ مُلْتَهِبٍ، شَهَقْتُ نَفْسًا
عَمِيقًا ابْتَلَعَتْ مَعَهُ الرَّمَالُ قَبْلَ أَنْ تُقْلِبَنِي الْيَدُ الْغَلِيظَةُ كَسْمَكَةً فِي
الزَّيْتِ، ظَاهِرِي فَوْقَ ذِرَاعِي جَاثِمٌ بِثَقْلِهِ يَمْنَعُنِي مِنَ الْحَرْكَةِ وَعَيْنَايِي
فِي مُوَاجِهَةِ الشَّمْسِ، فَتَحَتَّهَا بِصُعُوبَةٍ فَسَالَتْ مِنْهَا دُمْوعٌ وَزَيْدٌ أَبْيَضٌ
وَصَدِيدَدٌ، لِحَظَاتٍ وَيَدَاتٍ أَمْيَزَ مَعَالِمَ رَجُلٍ عَمْلَاقٍ يَقْفَ فَوْقِي، يَرْتَدِي
سِرَوَالًا بَنِيًّا يَصْلِ لِرَكْبَتِيهِ، قَابِضًا بِكَفَّهِ عَلَى عَصَاهَةٍ غَلِيظَةٍ وَيُحِيطُ
بِرَأْسِهِ قَفْصَ حَدِيدِي صَدِيٌّ !!

رأيت صورهم من قبل في كُتب تاريخ الطب، كانوا يحتمون بالآفاس كخوذ تقيهم بطش المجانين.. أمثالى..

أنا في مستشفى !

مستشفى أمراض عقلية! في وقت ما!

- ليه بتدب على الباب؟ سألني..

أنا فين؟

۷۰ مارستان قلاوون..

– قلاوون!! مية.. عطشان..

السؤاله ما جاиш ..

- الحَمَام.. دُورَةُ الْمِيَة!

قَبَضَ عَلَى السَّلْسَلَةِ الْمُتَدَلِّيَةِ مِنْ عُنْقِيْ وَأَنْهَضَنِيْ، سَحَبَنِيْ
كَالْخَرْوَفِ وَقَدْمَاهِيْ تَجْرِيْ جَرَانَ خَلْفِيْ مُجَاهِدًا لِلْمَلاَحِقَتِهِ، قَطَعْنَا عَرْضَ
الْفِنَاءِ فِي سَبْعَةِ أَشْهَرٍ! وَصَلَنَا لِبَابَ تَسْرِيْتٍ مِنْ تَحْتِهِ رَائِحَةً خَطَايَا
الْبَشَرِ، قَرَعَ الْبَابَ بِيَدِهِ الْجَبَارَةِ فَخَرْجٌ نَزِيلٌ يَرْتَجِفُ، أَعْطَى ظَهَرَهُ
لِلْحَارِسِ فَكَبِيلَ أَكْمَامِهِ الطَّوِيلَةِ خَلْفَ ظَهَرِهِ ثُمَّ أَطْلَقَهُ فِي الْفِنَاءِ قَبْلَ
أَنْ يُدِيرَنِيْ لِيَفْكَ أَكْمَامِيْ، حَرَرَ ذَرَاعِيْ وَلَمْ أَشْعُرُ بِالْبِسْرِيْ، كَانَتْ فِيْ
أَفْوَاهِ قَبِيلَةِ مِنِ النَّمْلِ تَنْهَشَهُ، دَخَلْتُ مُقْلِصًا أَنْفِيْ مَانِعًا رَائِحَةَ الْجَحِيمِ
مِنْ اقْتِحَامِهَا، الْذَّبَابُ الْهَائِمُ جَعَلَنِيْ أَتَسْأَعِلُ لِمَ اصْطَحَبَهُ «نُوح» فِيْ
سَفِيَّتِهِ؟! بِصَعْوَدَةِ حَاوَلْتُ نَزْعَ الْقَمِيصِ مِنْ حَوْلِ جَسْدِيْ، لَمَّا انْزَلْتُ
مِنْ فَوْقِ كَتْفَنِيْ نَظَرَتْ لِلَّوْنِيْ، السُّمْرَةُ كَانَتْ طَاغِيَةً!

لَا زَلْتُ مَسْجُونًا فِي جَسْدِ الْمَأْمُونِ!! جَسْدِ الْمَلْعُونِ..

رَفَعْتُ ذَرَاعِيْ الْبِسْرِيْ وَلَمْ تَسْتَجِبْ، نَظَرَتْ إِلَيْهَا فَلَمْ أَجِدَهَا!!
الْعَصْدُ كَانَ مَبْتُورًا مِنْ قَبْلِ الْكُوعِ، فِيهِ اخْتَلَطَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ! تَحْسَسَتِهِ
بِأَنَّا مُمْرُّعَةٌ قَبْلَ أَنْ تَسْحَبَ رُوحِيْ إِلَى قَدْمِيْ وَتَزْرَقَ الْجَدْرَانِ مِنْ
حَوْلِيْ، سَحَبَتْ نَفْسًا عَطَنَا فَتَحَفَّزَ الْقَيْءُ، أَفْرَغْتُ عَلَى الْأَرْضِ صَفَارًا
وَسَوَادًا وَدَوْدًا يَتَلَوَّى! أَقْرَغْتُ الْبَابَ الْخَشْبِيَّ بِمَا تَبَقَّى لِي مِنْ قُوَّةٍ فَفَتَحَ
الْحَارِسُ، ارْتَمَيْتُ تَحْتَ قَدَمِهِ عَاجِزًا عَنِ النُّطُقِ، قَلْبِيْ يَنْقِبَضُ فِيْ
سُرْعَةٍ مُعْتَصِرًا حُجَرَاتِهِ، خَلْقِيْ يَتَشَقَّقُ مُبْعِثِرًا التُّرَابَ وَكَتْفِيْ الْبِسْرِيْ
يَخْتَرِقُهَا بِبُطْءٍ، خَنْجَرٌ مَسْنُونٌ!

أَنَا أَعْانِيْ أَزْمَةَ قَلْبِيَّةً!!

أَهْتَرَّ..

أشنج ..

أبعثر ..

أبوللو أ هل تسمعني؟

أبوللو أ أحب ..

هناك رائحة دخان ..

النار اشتعلت في الكابينة ..

أكرر: هناك حريق في الكابينة .. هناك حريق في الكابينة ..

اللعنة .. نحن نحترق .. نحترق ..

تشوّشت الأصوات في رأسي وارتّجت الدُّنيا قبل أن تنطفئ
الشّمس وتَخمد أنفاسي بعثة ..

لحظات وَهَوت القبضة على صدري ..

فوق قلبي مُباشرة ..

تبعتها ضربة أخرى .. ثم ضربة إضافية رأيت بعدها السّقف ..

سقف غرفتي !!

لُبْنِي كانت جاثية على ركبتيها تَحتضن رَأسي بكفيها في فَرع،
نادتني مرتين فأتى صوتها من مسافة كيلومتر، فَتَحَتَ فمِي لأنكلم
فسَعَلت شهقاً قبل أن تُساعدني على الجلوس وتناولني زجاجة ماء
باردة، بوهـن تجرّعت الزجاجة كلها وأغرقت شفتي ثم رأسي، لكن
الماء بالنسبة لي كالماء للزهور الصناعية، غير مقنع ومتذل!

- أنت كويسة؟

- ... أنا اللي كويسة؟

- فيه إزازة بيرة في التلاجة.. عطشان..

رمقني باستغراب قبل أن تعود بالزجاجة المُثلّجة، رفعتها وتركت
الشغف يتولّي رأب الصدوع في حلقي وشفتي، اتّخذت لحظات
للتقط أنفاسي قبل أن أنتفض لا إرادياً وأتحسّن ذراعي، كانت في
مكانها تحت كتفي، نظرت لساعة رُسغي فوجدت العقرب الكبير
قد تمشّى قُطر الساعة!!

- أنا بقى لي قد ليه!!

- بقى لك ساعة..

- مش ممكّن!

- هو ده اللي حصل..

- أنت ما روحتش؟

- ما قدرتش.. فضلت بره.. مسكت نفسي بالعاافية ساعة وبعدين
سمّعت هيدة.. فتحت الباب.. لقيتك على الأرض..

- أنا مش قلت لك مهمّا حصل...

فاطعنتي:

- ما قدرتش..

تحاملت لأقوم وساعدنـي.. انتصبت أمام المرأة أتأمل وجهـي
والمـيـص الذي تخـضـب نصفـه السـفلـي بلـون أحـمر باـهـتـ!

- ساعدني ..

رفعت القميص المُهترئ من فوق كتفي وتشممت البقعة الشاحبة
ولم أجد لها رائحة!!

- أنت اتعورت؟

- مش عارف! مش حاسس بحاجة..

دارت حولي تتأمل جسدي ثم أردفت..

- ما فيش جرح!! إيه اللي حصل؟

- مش هاتصدقني..

التقطتُ الكاميرا من فوق التسريحة وضغطتُ زر الإعادة ثم
جلستُ على السرير وجلست بجانبي، في الفيديو مشيت حتى المرأة
بيطء قبل أن أقف، بلا حركة، لساعة كاملة!! مفتوح العينين متهدلة
الفم أحدق في فراغ المرأة، لقطة فوتografية ثابتة! فقط أنفاسي
البطيئة تهز صدرني، في الدقيقة السابعة فتح الهواء الشبّاك وطارت
بعض أوراق الشجر إلى الداخل، التفت للشبّاك فوجده مغلقا وإن
كانت هناك أوراق شجر على الأرض! ثوانٍ ودخل صرصار عظيم!
زحف على زجاج الشبّاك صاعدا ثم قرداً أجنحته العجاف وطار في
الغرفة دورتين ليستقر فوق عدسة الكاميرا، تمشي فوق زجاجها
ومسح رجليه المشعرتين ببعضهما قبل أن يطير ليقف على كتفي،
اقشعر بدني لما زحف على رقبتي وداعب شحمة ذنبي بشواربه
الطويلة، استقر لحظات ثم تسلل إلى كرم القميص واحتفي بداخله،
لحظات من التيس مرت بي قبل أن يداعب الهواء الشبّاك فيغلقه
حين سقطت في الدقيقة الأخيرة على الأرض كالمكواة!

ثوانٍ ودخلت لبني في الكادر ..

قمت تفرّزاً أتفحّص القميص ثم ملابسي بحثاً عن النبي ذي الأرجل المشعرة ولم أجده، الأفكار مُحتشدة مُزدحمة في رأسي أذهب وآتي بينها كطفل تائه، هرّعت لحوض سمكي العزيز ولبني ورائي فاقدة النطق، أبحث عن قصاصات كتاب «الجبرتي» المُهترئة التي وجدتها وراء المكتبة في شقة شريف، فككت بعض الكلمات بصعوبة:

«وفي خامس عشرينه قبضوا على امرأة سرقت أمتعة من الحمام وشنقوها عند باب زويلة، وانقضت هذه السنة وما تجدد بها منحوادث التي من جملتها أن شريف أفندي الدفتردار ...».

قفزت السطور ومشهد المرأة المشنوقة في البوابة بلسانها المتداли وعينيها السائلتين لا يفارقني ..

- يحيى فهمي حاجة ..

- لحظة واحدة يابني ..

رجعت بعيني صفحات حتى صفعني سطر تحته خط:

«في الأربعاء سابعه نفذ الخنق في امرأة بحضور زوجها ويدعى المأمون مع من حضر، وهو الذي أرشد عنها، وكانت قد دَبَّحت خادمتها وخياطاً وجَنِيناً في أحشائها يُشبه خلقة الكلب مثل وجهه وأذنيه وله نَابان خارجان من فمه، أخرجته بابرة طويلة ومزقته، وكان حاضراً الحكم «كتخداً مستحفظان» ومشايخ الأزهر، فخُنقت في ذلك اليوم وأُلقيت في النهر على مرأى من أهالي المقتولين، وبعد أيام قطع زوجها ذراعه نَدَمَا على وشایته بها، فأودع مارستان قلاوون ..».

- يحيى! أنت حلمت بيأيه؟

- ده مش حِلم.. مَا عنديش تفسير للّي شفته.. المَوضِعُ أكْبَرُ مَا كُنْتُ أتصوّرُ..

- يعني إيه؟

- شريف مَمْسُوسٌ يا لبني.. مَمْسُوسٌ بحاجة كبيرة أوي..
اتسعت عيناهَا ذهولاً وذار الرُّعب في محجريها، أنفاسها تهتزّت
فوضعت أناملها على شفتيها في توثر لم يخلُ من نظرة شلّ في
قدراتي العقلية..

- إيه الكلام ده يا يحيى؟!

- الساعة دي ما كانتش ساعة.. أنا شفت كثير.. شفت حياة كاملة.

- وإيش عَرَفْك إن اللي شفته أيّاً كان مش هلوسة؟ القرص اللي
أنت أخذته ده...

- القرص ده فتح لي منطقة محظورة مش ممكن كنت أوصل
لها.. بربخ حقيقي بين عالمين.. القميص والّي قرّيته في الورق
باتّاع العبرني اللي لقيناه ورا المكتبة.. كل حاجة بالتفصيل.. أنا مش
عيان.. مش عيان.. أنا بدأت أفهم اللي حصل..

- أنت مقتنع بمواضيع المس دي؟

- عمرى ما كنت مقتنع.. مش ضدّها.. بس مش مقتنع.. لغاية
ما شفت بنفسي.. أنا عاوز أشرب قهوة عشان أفوّق.. تعالى نخرج
من هنا.. هافهمك كُل حاجة في السكة..

ظللت مغروسة في مكانها فمدّت يدي إليها، رمقتني بحيرة
مشوهة بتواتر قبل أن تَضُع أصابعها المرتعشة في يدي، خرجنا إلى
سيارتها فتوقفت:

- أنا مش قادرة.. أعصا بي مش مستحملة.. مُمكِن تسوق أنت؟

توقفت الريح وسكن حفيظ الشجر ليتصنت علينا:

- أنا ما بسوقش من ساعة الـ...

- عشان خاطري..

نظرت لها مليئاً وتذكّرت كلمة زوجتي:

- اهدا يا يحيى.. اهدا..

نظرت للمفتاح المُتدلي من يدها للحظات قبل أن أنسحبه من
بين أصابعها، جلست خلف المقود وجلست بجانبي، بتردد دست
المفتاح وأدرته، بدوت طفلاً يتعلّم المشي لأول مرة، اهدا يا يحيى!
رددتها في نفسي، قبل أن أتحرّك..

...«Double Hammerhead Espresso»

لم يكن لمشروب على مستوى المَقاَهي أن يحتوي كل تلك النسبة من الكافيين، مشروب كَافِ ليوقظ بلدة مزدحمة ليومين كاملين، قادر على إيقاظي ساعة! احتسيته وأنا أتأمل أوراق الجَبْرُونِي التي دسستها في جيبي قبل أن أغادر الشقة، لُبْنِي كانت شاحبة اللون تدخّن بشراهة بعدها حكّيت لها ما لم تُرِدْ أن تسمعه..

- أنا مش قادرة أستوعِب اللي بتقوله..

- ولا أنا!!

- أنت تصدق إن تاتو مُمكِن يعمل كل المصائب دي؟

- ده مش تاتو، اللي كان على جلد مرات أخوكي كان طَلَسْم، نَدَه الشيطان احتل جِسمِ شَرِيف عَشان يوصله للّي عليها الطَّلَسْم.

- تقصد ينام معاهَا؟

- من خِلال جوزها.. ده يفسّر اللَّخْبَطَةَ اللي حصلت لشَرِيف وبَسْمَة.. حَظَّها الوسخ إن حدَّرَسَم لها طَلَسْم والطلَسْم جَاب...

- أَعُوذ بالله من الشَّيْطَان الرَّجِيم !!

- الكائن ده نام معها، عشقها، بسمة بقت حاصل منه وشريف
ما بقاش مظبوط..

- يعني شريف قتل بسمة من غير وعي؟

- أو بالاتفاق..

- يعني إيه؟!

- شريف جواه شيء.. شيء حابسه ويتحكم فيه.. بيقاومه زي
ما كنت بقاوم الشخص اللي اتحبسن جواه ساعة.. بيقاومه وماحدش
سامعه.. أكنت محبوسة في زنزانة فيها شباك وما لهاش باب.. يشوفنا
لكن مانعه يكلمنا.. ويعذبه لو حكى حاجة.. مش شريف اللي
بيتحرّك يا لبني.. حد تاني.. شيطان بيغيه أيام ويفرق فيلافي كل
شيء بيتغير..

- أكنته بيروح في غيبة!

- بالضبط.. وفي يوم وليلة يلاقى مراته حاصل.. وهو عارف
إنه مش بيخلف! حاصل من كيان وسخ.. وهاتوليد شيء أو سخ..
مشو.. لغاية ما تيجي لحظة يعرف إن مراته رايحة رايحة منه.. متخلية
يعمل إيه؟!

دفنت السيجارة في المطفأة..

- مش قادرة أستوعب الكلام ده!!

- عارف إن الموضوع غريب.. بس دي حقيقة.. أقسم لك إني
شفت حادثة الغرق في الساعة.. زي ما هي مكتوبة..

- مش يمكن تكون قريتها قبل كده و...؟

- أنا ما قريتش حاجة..

- أنت كنت شارب!

- لبني أنا طول عمرِي باشرب.. المفاجأة إنني ما باسكرش.. اللي شفته حق.. والضربة اللي في وشي من البغل دي حق.. خلينا نفكّر في أخوكي..

وقع كلاماتي عليها كان أقوى من أن تحتمله، تأمتلت بصمة البغل على وجهي ثم أغمضت عينيها المُحتقنة وتركت كتفيها ترتعشان في استسلام، مددت إبهامي يلامس إيهامها، احتضنه وتعلق به كحلقة في سلسلة ركبة.. سلسلة تكسرها نغمة محمول!

رَفَرت في ملل لمَارات الشاشة وسحبَت أناملها لتضع المَحمول على أذنها..

- أيوة يا خالد وصلت؟ أنا مع إنجي.. لأنّي كافيه.. ليه بس! قول لها هاجيب لها هدية وأنا جاية بس خلّي رحمة تحميها.. أكلها في التلاجة تسخّنه.. خلاص بلاش فاصولييا.. خلّيها تحرّر لها ناجتس وبطاطس.. وبلاش كاتشاب.. أوكي.. باي..

أنهت المكالمة فشغلت نفسها بنبش مُحتويات حقيتها دون أن تنظر في عيني..

- مضطّرة أقوم..

- أنا زعلتِك؟

- خالص ..

- مش عاوز أسيبك وأنتِ في الحالة دي.. لُبني !!

أغمضت عينيها فناديتها، نظرت في عينيّ وهَمَست:

- هابقى كويسة.. ما تخافش..

- ما كنتش أحب ترتبط مقابلتي معاكي بعد السنين دي بحاجة
توجعك ..

- اسكت.. أنت أحسن حاجة حصلت في السنين اللي فاتت
كلّها.. بس إيه الفايدة؟!

قدماها لم تكفا عن الاهتزاز كإبريق يغلي قبل أن ينفجر..

- أنت الوحيد اللي من دون الناس كلّها بيفهمني.. ليه؟ ليه مش
أي حد غيرك؟!

- فاكرة لما كنت باقول لك إني الوحيد اللي معايا كتالوجك؟

- فاكرة.. أنا تعبت.. ساعات بارجس إني مش عاوزة أصحى..
ومش عاوزة أنام.. كفاية علياً كده.

سكتت للحظات محاولة تهدئة نفسها قبل أن تردد:

- أنا عارفة إني باخرف!! ما تزعّلش منّي.

- أنا مش زعلان.

- أمال أنت ليه؟ اتكلم.. قول أي حاجة.. بلاش الوش الـ «Flat»
ده اللي عارفة إنّ وراه كتير.

ظللت أرمقها مانعاً نفسي من الكلام قبل أن أستسلم لضعفها؟

- رُوحي نامي وهاكلّمك بكرة أطمئنك.

- أنا مش بنام.. كلامي إن شالله الفجر.

ترنحت بعجاني حتى سيارتها، أغلقت الباب وربت على يديها وطلبت منها تطميني حين تصلك ثم قفزت في تاكسي أخذني إلى مصر الجديدة، التقطت علبة «Heineken» مثلجة ستساعدني في التركيز ثم دَلَفت محل «Buddha» للوشم، كان في انتظاري الفتى الطريّ الغاض، قام إليّ بودّ مُصطنع وصافحني:

- إوعى تكون لسة زعلان متنا من المرة اللي فات!

- المسامح كَريم أنت لستة فاِكِير؟ مَدام دِيجا موجودة؟

- موجودة.. بس عندها جلسة.

- مش سامِع صوت المَاكْنَة يعني !!

مسح «اللين» أنفه ..

اللّعين مَبِخِيز لي كذبة نيتة بلا دقيق ولا سمسم !!

- آآآ.. هي أصلها معاها صديقة.

- أنا محتاجها خمس دقائق ..

- لو ينفع تعدي علينا وقت تاني يبقى ...

- مش هينفع.

- صعب تقابلك النهاردة فعلًا.

- أكيد؟

- شور.. No way النهاردة..

فقرة من كتاب «طبخ لحوم البشر.. قسم العجائن»:

«التهيبة «حيوان الإنسان» للطبخ يُراعى أن يكون لَيْنَ الْخِلْقَةَ خالياً من العِظامِ والشِّعْرِ، أَمْلَسُ، مَشْكُوكاً فِي أَمْرِهِ بِنَسْبَةٍ لَا تَقْلُ عَنْ ٩٠٪، كَمَا يَجِدُ التَّأْكُدُ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ أَحَدٍ بِالْجُوَارِ، وَأَنْ صَوْتَ الْمُوسِيقِيِّ صَاحِبِ! ضَعِيْي يا سِيدِتِي ابْتِسَامَةَ صَفَرَاءَ عَلَى وَجْهِكَ ثُمَّ هِمَّيْ مُصْطَنْعَةَ الرِّحْيلِ لِيُطمِئِنَ لِنَوَابِيَّكَ؛ قَبْلَ أَنْ تُسْدِدِي لِكَمَةَ قَاسِيَّةَ إِلَى أَسْفَلِ فَكَ «حيوان الإنسان»، سُيُصْدِرُ صَوْتاً بِسِيطَةِ قَبْلِ أَنْ يَسْقُطَ خَلْفَ مَكْتِبَهِ الْمَلِيِّ بِالْهُرَاءِ، قَدْ تَحْتَاجِينَ إِلَى تَسْدِيدِ لِكَمَةٍ إِضَافِيَّةٍ إِذَا بَدَتْ عَلَيْهِ إِفَاقَةٌ، فِي تَلْكَ الْحَالَةِ يُسْتَحِبُّ أَنْ تَسْتَعِينِي بِفَازَةٍ أَوْ تَمَثَّلَ رُخَامِيْ لِبُوْذَا أَوْ مَقْدَمَةَ حِذَائِكَ الْمَدِيَّةِ...».

أغلقت بَابَ الْمَحَلِّ بِهُدُوءٍ مُتَجَنِّبًا لِلْأَجْرَاسِ السَّخِيفَةِ الَّتِي تَنْخَبِطُ لِتَبَيَّهِ صَاحِبِ الْمَحَلِّ أَنْ هَنَاكَ زَائِرًا، أَطْفَلَتْ نُورَ الْوَاجِهَةِ مِنْ زِرٍ فِي الْحَائِطِ، ثُمَّ سَحَبَتْ «حيوان الإنسان» مِنْ قَدْمِيهِ دَامِيَ الْأَنْفِ وَاللَّثَّةِ إِلَى حَمَامٍ صَغِيرٍ أَغْلَقَتْ بَابَهُ بِمَفْتَاحٍ ثُمَّ تَوَجَّهَتْ إِلَى غُرْفَةِ الْوَشَمِ، مَسَخَتْ الدَّمَاءَ مِنْ قَبْضَتِي وَعَدَّلَتْ هَيَّسِتِي ثُمَّ فَتَحَتَ الْبَابُ بِهُدُوءٍ كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ، بِالدَّاخِلِ كَانَتِ السَّيْدَةُ وَحْيَدَةً، جَالَسَةً أَمَامِ مِنْضَدِّتِهَا مُدْلِيَّةً نَظَارَتِهَا عَلَى أَنْفَهَا مُنْهَمَكَةً فِي مُطَالِعَةِ كِتَابٍ..

- مَسَاءُ الْخَيْرِ..

انتفَضَتْ بِهُدُوءٍ لِمَا سَمِعَتْ صَوْتِي وَالتَّفَتَتْ، تَغَيَّرَتْ مَلَامِحُهَا حِينَ رَأَتِي وَإِنْ أَحْكَمْتُ اصْطِنَاعَ الْلَّامْبَالَا وَالْأَسْتَرْخَاءِ..

نصيحة: لا تنسَ إِيُعاد يدك عن أذنك حين تواري شيئاً..

- أهلاً وسهلاً!

- مَعْلِشْ جيت في وقت متأخر..

- في العادة أنا باشتغل بمواعيد.. بس «It's ok».. اتفضل..

مأخذة بالمفاجأة أشارت لكرسي بجانبها فجلست إرباكاً لها على كرسي آخر بعيداً عن دائرة النور..

- تشرب إيه؟

هممت بالقيام لنداء حارصها الطريّ فعاجلتها:

- خليكي مستريحه.. طلبت منه حاجة ساقعة..

- OK! أوْمُرُ..

- جاي أرسم تاتو!

- معاك صورة؟

اقترست منها وأخرجت صورة باسمة وشريف أمام البحر، وَضَعْتها في راحتها وأنا أتفحّص رد فعل وجهها..

- حاجة زي ده كده؟ اللي على الفخد..

- صغير.. مش شاييفاه..

- غريب؟ مع إنك أنت اللي رسماه!!

- متهدأ لي أنت نسيت! أنا اتعاملت مع شريف مش مع مراته..

-أنا ما قلتش إنها مراته !!

ابتلعت ريقها وتحتست مئبت رقبتها..

Whatever - التاتو صغير أو ي ومش واضح ..

-أنا عُمري ما شفت حد يكذب بالرّخص ده..

أنت بتقول إيه؟!

- باقول إنك كذابة.. لما شفتني وش بسمة اتلخبطتي.. أنت ما بتصنّع حتى على الوشم !!

- ممکن تکلم باسلوب کویس..

قالتها وهي تُحصي الشياطين التي دارت في عيني قبل أن تُسرع بالقيام، أمسكت رُسغها بقسوة وأجلستها على كُرسيها عنوة، استغاثت بعدها المَخصي ثَناديه وهي تلتقط حقيبتها فجذبها من يدها والتقطت عُبُوة الـ«Self Defense» منها قبل أن أقبض على قِرطها المستدير الواسع بين أصابعي، تأوهت في ألم:

-شّـش.. رـكـزـي مـعـاـيـا دـقـيقـتـيـن.. وـاـحـدـ.. إـحـنـا لـوـحـدـنـا مـا حـدـشـ
هـاـيـسـمـعـكـ.. اـتـنـيـن.. الـبـنـاعـ الـلـيـ أـنـتـ مـشـغـلـاهـ مـسـطـحـ عـلـىـ أـرـضـ
الـحـمـامـ وـمـشـ هـاـيـسـمـعـنـاـ.. تـلـاتـةـ.. نـورـ الـمـحـلـ مـطـفـيـ بـرـهـ.. يـعـنـيـ
مـاـفـيـشـ زـيـونـ هـيـجـيـ.. أـرـبـعـةـ.. حـرـكـةـ وـاـحـدـةـ هـاـفـضـيـ الزـفـتـ دـهـ فـيـ
وـشـكـ لـغـاـيـةـ مـاـ تـفـيـصـيـ.. وـأـدـغـدـغـ الـمـحـلـ.. أـوـكـيـهـ؟

حدجتني بغضب ونهيج صدرها يعلو ويهبط في فزع.. لحظات
وهزت رأسها اقتناعا فتركـت القـوط من يـدي..

- عاوز إيه؟

- شوية أسئلة.. والرد من غير كدب.. بسمة جت لك ليه؟

نظرت إلى يسارها وأغمضت عينيها تفاؤض الاستسلام، لحظات
وفكت الإشارب الغجري التي كانت ترتديه فتبعثرت خصلاتها
البيضاء اليابسة ثم أشعلت سيجارة بأصابع مُرتعشة وساحت نفسها
أطلقته في السقف تهدئة لروحها..

- تاتو.. كانت عاوزة ترسم تاتو..

- وبعدين؟

- جت تلات مرات ومافيش شكل عجبها.. دردشنا سوا وحكت
لي عن حياتها.. كان نفسها تعمل حاجة جديدة في جسمها لأنها
مكتبة إن مافيش حمل.. كمان علاقتهم «Sexually» ماكانتش
مطبطة.. شريف كان سريع.. في المرة الرابعة لما جت افترحت
عليها تاتو.. «New Look» ووافقت.. بس..

- وبعدين؟

- ولا قبلين!

- خبّيتي ليه موضوع زيارة بسمة لما جيت لك أول مرّة؟

- ما حستش إن ليه أهمية..

- عذر أقع من ذنب.. رسمي لها إيه من مكتبتك؟

هرّبت حدقتها عنوة إلى رفّ عالي قبل أن تُجيني:

- تاتو عادي.. مش فاكرة.. الكلام ده كان من حوالي...

التقطت قرط أذنها الكبير وجذبته بعنف لم أعهد له، تمزقت شحمة
أذنها فصرخت وانهارت على الأرض الما تحتوي شحمتها المقطوعة
بيديها وتسلو من أجلي السباب، لا أنكر أن ذلك كان ممتعاً بشكل
كبير قدر ما أثار قصيري! فمُخترع الأقراط نفسه لا بد كان سادياً
ليفكر في ذلك الاختراع!! تركتها تتلوى كحيّة مقطوعة الرأس حتى
همدت ساجدة في ضعف..

-أنت حيوان.. أنا مش هاسكت.. هابهدهلك.. أنا...

- أنا قلت لك بلاش كِدب ما صدّقنيش .. تاني .. رسميًّا لبسمة إيه؟
جربت تصنّع الهبوط هرّباً فاللقطت فِرطها الآخر بين أصابعي،
انتبهت كفطة مُتحفزة وتخلىت عن تمثيلها غير المتقن، تحدّجني بنظرة
رأيت فيها امرأة قوية لم يكن لجرح مثل ذلك أن يؤثّر فيها، فجسّدها
مُغضّى بوشوم مَجموع آلامها قد يصرع فيلاً !!

توسلت بكلمات أسالت كُحلها الرَّدِيءِ من عَينيها فاجلسها على الكُرسِيِّ وناولتها مِنْدِيلًا لِتَضَعُهُ عَلَى الْجَرْحِ ..

لحظات وبدأت تنزف الكلمات..

- رسمت لها رسمة قديمة.. رسمة جابت نتيجة قبل كده..

احکی ..

ـ ناتو مُعين بيعمل «Positive energy during Sex»، طاقة إيجابية،
تخلّي العلاقة تتحسن، وينشط الشاكرات؛ اللي هي بؤر الطاقة في
الجسم أخصوصاً «المولادارا شاكرا» اللي بتأثر على المبایض
والبروستاتا، أنا مش قادره، التزييف مش يقف، لازم أروح لدكتور.

- أنا دكتور ويأقول لك هتعيشي، ده خرم في شحمة ودن مش
رخصاصة، كملي..

أردفت بغل:

- رسمت لها التاتو وبدأ ينبعج.. العلاقة اتحسنت كثير مع شريف.

- طاقة إيجابية!

- الطاقة علم.. والأحجار الكريمة كمان فيها...

- فيها فيل.. فيل.. كملي..

- عرفت من بسمة بعد كده إن حصل حمل..

- وهنا شريف زارك؟

- جه زي المجنون.. عاوز يشوف التاتو اللي رسمتهولها.. متخيل
إنه السبب!!

- وفين الكتاب ده؟

هربت عيناهما لكسير من الثانية إلى الرف ذاته..

- للأسف ضائع مني..

ابتلعت الكذبة متظاهراً بالصدق..

- وبعدين؟

- البيه بهدلني زي ما بهدلتنبي سعادتك وكسر لي دراعي ومشي..
أنتو كلّكم مجانين..

- الكتاب اتسرق منك إزاي؟

سألتها بـغتة وأنا أمسح تعبيرات وجهها..

- اتسرق ! اتسرق في النادي ..

- في النادي !! يعني مش هنا؟

- دور لو مش مصدقني !

التقطت القرط المُتبقّي بين أصابعه وجذبّتها منه كالبقرة، قامت
مُجبرة تولوك وترفس فنهيتها بـ«شيش» قاسية فاستجابت، اقتربت
من الرفّ الذي هربت إليه عيناه مرتين وتوقفت ..

- يله !!

طلب إقناعها شدّة على أذنيها لستجيب فصرخت قبل أن تمدّ
يدها للرفّ الرابع وتتجذب كتاباً أجنبياً، الغلاف الفخم وعدم وجود
ثنية واحدة في طرف الصفحات أكدّا كذبها ..

- أنت مستغنية عن ودنك الثانية ..

مدّدت يدي وأسقطت كل الكتب من الرفّ وفرزتها بقدمي، كانت
كتب يوجا، تنمية ذاتية، مجلتين للوشم وكتاباً صغيراً غلاّفه لبني باهت
يحمل عنوان «أبواب الأغراض»، لم يبد متّسقاً مع نوعية الكتب في
مكتبتها من حيث النظافة والفحامه، بادياً عليه القِدم وكثرة التصفّح
من عَدَد الثنائيات في أطراف صفحاته، نظرت في عينيها فلمّحت القلق
والسخط يسبّاني بالألم، أفلت شحمة أذنها وتركتها تهوي بجانب قدمي
وأتّكأت على كرسي متصفّحاً فهرس الكتاب المُهترئ، العناوين كانت
صادمة، «باب مَحبّة وجَلب وَتهييج»، «باب تَهييج وَنَزِيف»، «زيارة
الأرقام»، «باب لِتَفرقَة الأَحْبَاء» فتحته فُضولاً فقرأت:

«يُؤتى بثلاث نوایات بلح، يوم الأربعاء ساعة زُحل، يُكتب على الأولى «آدم وإبليس» والثانية «إبراهيم والنمرود» والثالثة «موسى وفرعون»، وتقول على كل واحدة «وحيل بينهم وبين ما يَشْهُون» وتدعفهم في أي مكان بشرط أن يُمر عليه المعمول له العمل!!».

غريلت الفهرس حتى التقطت عيناي باب «استحضار وتسلیط العاشر النكاح»، ففتحت صفحته فرأيت الوشم، الوشم الذي رأيته على فخذ بسمة وزوجة المأمون ولبني !! مكتوبًا تحته:

«هذا ورب الأرباب أخطر أنواع التسلیط على الإنس فافهم، هو استحضار لعارض سفلي عن طريق رسم طلسمه ومناداته بعزيمته التي تسيطر عليه منذ عهد سليمان، فيأتي خادم الطلسم لينكح الأنثى المسلطة عليها مدة شهر وعشرين أيام، وحده، أو عن طريق الحلول في جسد بعلها المعاشر لها إن كان لها بعل، يحل في جسده، يحبسه ويطمس حواسه ويُغييه، لا يكاد يفقه شيئاً مما يحدث حوله وإذا تكلم تلجم لسانه كالحمار ينهق، ولا يستطيع التحدث إلا عن طريق عزائم الأرقام وإلا هلك وأحسن بالحرق يسري على جلده، تمر عليه الساعات والأيام ولا يدرى بها، كأنه ميت حتى ! أمّا الطلسم فينقش على الفخذ البسيط للمعمول لها العمل، ثم تكتب العزيمة بمني من زني مخلوط بدماء سلحفاة برية لتبطئ حركة الملبوس، وتقرأ في مرحاض مظلم ألف مرة وستين مع بخور ميعة وسندروس، ثم تطبق الورقة سبع تطبيقات وتطعّم ل الكلب أسود بعد الغروب، وتُبطل العزيمة بقتل الكلب أكل الورقة فيفيق المعمول لها العمل .. أمّا إذا لم يقتل الكلب يظل الناكح السفلي في نكاحه حتى تستغيث الأنثى من العذاب وتحمل منه ابنًا لا يجهض، يقتلها ليخرج منها ولا يغادر

جَسَدُ الذِّكْرِ الَّذِي احْتَلَهُ حَتَّى يَقْتُلَ نَفْسَهُ فَيَمُوتَ كَافِرًا! فَاخْفَظْ ذَلِكَ
فَإِنَّهُ مِنَ الْأَسْرَارِ..

العزيمة:

تَوَكَّلْ يَا خَادِمُ هَذَا الْطَّلْسِمِ ..

تَوَكَّلْ بِحَقِّ مِنْ خَلْقِكَ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ..

تَوَكَّلْ بِحَقِّ مِنْ أَمْرِكَ أَنْ تَسْجُدَ لِأَدْمَ فَلَمْ تَسْتَجِبْ ..

تَوَكَّلْ بِحَقِّ الْأَسْمَاءِ الَّتِي أَنْتَ لَهَا طَائِعٌ ..

أَجِبْ بِحَقِّ «كِفِيَالُ، دِنِيَاثُ، شَهْقِيَالُ وَسُحْبِيقُونَ» ..

انْكُحْ «فَلَانَةَ بَنْتَ فَلَانَةَ» فِي فَرْجِهَا أَوْ دُبْرِهَا ..

مِنَ الْعِشَاءِ لِلصَّبَاحِ ..

تَصْوِرْ وَتَمَثِّلْ فِي صُورَةِ بَعْلِهَا ..

تَخْلُلْ دَمِهِ وَلَحْمِهِ ..

غَيْبِيهِ، اطْمَسْ عَيْنِيهِ، ارْدَمْ أَذْنِيهِ بَطِينِكَ الْمَبْلُولُ وَاعْقَدْ لِسانَهِ بِعَقْدِكَ
الْمَعْقُودِ ..

ثُمَّ الْفَفْ إِحْلِيلَكَ حَوْلَ إِحْلِيلِهِ، وَجَامِعَهَا عَنْهِ ..

أَبْطَلْ مَاءَهُ وَحَبَّلَهَا بِمَائِكَ لِيَخْرُجَ نَسْلِكَ ..

الْوَحَا الْوَحَا.. الْعَجَلُ الْعَجَلُ .. السَّاعَةُ السَّاعَةُ ..

لَمْ أَتَمَالِكْ نَفْسِي لِأُكِمِلَ، اقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَاغْتَصَبْتُ شَعْرَهَا الْأَشْعَثَ:

- يا بنت الوسخة.. سحر !! سحر يا بنت المرة!!

راكيعة على الأرض تتلوى أجاشت:

- ما كانش المفروض ده يحصل.. كُل مَرَّة كانت بتعدي.. المرة
دي قلبت جدّ..

- جدّ!!

جرجرتها حتى الكرسي وأقيمتها فوقه حين ارتفع خطفتاها اللَّيْنِ،
آت صوته من الحمام يدق الباب بهستيريا يستغيث سيدته..

- فهميني؟ من غير كدب..

- أنا تلاتين سنة في المجال ده زبي زي الحلاق.. باسمع.. نص
البيوت اللي بتهد؛ بتهد بسبب السرير.. ونص الرجال مش عارفة
يعني إيه السُّتْ ليها مُتعة زي ما أنتو ليكو مُتعة.. بس بطريقة مختلفة..
عاوزة صبر.. الأفلام السُّكّس بوّظت دماغكو..

- أنت بتتصي لي كده ليه؟

- الموضوع ده شغلني لغاية ما اتعلّمت لعبة.. لعبة بتلعب مرّة
في العُمر تخلي العلاقة تتظيّبط بين أي اتنين.. لعبة فتحت بيوت كتير
كانت هاتهد.. كُل القصة وشم بيترسم..

- قصدك طلسم نجس؟

- طلسم وعزيمة بتكتب وتقربي..

- ويأكلها كلب!! يا نهار أسود ع النّجاسة!! كتملي..

- الجنّ يعملا اللي ما تعملوش ألف فياجرا.. بحضر ساعة النوم
ويلبس الزوج وينام مع مراته.. ماحدش بيعرف حاجة..

- والكلب يقوم الصبح مبسوطاً !!

- ده اللي فعلاً يحصل .. مجرد ما بتتحقق المتعة الحياة بتمشي ..
مافيش متعة؛ بنقعد نرمي اتهامات برود وضعف ونقطع في بعض
بسكاكين تلمة ومش فاهمين ليه !

- والكلب؟

- الكلب اللي أكله العزيمة باحتفظ فيه في الحمام.. أسبوع لغاية
ما أطمن على صاحبة الوشم وبعدين أسفيه سُم.. يموت.. وكل
حاجة تستهني..

- وإيه اللي حصل مع بسمة؟

- مع بسمة اللي حضر شيء تاني.. شيء ما بينصرفش.. شيء أول
مرة أشوفه.. مش موجود في أي كتاب..

«الطري» قطع بنداته وخيطه استرسالها في الحكي، مخنت أخفف
لام الاستغاثة، يقرع الباب بهلع فتاة في الإعدادية!

- أنت ما قتليتش الكلب؟ سألتها..

- الكلب مات لوحده في الحمام !!

!!...-

- مات واتنفح في ساعتين زمان.. وفجأة ضرب وغرق الحيطان
دم ريحته بشعة.. أنا قلت خلاص العزيمة اتحلت.. بعدها بيومين

لقيته وأنا باقفل المحل.. واقف وراياها بيزوم.. أترعبت وما عرفتش
أتصرف لغاية ما جه تاكسي شاورت له.. من ساعتها يظهر لي.. كل
يوم بالليل..

- وده معناه إيه؟

- أنا آخر واحدة ممكن أعرف ده معناه إيه.. اللي جه ما كانش اللي
بيجي كل مرة.. اللي جه كان أشرس بمراحل.. يمكن يكون عشقها
ومش عاوز يمشي فقتل الكلب عشان تبوظ العزيمة وما تتفكرش..

- أنت ولعني الدنيا ما عرفتيش تطفيها.. قلتني؟

- ما كانتش دي نيتني..

- أنت لازم تيجي معايا.. لازم تتكلمي..

رمقتني المرأة باستغراب تحول إلى رعب..

- ما تبصليش كده! هاتيجي..

اتخذ الأمر مني ثواني قبل أن أستوعب أنها تحملق في نقطة
خلفي..

تجمدت للحظة أحفر وجهها بحثاً عن مكيدة «بُض العصفورة!»
ثم لاحظت أن الرّقع على باب الحمام قد توقف..

فتاتها اللتين خرج!!

أفلت أذنها من بين أصابعه والتفت بحدّر، ورأيي مباشرة كان
واقفاً، ليس كما رأيته من قبل، أضخم، ضلوعه خارجة عن جسده
مغروسة في الشعر الأسود الفاحم، وعياته لا مكان فيها لبياض،

سواد بلا قمر ولا نجوم ولا بشر، لا أتحدث عن الفتى اللَّذِينَ، أتحدث
 عن الكلب الأسود! كلب أحلامي، صوت لهاته اخْتَلَطَ بصرخة
 المرأة ومحاولتي الحفاظ على هدوئي، مرت ثوانٍ نسيت فيها التقاط
 أنفاسي، انقبض قلبي ورفض أن ينْبِسطَ، حتى العَرْقُ انحبس في
 المَسَامِ ولم ينْهِمْ، كان ذلك حين ارتعشت اللَّمْبةُ الخافتةُ وانطفأتُ!
 ما سمعته لم يكن نبَاحًا أو حتى زَئِيرًا، كان صوت حَسِيسٍ نَار، نَار،
 بلا وهج!! لم أدر بنفسي إلا وأنا أركض خارج الغرفة مُبْعِثِرًا كل
 ما في طريري مُتَّبعًا ضوءًا خافتًا آتِيًّا من الشارع، وديجا من ورائي
 تصرخ في جزع ما لبث أن توقف بفترة قبل أن تُبَرِّ خطواتها، لم أنظر
 ورائي كما فعلت امرأة لوط، فقط قفزت في زجاج الباب فحطمتْه
 بكفي وسقطت على الأسفلت بعنف، انفسخ كتفي فقمت واقفًا أنظر
 للمحل ولا أرى إلا ظلمة! مُحتميًّا بنور الشارع الأصفر انتظرت ديجا
 ولم تخرج، ولا فتاتها المُخْتَث!! ركضت، ركضت كما لم أركض
 من قبل، ركضت والكتاب بين يديّ قبل أن أقفز في أقرب تاكسي..
 في الشقة اتَّخذَ الأمر من يَدِيْ سَاعَةً لَتَهَدَّأَ عَشَةً يَدِيْ، ورُبْعَ سَاعَةً
 لألف سيجارة لا تنفك بفترتها! لعن الله مرض السُّكَّر والمختشين
 والكلاب السود! الكتاب كان بِجَانِبِ زُجَاجَةِ الْبِيرَةِ على المِنْضَدَةِ،
 لا أريد فتحه، لا أريد نشه، ما رأيته اليوم لم يكن زيارة من زيارات
 أحلامي، ما رأيته اليوم كان حقًا!

خرجت للحدائق أستجدي الأمان بخزي لم أعرفه منذ زمن،
 جلست تحت الشجرة الهزيلة أحتمي بالمارَّة الشَّجَيْحَين والسيارات
 وضوء الشارع الأصفر الباهت، فتحت الكتاب ومشيت على الكلمات
 مُحاولاً عبور المطبات بين علم النفس الذي درسته وبين السُّحر الذي

سحبني إلى عالمه، بين يقيني في ما رأيت، واعتقادي القديم في خيالية هذا العالم الأزرق! ذلك العالم الذي درسنا في كلية الطب أنه الجهل بعينه وأنه حجّة الجهال لتفسير المرض العقلي..

ولم أغفل لحظة شعرت فيها أن الواشمة وقتها قد يكونان أعداً لي بيت رُعب بلاستيكياً مُزوداً بنُظم صوتية وإضاءات ومُجسماً أسود ل الكلب مُتقن النَّحْت!! اللعنة على الأفلام الأجنبية وما تفتحه من احتمالات!! لكن ماذا عن زيارته لي في البيت من قبل؟! أفكارٍ غير مرتبةٍ مبعثرةٌ على مساحة ألف ميل..

قلبت صفحات الكتاب بحثاً عن تفاسير حين أوقفني فصل اسمه «تكسير الحروف» رأيت فيه جدولًا بعدد الحروف الأبجدية والمُقابل لها من الأرقام:

ي	ط	ح	ز	و	ه	د	ج	ب	أ
١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١

ر	ق	ص	ع	ف	س	ن	م	ل	ك
٢٠٠	١٠٠	٩٠	٨٠	٧٠	٦٠	٥٠	٤٠	٣٠	٢٠

غ	ظ	ض	ذ	خ	ث	ت	ش
١٠٠٠	٩٠٠	٨٠٠	٧٠٠	٦٠٠	٥٠٠	٤٠٠	٣٠٠

نكسير الحروف:

تحويل الحروف للأرقام هو نقل نافع لكشف بواطن حُروف الكلام، ثم وضعها في مُربعات متساوية الخانات تُدعى الأوفاق،

مربعات تملك قوة الفعل والتحريك والتأثير، عن طريق طاقة خفية نابعة من تسخير الجن، تُستخدم في خدمة جميع الأغراض، عاليها وسافلها، فـكُل شيء يتحرك في إطار نظام مدروس، ولا مجال للصدفة في الدنيا فافهم، كل رقم هو جُزء من معادلة حسابية لها قوة خاصة تحمي من تُعمل له أو تُسحق من تُعمل ضده، فكتابتها على شيء قد تعني الحفظ.. أو الهلاك..

نظرت في الكلام والأرقام ثوانٍ قبل أن تنجلِّي العلاقة!
قمت جريأاً لـحوض أسماكِي الميتة أبحث عن الملف، تَقْبَت فيه حتى عثَرت على قصاصات الأرقام التي كتبها شريف ونطقتها، قضيت دقائق في الترجمة قبل أن تنجلِّي الحقيقة..

شريف كان يستغيث ولم أسمعه!!

كان يطلب تسعه أرقام..

لم أنظر الشمس لتصير أفكاري وعيني والأسفلت تحت قدمي ..
قبل الفجر اصطحبت القميص إلى المستشفى، الريح ساكنة
كالموت والشجر جذوعه لها مهابة مجلس شيخ روماني !
لما اقتربت من ٨ غرب اتصلت بمحسن الممرض، أيقظته فخرج
لي نصف نائم ..

- معلش صحيحتك يا محسن ..
- صباح الفل يا دكتور .. أو مر ..
- إيه الدنيا عندك جوة ؟
- والله يا دكتور الجو كلّه كهربا .. المساعد ووكيلاً للأمانة وسكرتير
الوزير جم النهاردة والقسم مشدود كلّه ..

- أخبار عيلة سامح إيه ؟
- د. كيلاني هو اللي بلّغهم الله يكون في عونه .. أبوه أغنم عليه ..
ليه ربنا بقى ..

كلمات محبين كانت محملة بغبار لوم ومعالم ضيق لم أغفلها ..
فالقسم كلّه قد عرف علاقتي بشريف ..

في مثل تلك الحالة وعكس كل الاحتمالات أضغط دوّاسة
البترин حتى آخرها..

- شريف في العزل؟

- وعليه عسكري خدمة..

- عملوا إيه معاه؟

- خمس ساعات رغبي وما طلعواش منه بأي مصلحة.. مشيوا
وقالوا جاين بكرة يكملوا تحقيق..

- أنا عاوز أخُشن له..

- لا.. دي أنا مش قدّها يا دكتور..

- يا محسن..!

- وكتاب الله ما ينفع.. د. كيلاني شادي القسم كلّه.. أنا كده أروح
في داهية..

- اسمعني يا محسن.. أنا لو ما دخلتش لشريف النهاردة ذنب
سامح هايقى في رقبتك..

- هو أنا اللي قتله لأمؤاخذة يا دكتور؟!

- الكلمتين اللي هاعرفهم من شريف ما حدّش هيعرف بطلعهم منه
غيري.. لو همك سامح الله يرحمه دخلني.. نص ساعة يا محسن..
نص ساعة ما تبقاش رِحْم يا جدع هو أنا جاي من الشارع؟!

- طب والعسكري اللي ع الباب؟!

- يعني هتغلب يا محسن .. وبعدين هاظبطك وأظبطه .. ليك عندي
نظيفطة هتحلف بيها !!

دلك عينيه وداعب شفتيه الباهتين ثم نفث دخان السجارة التي
أخذها مني بضيق قبل أن يهز رأسه في «من وأذى» واصحبين ويشير
لي أن أترقب رنة محمولي لأدخل ..

انتظرت عشر دقائق حتى أتنبه إشارته، عَبرت البوابة واقتربت
من باب العنبر الساكن أبحث بعيني حتى جاءني من آخر الرواق
مُهرولاً يهمس:

- بالعافية وافق إني أستنى مكانه على ما يديها نص ساعة يفصل
ويُخشِّن الحمام ويحضر الفجر جماعة في مبني الإداره .. بس لازم
أراضيه عشان ما يرغيش ..

- تراضيه عشان يريح ويصلّي؟ مashi !! هو شريف مربوط؟

- الخلا خيل في رجليه ..

دست في يد «النحاس» خمسين جنيهاً فأخذها وأغلق باب غرفة
العزل ورائي، خلعت قميصي وعلقته خلف الزجاج ستراً ثم أضأت
النور، شريف كان جالساً على سريره وقدماه مُكبّلتان بالأصفاد، لم
يُحدِّث دُخولي رد فعل قدر ما أحدثه القميص المعلق في يدي،
مشدوداً مشدوداً لم تنزل عيناه عنه لحظة، ينهج منفعلًا كمن يتصعد
جبل، اقتربت فلمحت في عينيه رهبة ممزوجة بشوق ..

- أنا شفت كل حاجة يا شريف .. عرفت اللي حصل لك وحصل
لبسمة .. وحصل للمؤمن قبلك ..

مَحْبُوسٌ دَاخِلٌ نَفْسِهِ يَكْيِي بَرَاءَتَهُ انْتَفَخَتْ أَوْداجِهِ وَتَرْقَفَتْ عَيْنَاهُ
بَدْمَعَةٍ لَا إِرَادَيَّة..

- أنا جبت لك القميص !

بِرْفُقٍ اقتربَتْ مِنَ السَّرِيرِ، رَمَقَ الْقَمِيصَ مَلِيئًا ثُمَّ مَدَّ أَصَابِعَهُ بِيَطْءَ
وَلَامَسَ تَسِيجَهُ الْجَافِ قَبْلَ أَنْ يَسْجُبَهُ بِشَدَّةٍ كَادَتْ تَمْزَقُهُ، رَبَثَ
عَلَى يَدِيهِ فَأَرْتَخَى قَبْضَتِهِ بَعْدَ لَحْظَاتٍ، نَظَرَتْ فِي عَيْنَيْهِ أَقْرَأَ مَا فِيهِما
وَيَدُونَ أَنْ أَسْأَلَهُ قَرَبَتْ الْقَمِيصَ مِنْ رَقْبَتِهِ، النَّبْضُ فِيهَا ازْدَادَ طَرْقًا
عَلَى الْأَوْرَدَةِ وَالْعَرَقِ انسَالٌ مِنْ جَبَهَتِهِ عَلَى صَدْرِهِ، عَرِيسٌ يَرْتَدِي
بَدْلَةً زَفَافَهُ، مَحْكُومٌ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ يُلْفُ حَولَ رَقْبَتِهِ حَبْلًا مُشْنَقَةٌ، فَجَاءَهُ
تَغْيِيرٌ وَجْهِهِ فَتَرَعَ الْقَمِيصُ مِنْ يَدِيِّهِ وَأَلْقَاهُ بَعِيدًا..

- ليه يا شريف؟

- ما تسائلش سؤال أنت عارف إجابته.. أنت أذكي من كده!
لا إرادياً انتصب شعر جسدي فالتنقطت الْقَمِيصُ الْأَثْرِيُّ وَارْتَدِيَتِهِ
وَأَنَا أَسْتَعِيدُ بِاللهِ فِي سَرِّيِّ حِينَ لَمَحْتُ الْإِبْسَامَةِ..

- مؤمن!! سألني بسخرية..

- وَمُؤْمِنٌ بِاللهِ..

- أنا كمان مُؤْمِنٌ بِاللهِ.. أَكْتَرُ مِنْكِ.. وَعَلَى فَكْرَةِ لُونِيِّي مشَ أَسْوَدَ
زي ما بِيرْسُموْني ..

- أنا مش خايف منك..

- كَذَابٌ! تَفَرَّقَ إِيَّهُ عَنِّي؟ تَعْمَلُ كُلَّ الَّذِي بِتَعْمَلُهِ وَتُسَمِّينِي أَنَا
شَيْطَانٌ.. دَهْ حَتَّى اسْمَ سَخِيفٍ!

- أنت ضعيف..

- بتقول الكلام ده وأنت بتتحامى في قميص فُماش.. مش عارف
هو اختاركم على أساس إيه وأنتو بالضعف ده..

قالها وفتح الفم، فم شريف، فتحه حتى كاد ينفسخ ثم أمسك
ضرسًا في الصفت الأيمن، قبض عليه بسبابته وإبهامه وجذب،
بجهود لا يُذكر اقتلعه من اللثة بقوائمه الأربع، خرج بنافورة دماء
أغرقت صدر شريف، رفعه أمام عينيه وتأمله قبل أن يبتسم..

- معدورين.. أصله خلقوك في آخر يوم للخلق.. كان تِعب
خلاص..

- أَعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

- أنت بتضحكني على فكرة.. المفترض أتحرق دلوت؟

- أَعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

مَدْيديه في فمه والتقط ضرسًا آخر.. جذبه بقوة حتى خرج بصوت
كسر ودماء أغرقت الملاعة..

- كُل ما هتذكر اسمه ها ثبت لك ضعفك..

حين قالها انتابتني رعشة، كهرباء مررت فوق جلدي، صرع خفيث،
نظرت إليه بعد أن خفتت موجته فوجده يبتسم..

- مش هاسيبك تدخل دماغي..

- أنا أصلًا جوة دماغك.. هتنام إمتى مع لبني؟

...-

- رِحة لحمها شهية .. بتجيني من مسافة ألف ميل .. وضعفك
وجبتي المفضلة .. بالمناسبة الجو حرّ والقميص ده مش هيحبيك.

- بستفرزني عشان أقلعه !

- مش هتفرق .. صاحبه الغبي نجسه ..
قالها وابتسم حين التقى طرف خطٍ مُهترئ ..
- نجسه ؟!

صَفعتني كلمات عم سيد خياط القميص حين قال:

«القميص ده تلبسه ما يفارقك .. إلا على باب الكنيف تسييه في
حَتَّة طاهرة .. ولا تعاشر الحُرمة ليلة واحدة .. ولا يمسه دم .. لغاية
ما يغادر ..».

نظرت للقميص على جسدي وتأملت البقعة الداكنة، بقعة دماء
زوجة المأمون! نظرت في وجه شريف المبتسם رغم نافورة الدماء
النازفة منه قبل أن أخلع القميص بهدوء ..

- مش قلت لك القميص مش هيتفعل !!

لم أجبه، فرَدَت القميص على الأرض أتأمل رسومه وأرقامه وفي
رأسي ترددت بقايا كلمات صانع القميص:

«القميص هيرفع عنك .. مكتوب عليه بالمسك والزعفران درعك
وحمياتك في تسع أرقام .. ما بين الكاف والنون .. قوله الحق وله
المُلك ..».

التقطت عيناي فوق الصدر حرف «كاف» كبير متبع بسلسل

أرقام مفصول بنقاط، يبدأ من ستين ويتهي بثمانية وستين عند حرف
«نون» مواز!

٩ - ١ - ٢٠٠ - ١ - ٤٠ تعني بعد تحويلها لحروف عبارة
«تسعة أرقام»..

شريف كان يطلب شفرة الأرقام التسعة.. يستغيث بها بعدما
علم أن القميص لا فائدة منه بدونها.. كان يقصد «تسعة أرقام»
لكته لا يعرف مكانهم في القميص وسط زخم الأرقام والحروف
المتشابكة.. والقميص ينسى مكانه وسط الغيبات المتلاحدة..
الغيبات التي يتولى فيها نائل السيطرة.. ومكان الأرقام أفعى عن
عم سيد في رحلة الفيل الأخيرة.. ما بين الكاف والنون!

برعشة حاولت تملّكها أخرجت الورقة من جيبي، الورقة التي
جاءتني في البريد، لمعت عيناً شريف حين رأها، رَكعَت على الأرض
وأخرجت قلماً، تأملني بابتسامة والدماء لم تكُف عن التدفق من
فمه، بخطٍّ حاولت السيطرة عليه كتبت الأرقام التسعة في المربعات
المجاورة داخل رسم الوجه ذي العينين السوداويين والأذرع الطويلة،
كتبتها كما رأيتها على القميص من الكاف إلى النون، من اليمين
لليسار، من ستين لثمانية وستين، انتهيت فرفعتها في وجه شريف،
رمقها بابتسامة خفت حين قُمت واقربت، ثم صارت غضباً ارتعشت
من أجله لمة الغرفة، قبل أن تنطفئ! ساد السكون بضعة ثوانٍ فتحت
فيها عيني مُحاولاً حصد أية تفاصيل قبل أن تصمّني رجراجة السرير
الحديدي على الأرض، قوائمه المعدنية الأربع تضرب البلاط برقع
مُدوٍّ، التصقت بالحائط لا إرادياً حين ارتعشت اللمة في ومضة

سريعة رأيت فيها الجسد الضعيف يتزلزل كشحشبيحة في يد طفل سادي، ينتفض كأن خط إمداد مدينة بالكهرباء قد احتضنه، من الهول غفلت أن أقترب حين التقطت صوت محسن من الخارج يضرب الباب منادياً: «يا دكتور.. افتح يا دكتور»! نفست عن نفسي الذهول واقربت من شريف محاولاً تثبيت قدميه التي كادت تبرها القيود جذباً، التقطت ذراعه قبل أن أقفز فوقه وأجثم على صدره قابضاً على ذراعيه محاولاً رفع ركبتي فوق عضديه لثبيته! كان ذلك حين انفتح الباب تحت وطأة ضربات كيف محسن فصرخت فيه: حقنة هالدول يا محسن بسرعة.. هرع الأخير لينفذ الأمر وكاد يتطلق على البلاط من الهرولة حين التفت لشريف الذي رمقني بغضب مُعْتَقِن قبل أن يصرخ في وجهي صرخة أيقظت المستشفى، صرخة طويلة فجرت شرياناً صغيراً في عينيه وطلة أذني، صرخة خرجت بنفسي عَفِن وزَبَد سال من شدقيه قبل أن يتقى، تقىاً نهراً أصفر ممزوجاً بالدماء فوق صدره وصدري والسرير! كان ذلك حين أتى محسن، تبعه عسكريان وضابط سمعوا الصرخة فدخلوا يتسمرون في ذهول! نَاؤلني محسن الحقيقة ثم قبض على ذراع شريف فتحررت يدي، صوّبت الإبرة لوريدي في عنقه المتليخ وهمت بغرز السن حين سَكَنَ بعثة!! همد وارتخي جسده كان الروح تنسل منه بلا إذن، لمست في وجهه زوال المعاني فالصقت أذني بفمه محاولاً اللحاق بيارث يندثر، همس بنفسي واهن مُهْدِجِ ملئه الحشارة:

- خلاص يا يحيى ..

ابتسمت له.. تلك كانت المرة الأولى التي أقابل فيها شريف منذ عشر سنوات!

- أنت اللي بعثت لي الورقة يا شريف!

هزّ رأسه إيجاباً وترققت عيناه..

- كنت باغيب في الأسبوع سنت أيام.. أصحاً لاقي كل حاجة متغيرة.. في مرّة فكترت فيك.. رغم كل شيء كنت عارف إنك الوحيد اللي ممكّن يصل..

قاطع حديثي ضابط الشرطة الذي أفاق من سكرة المفاجأة..

- أنت دخلت هنا إزاي؟

- دقيقة!

- انزل..

- أنا دكور هنا...

- دكتور مش دكتور.. ممنوع الدخول للمريض ده بالذات.. دي أوامر...

- المريض ده هينهار في أي دقيقة ولازم يتلحق.. عندك استعداد تشيل المسئولية؟

نطقتها بحزم من يعني تهدىده فتقهقر بغضب مكبوت خوفاً من المسائلة..

التفتُ لشريف وسألته:

- بسمة مراتك...؟

قاطعني:

- راحت مني يا يحيى.. ما كُتتش هاستن يقطعها قدامي..

- أنا هاوصل ده للجنة.. ما تقلقش و...

ارتعش فمه وهز رأسه فقربت أذني محاولاً الإصغاء..

- أنا مش عاوزك توصل حاجة.. وهمما مش هيصدقوك.. سيبني
أرتاح يا يحيى..

- قصتك لازم تعرف..

- مش مهم.. أنا كان كل همي ما يتصرش علينا.. ما أموتش
مستحر..

- كنت واعي لما قتلت سامح؟

- سامح كان هيأذيك! ما كانش جواه غير الغل ناحيتك..

أبهتنى إجابته فأردف:

- قتلة واحدة زي اثنين..

نظرت في عينيه فقرأت وعيه بما يقول قبل أن تنبثق الدماء من فمه
في كُتل داكنة، الكبد ينهار! لحظات وزاغت عيناه..

- محسن.. هات لي دكتور بسرعة..

أمرته فخرج مسرعاً فالتفت للضابط..

- يمكن نحتاج تصريح خروج..

على كُرسي بلاستيكي أصفر غير مُريح جلست في طرفة أمام
غرفة العمليات التي نُقل إليها شريف، رجال الشرطة من حولي

يقفون بأكواب شايهم البلاستيكية وأجهزتهم اللاسلكية ودُخان
سجائر لم يعبأ بقدسية المرض! بل شجعني لأشعل واحدة! عينوا
لي عَسْكِرِيَا لِيرافقي ولو لا صيادي في وجوههم لكتلوني في يده،
كان على الانتظار ساعة أخرى قبل أن تشرق الشمس ويخرج الطبيب،
أخبرنا أنه سيطر بالكاد على التزيف وأن الحالة استقرت رغم فشل
وظائف الكبد بسبب الورم! لما سأله أي ورم؟ أجابني بأن شريف
يُعاني ورماً خبيثاً في الكبد!! ولم يصدق أنه قد تم فحصه منذ أيام
قليلة ولم يكن فيه شيء !!

ظللت على الكرسي الأصفر غير المريح بجانب العسكري
العرقان حتى أتت المديرة تاجر وراءها خازوفا ومقصلة مربوطين
في حبل مشنقة، وضعتهما بجانبي وجلست..

- إذيني سبب واحد لوجودك النهاردة في أوضة شريف !!

- لو حكى لحضرتك مش هتصدقني ..

أغمضت عينيها في نفاذ صبر فحسنت أمري وقلبت المائدة
بطعامها المتعفن في وجهها ..

- شريف ممسوس !

رفعت رأسها للسقف تضرعاً أن ينزل بي عذاب قوم لوط وعاد
وثمود دفعه واحدة ..

- الأول كان ازدواج دلوقت جن وعفاريت! أنت الخمس سنين
اللي سبب فيهم الطُّب دماغك باطلت ..

- مش باقول لحضرتك مش هتصدقني ..

- ليه! مصدقاك طبعاً! ودكتور كيلاني يرفع تقرير لجنة للمحكمة يقول فيه إن مستشفى العباسية شایفة إن المتهم ملبوس ومستعدين نعمل له زار كمان ومحتججين في الميزانية الجديدة ديك أسود يتيم!

- أيا كان.. شريف لما يفوق هايكلم طبيعي ويعرف بكل حاجة..

- هيعرف إنه قتل مراته؟

- هيقول كل حاجة..

سكتت تدرس كلماتي وقرارها.. لحظات وانحنت تهمس:

- ما كتشش أتمنى أقول ده بس ما ادتنيش فرصة.. هاحولك إجازة بدون مرتب لغاية ما تلاقي شغل وتحجي تقدم استقالتك عشان ملفك بفضل سليم.. لغاية ده ما يحصل مش عاوزة أشوفك في المستشفى.. خد بالك من نفسك يا بحبي..

- ماشي.. فيه بس حاجة.. محسن المُمْرَض مالوش ذنب..
ما شافنيش وأنا بادخل..

حدجتني برب زمت من أجله شفتتها ثم هزت رأسها إيجاباً وقامت إلى غرفة شريف بعد ما همست في أذن الضابط فأمر العسكري بمصاحبي حتى باب المستشفى، مشيت بجانبه حتى صادفت شجرة الكافور المقطوعة، بحثت عن عم سيد بعيني قبل أن أسأل عنه إحدى الممرضات الهائمات..

- عَمْ سِيد!! عَمْ سِيد تعيش أنت من يسجي أربع سنين!! حزن
يا حبّة عيني ومات بعد الشجرة دي ما اتقطعت داهية تكحيم اللي
قطعها.. كان دائمًا يقول عليها شجرتي.. الله يرحمه..

!!!...-

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

من سِيَّنْتِ حَدَّثَ عَنْ عَمْ سِيدْ سَيْدُفُعْ غَرَامَةً خَمْسَةَ آلَافَ جُنْيهٍ!
خَرَجَتْ يَوْمَهَا مِنْ الْمُسْتَشْفِى إِلَى مَحَطةِ مِصْرَ، حَجَزَتْ تَذْكِرَةً
فِي قِطَارِ الثَّانِيَةِ عَشَرَةِ الْمُتَّجَهِ لِلإِسْكَنْدَرِيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَقْطُطْ كُوبُ قَهْوَةِ
وَأَجْلَسَ عَلَى دِكَّةِ مُغْمِضِ الْعَيْنَيْنِ مُحاوِلًا إِقناعِ أَلْفِ صَرَصَارٍ فِي
رَأْسِي أَنْ يَكْفُوا عَنْ حَكَ أَجْنَاحِهِمُ الْجَافَةِ فِي بَعْضِهَا، أَضْغَطَ مَرَازِيرَ
الـ«Escape» فِي كِبِورِدِي فَلَا تَسْتَجِيبُ، دَخَنَتْ سَبْعَ لَفَافَاتَ دُخَانٍ
لِتَسْيِيلِ دَمِهِمْ وَلَمْ يَطِيرُوا فَصَرَفَتْ عَيْنَيِّي إِلَى النَّاسِ أَتَأْمَلُ تَحرِكَاتِهِمُ
النَّمْلِيَّةِ، طَبَائِعِهِمُ الْمُتَرَجِّمَةِ تَرْجِمَةً مُوثَوَّقةً فِي لُغَةِ أَجْسَادِهِمْ، غَيَّابِهِمْ،
اصْطَنَاعِهِمْ، نَفَاقِهِمْ، ضَعْفِهِمْ، عَهْرِهِمْ، وَفِي أَحْيَانٍ قَلِيلَةٍ طَيِّبَتِهِمْ غَيْرُ
الْمُبَرِّرَةِ! اللَّعْنَةُ عَلَى الْبَشَرِ، بَعْضُنَا تَكْفِيهِ كَلْمَةً لَيْنَةً، وَالبعْضُ لَا يَكْفِيهِ
كُرْباجُ سُودَانِيَّ مَعْقُودٌ مَنْقُوعٌ فِي زَيْتِ مَغْلِيٍّ! أَعْتَدَ أَتِيَّ مِنْ النَّوْعِ
الثَّانِي.. وَغَيْرُ مَؤْمِنٍ بِالتَّغْيِيرِ..

حِينَ أَصِيلُ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ سَأَنْزُلُ الْبَحْرَ الَّذِي انْقَطَعَتْ عَنْهُ خَمْسَ
سِنِينِ.. سَيَطْهَرُنِي الْمَلْحُ أَوْ يَلْسُعني قَنْدِيلُ سَامِ.. لَا يَهُمُ..
سَأَنْهَيُ عَلَاقَتِي بِالْخَمْرِ تَدْرِيجِيًّا، لَكِنِي سَأَحْفَظُ بِالْبَيْرَةِ، فَالشَّعِيرُ
فَشِيلُ فِي إِسْكَارِيِّ!

لن أقاوم كأس «Johnnie Walker Blue Label»، إذا حضر! ففي
نكهتها مذاق شفتي لبني ا

لن أرى لبني ثانية، فحلقة «World's Deadly Spider - National Geographic» عن أكثر العناكب خطورة تقول:

«... سينسج حولها خيوطه شديدة الرقة والشفافية، والتي تُعد أصلب الألياف الطبيعية على الإطلاق، حتى تَبطُّئ حركتها وتنهك من محاولات التملص من الأسر، أو الانغماض فيه قبل أن يقترب العنكبوت السُّكير منها وينبدأ في لفها سريعاً لتظل حية طازجة ساخنة بجانبه، ليلاً عنها وقتما يشاء، بعد أن تفقد ابنته وزوجها كما تتميز تلك الفصيلة بعدم وجود مستقبل أو حاضر، هي فقط تعيش ماضياً لا تخرج منه...».

انتهت الحلقة حين ظهر رقم لبني على شاشتي، حكى ما حدث في الليلة الماضية مخففاً التفاصيل قدر المستطاع والتوابع التي ستحدث حين يتقيأ أخوها الكلام الذي تحرر في صدره ثم طمأنتها بكلمات من التي نقولها حين لا نجد شيئاً نقوله، رفقاً بها وبوالدتها العجوز التي كادت أن تكون يوماً حماتي! غابت في صمت ثقيل قرأت فيه تخبطاً وخوفاً ودموعاً تنحدر بيضاء قبل أن تصبح في ابتها توترة:

- «قلت ميت مرة تلمي لِعَبك يا حيوانة!».

تختلف الأم كثيراً عن حبيبة سايقة!!

- يعني شريف حالته...

- شريف هيقي كويس .. الكبد تعان شوية .. بس هيقي كويس ..

- أنا مكسوفة منك جداً .. أنت سبت المستشفى بسبينا!

- كده كده كنت هاسيها ..

- أنت كويس؟

- أنا كويس ..

- هاشوفك؟

...

- رُحت فين؟

- ولا حاجة .. أنا .. ها قضي شوية وقت عند أمي في إسكندرية ..

محتاج غير جو وأشوف ميشو ابن اختي و ...

- باقول لك هاشوفك؟

- ... ! خليني بعيد يا لبني ..

- كنت عارفة إنك هتقول كده !!

...

- يحيى أنا بحبك ..

سرت قشعريرة على جلدي لما قالتها، خرّجت منها همسا لأن زوجها بالقرب منها، زوجها الذي يراها كل يوم، زوجها الذي ينام معها كل خميس! يراها ليمونة ذابلة، وأراها تقاحة فائرة، اللعنة على أفكاري المتّسخة ودراما الحياة الرخيصة التي تشبه مسلسل

.. «The Bold and The Beautiful»

- أنا محتاجة لك.. بلاش تبعد..

- أنا لو ما بعدتش هتكرهيني.. خلني فيه حاجة حلوة تفضل..

- أنت خليت جبل جليد يتحرك.. ويعدين عاوز تروح!

- خدي بالك من نفسك يا البنى..

أنهيت المُكالمة فأغلقت المَحمول على قلبي وركبت القطار،
رجري إلى الإسكندرية قبل أن أرتمي في حضن أمي، أعدت احتلال
حُجرتي التي شهدت سنوات مراهقتي وفتحت شبابيكها التي أكل يوْدُ
البحر دهانها وأخشابها، قابلت قُمصاني المشجرة، شرائط «Doors»
القديمة، والهارديسك الـ«Giga 80» الذي يحوي كنوزاً وروائع أفلام
«السبعينيات ومكتبة Marilyn Chambers Porn» الكاملة!

استقررت يومين قبل أن أقرأ خبراً صغيراً في جريدة عن حريق
شبَّ في محل وشم بمصر الجديدة أسفَر عن مصرع صاحبة المحل
ومساعدتها، ولا أثر لشبهة جنائية!!

ذكرى الكلب الأسود لا تُغادر ذاكرتي، أتخيله يتابعني أينما كنت!
وسواسه أجبرني على النوم بعد الفجر أكثر من مرّة..

فشلت في الوصول لموزع «DMT» يعرف ما هو الفيل الأزرق!
ولمَّا سألت تاكي تليفونياً أخبرني أنَّ المتجر مختفي من السوق!!
مُلتزم بالبيئة فقط في سابقة هي الأولى من نوعها.. ثلاثة أيام
كاملة!!

اكتشفت أني لا أستطيع مُجارة ابن أخي، قرد صغير يلعب فوقي
أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، ولا ينام! كما أنه يُعشق شورية الخضار
التي أهجرها مسافة شهر، تفوح منه رائحتها أينما ذهب!!

ووجدت نفسي أوتوماتيكياً أعود للقاهرة بزحامها وعوادمها
ووحدتي المحببة لنفسي ..

علقت صور ابتي وزوجتي على الجدران ثانية، واسترضيت
جارتي مدام كوثربشال أخضر كان لزوجتي نرمين؛ فقد حلمت بها؛
لأول مرة، وطلبت مني أن أهبه الشال لأنها أبدت إعجابها به مرّة،
صدقني جارتي لأن الواقع كانت سرًا بينهن، أخذت الشال فبكت
واختضنتي قبل أن تناولني طبق رز بلبن بايت!

بَتْ أقضى ليلي كلّه تقريرًا عند عوني، واكتشفت مع الوقت أنَّ
«شاكيِّر» إنسان، وله مشاعر، كما تأكّدت أنه يعاني ضعفًا جنسيًا
أساعده نفسياً في تجاوزه بعدما اعترف لي وبكى!

رحلت «نجوزي» لبلدها بلا رجعة بعدما تعاركت مع عوني،
سألتها قبل أن تغادر عن السلسلة التي أعطتها لي فقالت إنَّ فيها
تحويجة معطرة، خليطًا من البخور يدفع الأرواح الشريرة، وقالت إنها
رأت يومها ظلًا داكنًا يتحرّك بجانبي أسللتها إن كان لها أصول مصرية
أو عربية؟ فأخبرتني أن لها جدة حبشية عاشت في مصر يومًا ما!

عَرفت من محسن أن التقرير قد خرج من ٨ غرب على يد دكتور
كيلاني، بأن شريف «بنسبة كبيرة» يعاني خللاً نفسياً، وإن لم يُشر
لوجود خلل عقلي يعفيه من مسؤولية الجرائم، خاصة بعد اعترافه..

حكمت المحكمة عليه بعقوبة خمسة عشر عاماً لأن الشك يُفترض
لصالح المتهم، فحكم خاطئ يفضي لبراءة أو سجن خير من حكم
خاطئ يودي ببريء للإعدام..

مرّ شهراً لم أتلّق فيهما اتصالاً من لبني، وأمسك نفسى بالكاد
أن أطلب رقمها..

أجلس يومياً أمام الإنترنت أبحث في طسم النكاح، شغف
غريب استولى عليّ بشأن ذلك الكيان الأسود، العزائم وعلم الأرقام
ومتالية المربعات، تعلمت حساب اسم الشخص ورغبتة، ثم خلطتها
وتحوّيلها لأرقام قبل أن أضعهما في المربعات التسعة، مربعات قد
تحمي وقد تضر، على حسب وساخة أو طهارة مستخدمها! كما
علمت أن الأرقام التسعة التي نقلتها من القميص إلى الورقة، هي
ترجمة لاسم الله «المانع» وحسابه بالأرقام حسب الجدول:

$المانع = ١ - ٣٠ - ٤٠ - ٥٠ - ٧٠ - ١$ ويساوي مجموعهما ١٩٢ ..
و ١٩٢ نطرح منه «الأس» وهو ١٢ فتساوي ١٨٠ ، ثم نقسمها على
ثلاثة فتساوي ٦٠ ، ليوضعوا بعد ذلك في مربعات الحماية وفق ترتيب
أشبه بنجمة خماسية تبدأ من الأسفل بذلك الترتيب:

٦١	٦٨	٦٣
٦٦	٦٤	٦٢
٦٥	٦٠	٦٧

ولم يكن ذلك هو الترتيب الذي وضعتهما فيه حين لوحّت بالورقة
في وجه شريف!!!

قبل أن أقطب حَاجِبِي توَرَّا خفت الأصوات في أذني واختلجمت
أنوار الغرفة، انقبض صدرِي وضمِّر إحساسِي بأطرافي حين شعرت
بالْحُضور، التفت بحدقتي ناحية الباب فرأيتها؛ زوجة المأمون، تَجُرُّ
شعرها على الأرض وراءها وتقترب، مسلول تابعتها ولا أقدر على
الحركة، في غمضة عين بات وجهها أمام وجهي، شعرت بأنفاسها
على صدرِي وحيف شعرها فوق صدغي تُسمِّي بنغمة خافتة:

مهما الزَّمان طَوَّل ..

لا تتجوز لارملة ..

ولا اللي اتجوزت لأول ..

ناكل في خيرك ..

وتذكر جوزها الأول ..

نظرت في عيني ثم فتحت فمها ببطء ففتحت فمي مُقلداً بلا إرادة،
أخرجت مادة رمادية أشبه بالمخاط، سبحث في المسافة الضئيلة بيني
وبيتها، بلا جاذبية، قبل أن تدخل فمي الذي انغلق بضغط كادت معه
أسنانِي وضروري أن تكسّر، ثم انسد أنفي، ابتلعت السائل عنوة بعد
مقاومة لا تُذكر، لا طعم له ولا رائحة، في غمضة عين أخرى رأيتها
عند باب الغرفة تنظر لي بابتسامه قبل أن تغادر وينسحب وراءها
شعرها على الأرض ..

كان ذلك حين انطفأ الكون بنجومه و مجراته ... بغتة !!

أَغْسُطْسُ ..

دَرْجَةُ الْحَرَارَةِ، ٩٠ ٠ ٠

مَنْبَهُ الْمَحْمُولِ انتَزَعَنِي مِنْ غِيَابِ النَّوْمِ، رَاقَدًا عَلَى جَانِبِيِّ الْأَيْسِرِ
الْفَظُّ أَنْفَاسِي، قَلْبِي مُسْحَقٌ فِي ضَلْوَاعِي، صَفَرَاءُ مَعْدَتِي تَسْلُخُ حَلْقِي،
وَالْعَرْقُ يَكْسُونِي كُمْلَاكِمُ فِي جُولَتِهِ الثَّانِيَةِ عَشَرَةً ..

مَدَدْتُ ذَرَاعِيَّ قَسْرًا إِلَى الْمِنْضَدَةِ فَلَمْ تَتَحرَّكْ تَنْمِيلًا، نَفَضَتْهَا
لِيَتَدَفَّقَ الدَّمُ فِيهَا قَبْلَ أَنْ التَّقْطُ المَحْمُولَ لِأُخْرَسِ إِلَاحَاجِ جَرْسِهِ
الْمُسْتَقْزَزِ، بِمُعْجَزَةِ جَلَسْتُ مُحاوِلًا اسْتِعَابَ الزَّمْنِ، عَيْنَاهِي مُغْلَقَتَانِ
بِأَسْمَنْتِ سَرِيعِ التَّصْلَبِ وَرَائِحَةِ حَلْقِيِّ مُؤْخَرَةِ خَتْرِيزِ مَيْتِ!

قُمْتُ مُتَرَنِّحًا أَجْتَرْ كَابُوسَ لِيَلَةَ أَمْسِ، سَيِّدَةُ الدَّارِ الَّتِي زَارَتِنِي
قَبْلَ الْفَجْرِ وَأَغْنَيْتَهَا الَّتِي لَا زَالَتْ تَرَنَّ في رَأْسِي! تَخْبَطَتْ حَتَّى بَابَ
الْغَرْفَةِ وَخَرَجَتْ إِلَى الصَّالَةِ حِينَ رَأَيْتَهَا مَازَّةَ بِضَفِيرَةٍ وَصَلَتْ لِنِصْفِ
ظَهَرِهَا، وَشَوَّرَتْ قَصِيرًا خَرَجَتْ مِنْهُ سَاقَاهَا النَّبِيُونَ!

دَعَكْتُ عَيْنِيَّ قَبْلَ أَنْ أَتَبَعَهَا لِلْمَطْبَخِ، لَمْ تَشْعُرْ بِوْجُودِيِّ حِينَ
دَخَلْتُ، كَانَتْ وَاقِفَةَ أَمَامِ مِنْضَدَةِ الْمَطْبَخِ تَقْطَعُ الْخَبْزَ لِتَصْنَعَ
سَانَدُوْيِتْشَا ..

-لُبْنِي !!

شهقت والتفت لي بيطن في شهرها السابع..

-اعمل صوت وأنت ماشي خضّبني حرام عليك..

قالتها ثم اقتربت ولثمت خدي بقبة متعجلة قبل أن ترجع
للمنضدة لتصب لبنا في طبق كورن فليكس..

-أنت بتعملني إيه هنا؟

-باعمل ساندوتشات لهاانيا.. والنبي إملا لها الزمزمية؛ الباص
زمانه جاي!

قالتها ودَسَت زمزمية بلاستيكية تحمل رسمة «Winnie the Pooh» في يدي وخرجت مسرعة تدق الأرض بششب وردي،
خرجت وراءها أبحث عن الفيل الأزرق ولم أجده، الشمس تمارس
الجنس مع عيني بلا حياء، بالكاد لمحتها تدخل غرفة ابتي، لما تبعتها
رأيتها جالسة على السرير، وهانيا ابتها بين ساقيها تواليها ظهرها
لشلّك شعرها بالفرشاة، تَسْمَرَت فاقدًا القدرة على الاستيعاب
حتى التفت لي الطفلة وابتسمت، قبل أن تقوم لبني وتلتقط من
يدى الزمزمية:

-يا كسان!! خُش الحمام أنت اللي هتأخرع الشغل.. يله.

قالتها ودفعتني ناحية الحمام حين أطلق الأتوبيس بوقه..

-يا لهوي!! الباص جه.. يله يا هانيا.. بُوسٍي يحيى..

أقبلت علي الطفلة وقبلتني بابتسامة نائمة، ملأت لبني الزمزمية

بَلْ أَنْ تَفْتَحْ لَهَا الْبَابْ وَتُطْلِقْهَا فِي الْحَدِيقَةِ وَتُرْسَلْ وَرَاءَهَا قَبْلَةَ فِي
الْهَوَاءِ ثُمَّ أَغْلَقْتِ الْبَابْ وَتَأْمَلْتِ وَجْهِي بِدَهْشَةٍ:

- مَالِكُ عَامِلٌ كِنْدَهُ لِيْ؟!

- أَئْتِ إِزَايْ...؟! حَصَلَ حَاجَةٌ مَعَ خَالِدْ...؟!

قطَبْتِ جَيْنِهَا حِينَ سَمِعْتِ اسْمَ خَالِدْ ثُمَّ جَلَسْتِ:

- آخِرَ مَرَّةٍ فِي التَّلِيفُونِ كَانَ غِلْسَ جَدًا.. بَسْ هِيجِي يَا خُدْ هَانِيَا
النَّهَارِدَه يَخْرُجُهَا.. اشْتَرَطْتُ عَلَيْهِ يَرْجِعُهَا بِدَرِي عَشَانِ الْمَدْرَسَه مَشْ
زي آخرَ مَرَّه.. وَهِيَجِيب بِقِيَهِ الْقَسْطِ بِتَاعِ التَّرمِ التَّانِي..

- لُبْنِي.. أَنَا مَشْ فَاهِمٌ حَاجَةٌ.. أَنْتِ اطْلَقْتِي؟!

فَلَّتَ مِنْهَا ضَحْكَهَا عَالِيَّه قَبْلَ أَنْ تُشِيرَ لِبَطْنَهَا الْمُتَفَخِّحِ..

- لو ما كِتَشْ بَطَّلْتَ شُرْبَ كُنْتَ صَدِّقْتَكَ!! يَلَهُ أَنْتَ أَتَأْخَرْتَ..
السَّاعَه سَبْعَه وَنُصْ..

قالَتِهَا وَدَفَعْتِنِي دَفْعَانَاحِيَ الْحَمَّامِ، فِي الطَّرِيقِ مَرَرْتُ بِصُورَهَا عَلَى
الْجِدارِ، صُورَه تَجْمَعَنِي بِلُبْنِي، أَرْتَدِي بَدْلَه عَرِيسٌ وَتَرْتَدِي فَسْتَانٌ
عَرْوَسٌ، وَبَيْنَا هَانِيَا!!

- لُبْنِي.. إِحْنَا بَقِيَ لَنَا قَدْ إِيهِ مَتْجَوزِينَ؟!

- يَا يَحْيَى بَطَّلْ رَخَامَه!!

- بِجَد..

- نَسِيتَ!!

- ردّي بس ..

- سنتين وتلات أيام .. يله ..

- اتجوزنا إزاى؟

- أنا مش مصدقة رخامتك النهاردة!!

- ردّي بس علياً ..

نفخت في ملل ثم أحاطت رقبتي بذراعيها:

- نسيت لما طلبتني وقلت لي محتاج لك؟! نسيت لما سألتني
إيه معنى تقضي عمرنا متعددين؟! نسيت الفيلم اللي عملناه عشان
نبقى مع بعض؟!

- وبعدين؟!

- وبعدين طلبت الطلاق من خالد.. إيه يا يحيى مالك النهاردة؟!

- أنا خليتك تطلقي من خالد؟!

- أنت خللتني أسعد إنسانة في الدنيا.. يله هتأخر..

لشمتي بُقبلة متعجلة ثم دفعتني للحمام وأغلقت الباب ورائي
وابتعد صوتها، وقفـت متيسـاً أتطلع لنفسي فيـ المرأة، أغمضـت
عينـي مـحاولاً تذـكر ما شربـت بالأمسـ، لمـ أـتذـكر سـوى زيـارة زـوجـةـ
المـأـمـونـ وإـفـراـزـهاـ الـهـلامـيـ فـيـ فـميـ، اـمـتـعـضـتـ قـبـلـ أنـ أـصـفـعـ وـجـهيـ
لـأـفـيقـ مـنـ الـحـلـمـ الغـرـيبـ، تـأـلمـتـ قـبـلـ أنـ أـشـعـرـ بـالـحرـارـةـ تـسـتـعـرـ عـلـىـ
جلـديـ، جـلدـ ذـرـاعـيـ الـبـسـرـىـ! خـلـعـتـ الـقـمـيـصـ الـذـيـ أـرـثـديـهـ فـرـأـيـتـ

وَشَمَا دَأِكِنَا يَمْتَدُ مِنَ الْكَتْفِ لِيَتْهِي فِي الْكَفِ، تَقْطُعُهُ بِالْعَرَضِ خَطْوَاتٍ
تَلْتَفُ حَوْلَ ذَرَاعِي كِدْرَاجَاتِ السَّلْمِ، نَهَايَةُ كُلِّ مِنْهَا مَشْبُوكَةُ بِمَا يُشْبِه
حَرْفَيْ «ص» مُتَعَاكِسَيْنِ ..

وَشَمَ يَتْحَرَّكُ كَفْرُوْعُ الْلَّبَابِ .. بِطَءِ ..

** معرفتی **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الاتسامة

شكر خاص

د. حسام صبري.. د. وائل إمام.. د. منى الشرباصي.. د. منال العطار.. د. هبة صبرى.. محمد الغزالى.. رامي العجروانى.. أ. عمرو الدسوقي.. د. تامر إبراهيم.. خالد ذهنى.. عمرو برادة.. حيدر.. هالة.. نرمين نعeman.. لينا النابلسى.. محمد ناير.. محمود حسبيب.. إيمان أسامة.. أ. صنع الله إبراهيم.. مروان حامد..

الغريب الأزرق

بعد خمس سنوات من العزلة الاختيارية يستأنف د. يحيى عمله في مستشفى العباسية للصحة النفسية، حيث يجد في انتظاره مفاجأة..

في «غرب»؛ القسم الذي يقرر مصير مُرتکبِ الجرائم، يُقابل صديقاً قدِيماً يحمل إليه ماضياً جاهد طويلاً لينساه، ويصبح مَصیره فجأة بين يدي يحيى.. تعصف المفاجآت بيحيى وتنقلب حياته رأساً على عقب، ليصبح ما بدأ كمحاولة لاكتشاف حقيقة صديقه، رحلة مثيرة لاكتشاف نفسه..

أو ما تبقى منها.

يأخذنا أحمد مراد في روايته الثالثة إلى كواليس عالم غريب قضى عامين في دراسة تفاصيله، رحلة مثيرة نستكشف فيها أعمق وأغرب خبايا النفس البشرية..

أحمد مراد؛ كاتب مصرى من مواليد القاهرة ١٩٧٨، تخرج في مدرسة «ليسيه الحرية» قبل أن يلتحق بالمعهد العالى للسينما قسم التصوير السينمائى، تخرج عام ٢٠٠١ ونالت أفلام تخرّجه «الهايمون - الثلاث ورقات - وفي اليوم السابع» جوائز للأفلام القصيرة في مهرجانات بإنجلترا وفرنسا وأوكرانيا.. بدأ كتابة روايته الأولى «فيرتيجو» في شتاء عام ٢٠٠٧، ونشرت في العام نفسه قبل أن تُترجم للإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وتم تحويلها لمسلسل تلفزيوني عام ٢٠١٢.. ثم أصدر روايته الثانية «تراب الماس» في فبراير ٢٠١٠ لتحتل قائمة أكثر الكتب مبيعاً قبل أن تُترجم الإيطالية.



ISBN 978-977-09-3154-7



9 789770 931547



دار الشروق
www.shorouk.com

حضریات
سهریاں
2013

www.ibtesama.com
متباہ محاہ / البتسمہ